مسؤوليات المثقفين

أبعاد جديدة للمسؤولية الطبية

للطبيب الدكتور بشير العظمة

[ازدحام الاشجار وتشابك الاعشاب ، يحجبان عن الجائبين خلال الغابة موقعها الجغرافي وابعادها الحقيقية]

« غوته »

مسؤوليات المثقفين في بلاد العالم الثالث ، ومتاعب العمل فيه ، سداد لديون المجتمع الفقير المتخلف عليهم ، وإنفاق الاهل وإنفاق الدولة على الجامعات والايفادات في حقيقته ، حرمان أفراد وحرمان جماعات من ضرورات حياتية ، من اجل تكوين نخبة علمية هي طريقنا الوحيد للتطور والارتقاء .

لقد تهيبت التعرض لمشكلة المتعلمين في كل الفروع ، فركزت البحث على المجال الطبي وأعتقد بأن مايقال فيه ينطبق على مختلف الفروع العلمية الأخرى .

إن الثقافة تربية ورؤيا بعيدة وعميقة ، وقليلاً مايرقى حاملوا الشهادات العلمية لمرتبة ارفع من المتهنين الغارقين في دوامة العمل اليومي الرتيب .

ان شعبنا العربي الذي يصحو على تفجير الذرة ورحلات الفضاء بحاجة كبيرة لطليعة علمية واعية للمشاكل العالمية في واقعها الاقتصادي والاجتماعي والفكري ، وربما كانت حاجة الشعوب المتخلفة للواعين من المثقفين ، اكثر من حاجاتها للذين لايرون الا في الحدود الضيقة لاختصاصهم . ذلك أنـــه يجوز ويمكن للأفراد في المجتمعات المتطورة المستقرة اجتماعيا واقتصاديا ان يعمل كل انسان في مجال اختصاصه ، وأن ينصرف بكليته لممارسة نشاط خاص مهني واجتماعي . مسؤولية المتعلمين والمثقفين ، على قلتهم في العالم الثالث ، تضاعف واجباتهم الوطنية عدة مرات وتجعلها بالغة التعقيد ، فان صياغة مستقبل اجيال واختصار التاريخ من اجل التطور ، تفرض عليهم انيشاركوا ايجابيا في معركة البناء والتطور .

فالقول ، بأن في انكلترا او في المانيا او الولايات المتحدة او غيرها من بلاد العالم « لكل اختصاصه ولكل عملــه » ، مرفوض في بـــلادنا حيث لايمكن ان تكون الحلول المقترحة موفقة الا اذا وازنت وحددت الاولويات بين التنمية والخدمات ، وكانت متصلة بواقع المجتمع واوضاعه الاقتصادية والاجتماعية .

ومن اغرب نتائج تطور العلوم والتقنية في الحضارة الحالية ، شعور متزايد بأن على كل انسان يريد ان يعيش عصره الحالي ان يعمق معرفته في اختصاصه ، وفي نفس الوقت وعلى نفس المستوى ، عليه كذلك ان يوسع معارفه بمجالات عديدة وبعيدة جدا عن هذا الاختصاص .

فليس مثقفا ولا جامعيا انسان لايهتم الا في مجاله المهني ، وليس طبيبا انسان يتقن اختصاصه دون ان يدرك اتجاهات البحث ومراحله في جميع الاختصاصات الطبية الاخرى ، وفوق ذلك المعنى الحقيقي للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفي جميع انحاء العالم ، ويعني ذلك امتداد المعرفة في الاتجاهين القائم والافقي .

وليس هذا الادراك أو الاطلاع ، بالنسبة للمثقفين في العالم المتخلف ، شكلاً من الترف العلمي بل ضرورة تفرضهـــا تطورات ترتبط بوجود الانسان ومستقبله ، فهو كما يقول الماديون مرتبط بخبزه اليومي .

وليس اعتباطياً اهتمام جميع الناس من الأميين ، وبشكل غير علمي ، بما يجري

في أصقاع الأرض البعيدة ، إنهم بالحس السليم العفوي يدركون ارتباط كل ذلك بمستقبلهم وأولادهم .

وإذا رفضنا القول بأن الفترة التاريخية الحاضرة حاسمة وأعظم أهمية من غيرها ، ومها التزمنا جانب التحفظ في وصف مميزات هذه الفترة التاريخية ، فانها ولاشك فترة يحدث فيها انعطاف وتحول كبير في تاريخ البشرية ، والميزة الرئيسية لهـذا الاتجاه أنه شامل لجميع سكان العالم . انه مخاض عسير لولادة عالم إنساني جديد تسود فيه قيم حضارية جديدة .

وعليه فنحن ندور مع العالم أجمع في الدوامة الكبرى ، وعلى الواعين منـا أن يدركوا واقع العالم وموقعنا في هذا القطر وفي الوطن العربي الكبير من المشاكل العالمية لنشارك إيجابيين مع الآخرين في صياغة صحيحة للعالم الجديد .

ويتند الصراع العقائدي الفلسفي الفكري والمادي فيشمل جميع بقاع الأرض ، ويطرح امام الجميع تساؤلات لابد من الاجابة عليها والاتفاق معاً على حلول لها .

إن انتصارات العلم في مجال مهنة الشفاء خلق أمام البشرية مشاكل بالغة التعقيد ، فازدياد عدد سكان الارض معضلة عالمية ينظر اليها المتطورون من زاوية مناقضة للزاوية التي ينظر منها المتخلفون .

يتساءل علماء الاجتماع : وما نفع زيادة سني الحياة اذا لم نهيء للشيوخ الذين يزداد عددهم ظروفا مادية ونفسية كفيلة بأن تدفع عنهم أخطار شقاء نفسي وبؤس مادي ؟! وكذلك مافائدة الدأب في البحث عن علاج للسرطان وأمراض القلب وغيرها من أسباب الوفيات مع بقاء الظروف المعاشية والاجتماعية السيئة في معظم بلاد العالم دون تبديل الا اذا كنا نريد للشيوخ وللعاجزين المزيد من أيام اليأس والألم والمتاعب ، وللشباب المزيد من الاعباء المثقلة لقدرتهم على الحركة والانطلاق ؟!

اعطاء لقاحات وادوية تقضي على الامراض إجراءات سهلة نسبياً وغير باهظـة التكاليف ، ولكن المشكلة ..وبعد ذلك ؟! كيف يعيش هؤلاء ومنهم الضعفاء والعاجزون من الذين يسمح لهم الطب بالعيش أياماً مديدة ؟!

لم يعرف التاريخ الانساني الطويل صراعاً مادياً وفكرياً في الأبعاد الجغرافيـة والانسانية التي نشاهدها اليوم .

تلتقط دور العجزة في بعض البلاد التي تتبوأ القمة في الانتاج والثراء ، عـدداً

متزايداً من الشيوخ والعاجزين دون أوراق هوية ، وكأنهم أولاد غير شرعيين . ذلك أن أولاد هؤلاء الشيوخ والعاجزين وأقاربهم قد يرمونهم ، ويريدون الخلاص منهم ومن الانفاق عليهم بعد عجزهم وانعدام النفع منهم .

تسمح الأدوية واللقاحات بأن يعيش أطفال ضعاف الأجسام أو مصابون بعاهات وكذلك المصابون بالتخلف العقلي ، ويخلق كل ذلك مشاكل اجتماعية واقتصادية خطيرة اذا لم تدبر أمرها . ففي الولايات المتحدة وحدها خمسة ملايين ونصف من المتخلفين عقلياً ونصفهم أطفال .

ان النصر الذي حققه الطب في بعض المجالات خلق مشاكل طبية واجتماعية جديدة لابد من مواجهتها بحلول منطقية وانسانية .

إن لكل خطوة من الكشوف العلمية المادية آثاراً مباشرة على المشكلة الاجتماعية ، ولابد لكل انسان واع من أن يدرك النتائج الخطيرة المترتبة على كل ذلك .

ولاتقتصر نتائج رقي وسائل التشخيص والمداواة الطبية على تعقيدات اجتماعيــة ومتاعب مالية ، بل انها قد تبلغ مدى فلسفياً بعيداً ، يضع الطبيب أمام سؤال كبير وخطير : وماهدف اطالة أيام مريض فاقد الوعي يتنفس بالآلة ، ويتغذى بالأنبوبة ، ولا أمل في شفائه ؟! أليس في الانفاق باهظ التكاليف على العناية الطبية لمجرد اطالة الحياة ساعات أو أياماً وحتى سنوات ، حرماناً للآخرين من الأجهزة ومن الكفاءات العلمية التي يمكن أن تخلص فعلا أناساً آخرين ، وتعيدهم الى حياة عادية ؟!

قد يعترض بعضهم فيقول : وما شأن الأطباء بالتساؤلات الفلسفية ؟ نحن اخصائيون

ويعني ذلك أن حدود مسؤولياتنا تقع مع نهاية المرض الذي نعالج !! وعلى الآخرين أن يتدبروا نتائج انتصاراتنا على الامراض !!

هذه آفاق بعيدة قد يرى بعضهم فيها ثرثرة أو تجديفاً في حق الرسالة التاريخية للطب ؛ فايضاحاً للمعنى الحقيقي لهذه التساؤلات ، وخوفاً من سوء التفسير في أخذ السؤال على ظاهره ، أو اقتطاع أجزاء منه ، فاني أتوقف قليلا لأؤكد بأن على الطبيب دائماً ، وفي أية ظروف أن يؤدي واجبه في الشفاء أو تخفيف الآلام ، وأن عليه فعلا أن ينسى كل كلام فلسفي يتعلق بنتائج عمله الاجتماعي والاقتصادي .

على الطبيب أن يواسي وأن يسعف ويعالج ويدفع الموت في كل الظروف ، ولكنه وبعد أن يؤدي مهمته ، لابد وأن يسائل نفسه عن النتائج البعيدة للخدمــات الصحية

والطبية والمشاكل التي أوجدتها ، وأن يشارك كذلك في ايجاد حلول ايجابية لها ، ولن يكون ذلك بمنع العناية الطبية عن المرضى والعاجزين ، بل بالعكس بتأكيد ضرورة ايجاد ضمانات مادية وظروف معاشية أفضل ، وعناية طبية واجتماعية متصلة لا أيام المرض فقط بل وبعد الشفاء . فان المسؤولية الطبية لاتنتهي بشفاء المرض بل بعد عودة المريض انساناً عاملا منتجاً في مجتمعه ، ويتصل ذلك بضرورة ضمان عيش انساني للشيوخ والمقعدين .

ان سلوك الأطباء في عملهم وفي علاقاتهم بمرضاهم وبمجتمعهم ، موضوع متطور مع تطور علاقات الخدمات الطبية ووسائل العمل فيها ، وينعكس كل ذلك على حياة الفرد اليومية في مجتمعه .

وسأعرض فيما يلي صوراً عن العلاقات الجديدة نتيجة التطور المزدوج في العلوم والتقنية الطبية وفي الوعي الاجتماعي .

اولا : الخدمات الطبية في المجتمعات المتطورة :

يواجه الأطباء في العالم المتطور صراعاً شديداً في ضمائرهم ، وصراعاً آخر مع المجتمع الممثل بالنقابات والدولة ، صراع بين الفردية وبين المجتمع ، بين حرية الفرد ومسؤوليته الوجدانية وبين ارتباطاته بمجتمعه ومسؤولياته تجاه هذا المجتمع .

الطبابة في عرف المجتمع منذ ربع قرن مهنة حرة ، ويعني ذلك حرية التعامل بين المرضى والأطباء « حرية المريض في الانتقاء وحرية الطبيب في المداواة » . ان تعدد الاختصاصات في الطب وتشعبها ، وتعدد وسائل التشخيص والمعالجة وتجديدها ، رغم تكاليفها الباهظة ، كل ذلك يفرض على الأطباء العمل كجماعة من مختلف الاختصاصات مع المساعدين والفنيين لتبقى خدماتهم في مستوى علمي لائق .

الخدمة الطبية أصبحت نتيجة كل ذلك باهظة التكاليف ، وفوق قدرة الفرد على الانفاق عليها . والاصابة بمرض خطير او مزمن ، نكبة اقتصادية لا يحتمل اعباءها الا النزر اليسير من الناس .

وكما اضطر الأطباء للتكامل والتعاون في عملهم العلمي انتظم المستهلكون للخدمات الطبية في صناديق للضمان الطبي . وتتحمل الدولة الانفاق الكامل على الخدمات « تأميم الطب » او تسد العجز في صناديقه . وفي الحالين تتدخل الدولة التي تنفق لتنظم العلاقات الجديدة ، ولتبقى الخدمات الطبية في متناول المحتاجين لها .

ففي العالم المتطور إذن، ونتيجة الظروف الجديدة، انتهى الطب الحرفي artisanal. وكل محاولة التمسك بالعلاقات القديمة، لا تختلف بشيء عن محاولات عمال الأنوال اليدوية في مقاومتهم لزحف الصناعة الآلية (الاوتوماتية) في انتاجها الضخم، وفي قدرتها على تقديم سلع في حدود امكانات استهلاك المحتاجين.

ان جميع المستشفيات العلمية في العالم خاسرة لوارادت الاعتماد على مواردها من الخدمة الطبية، فهي مضطرة لقبول الهبات والمساعدات من الجمعيات او الدولة.

وسأحاول فيما يلي الاشارة للمضمون التطبيقي لحرية المريض وحرية الطبيب فيما لو تركت الخدمات الطبية تحت رحمة قانون العرض والطلب.

أين هي حرية المريض المصاب بعلة تحتاج لفحوص او جراحات فوق قدرة الفرد وكذلك فوق قدرة المجتمع الذي ينتسب اليه في الاتفاق عليها ؟!!

حرية الطبيب وحرية المريض جزء من قاعدة اساسية كانت سائدة في القرن التاسع عشر في الاقتصاد الرأسمالي تقول «دعه يمر، دعه يفعل». ومع التطور التقني والاجتماعي في العالم تضاءل عدد البلاد التي لاتزال تعتمد هذه القاعدة أساساً التعامل، والدولة الكبيرة التي لا تزال تحاول التمسك بها هي الولايات المتحدة الأمريكية. يقاوم المجتمع الأمريكي، وبعناد، كل اجراءات تؤدي بشكل او بآخر الى الحد من حرية هـذا التعامل، وهو منسجم في ذلك مع تقاليده التاريخية منذ الفتح الأمريكي للعالم الجديد.

ويتبنى الأمريكيون الفلسفة التالية، وهي مشتقة من الداروينية الجديـدة Néo - Darwinisme «البقاء للأصلح» تقول هذه الفلسفة: ان الانسان النابه والناجح صاحب حق في ان يكون حظه من الحياة افضل من الخامل والفقير !!

يواجه المجتمع الأمريكي النتائج غير الانسانية والتي أشار اليها الرئيس جونسون في رسالته للكونغرس عام ١٩٦٤ وتتضمن الحقائق التالية:

أولاً — تؤدي الاصابة بمرض خطير لافلاس اكثر الأمريكيين، فان المواطن في الولايات المتحدة يعتمد على دخله الشخصي للانفاق على المرض، ذلك اما بدفع الأقساط الشهرية لشركات التأمين «ولا يغطي الضمان الطبي فيها الا جزءاً من النفقات» او ان يواجه نفقات المرض الطارىء وهي تستنزف خلال اسابيع ما ادخره خلال سنوات.

ثانياً — يقدر الرئيس عدد المحتاجين اي الذين يعيشون في مستوى غير لائق بـ ٢٠٪ من سكان الولايات المتحدة، فالأربعون مليون امريكي عاجزون تماماً عن مواجهة تكاليف المرض لانهم عاجزون عن الادخار.

بناء على ما سلف ، لا ينظر من الأمريكيين الى مستقبلهم الصحي بثقة وإيمان الا عدد قليل من الأغنياء والاداريين الكبار في اتحادات ارباب العمل او العمال .

ثالثاً – يقبل المرضى المعدمون للمداواة في المستشفيات العامة مجاناً ، وتنفق البلديات او الجمعيات الخيرية على علاجهم فيها . ونصف الاشخاص الذين تجاوزوا سن الخامسة والستين لايتمتعون بأية حماية ضد المرض ، وعلى جميع الفقراء المحتاجين للخدمة المجانية ان يقيموا البرهان على حاجتهم المالية . وتختلف قوانين الولايات في تحديد شروط الاستفادة من المداواة المجانية ومعظم هذه الشروط تقضي بأن يكون المستفيد من العلاج المجاني معدماً وعلى حافة التسول indigence totale (١) .

تعتمد رسالة جونسون فلسفة جديدة في الولايات المتحدة لايصارح أعضاء الكونغرس بها ، وهي تناقض تماماً مبادىء الحرية المقدسة التي أدت الى الاوضاع غير الانسانية الحالية ، حيث يقول : **ان لكل مواطن أمريكي مصاب بمرض خطير الحق في أن يجد أحسن مداواة ممكنة على ضوء الامكانيات العلمية الحديثة .**

ويعتقد المراقبون بأن هذه الرسالة تعكس اتجاهاً واضحاً في الرأي العام والاوساط المسؤولة من أجل اصلاح عدم التجانس في المجتمع الامريكي .

يحتل البحث العلمي الطبي في الولايات المتحدة القمة الرائدة العالمية ومع ذلك فان المواطن الامريكي العادي هو آخر من يستفيد من هذا التطور العلمي الرائع .

والخلاصة : حتى الولايات المتحدة أغنى بلاد العالم وقمة البحث والاختراع العلمي في جميع الفروع تضطر تحت ضغط الظروف الاجتماعية ، ووليدة التطور العلمي التقني ، ان تبدأ حركة اصلاحية جذرية من أجل تضامن المجتمع ضد المرض .

وضمانة المجتمع لأمراض أفراده لايمكن أن تستوعب وتستجيب لجميع طلبات المريض ، فقد لايرغب المرضى بترك سرير المستشفى ، او يشعرون بأن ضمانة المجتمع لابد وان تشمل تجميل الأنف وازالة العيوب ويعني ذلك الشطط في استخدام الحقوق .

---

(١) وقد اعتمد الرئيس جونسون في رسالته على ارقام وردت في تقرير للخبراء تشير الى الوضع الصحي في الولايات المتحدة : ان في هذه البلاد الغنية جداً خمسة ملايين ونصف المليون من المتخلفين عقلياً ، وان خمسة عشر مليوناً من المواطنين الامريكيين مصابون بأمراض قلبية مزمنة ، وان السرطان قضى عام ١٩٦٤ بوفاة ٣٠٠ ألف مواطن امريكي « نشرت خلاصة عن رسالة الرئيس جونسون في العدد رقم ١٢ من المجلة الطبية العربية تاريخ تموز ١٩٦٥ صفحة ١٦٠ » .

وكذلك قد يعتقد بعضهم بأن على صناديق الضمان وفي البلاد المختلفة أن توفر جميع جراحات الاختصاص واحدث الوسائل والأدوات في التشخيص والعلاج .

الجواب على كل ذلك : التأكيد بأنه يستحيل على البلد المتخلف اقتصادياً وعلمياً ان يجدد اجهزته ويطورها ، وينفق على الأخصائيين ومساعديهم ، لتبقى الخدمات الطبية مسايرة لأحدث ما يجري في العالم .

وفي البلاد التي يشمل فيها نظام الضمان الطبي جميع السكان او معظمهم يندفع المرضى الذين يستفيدون من صندوق الضمان ويريدون افضل معالجة عالمية سمعوا بها او قرأوا عنها ، انهم في غمرة التفاؤل العالمية ، وتضخيم انباء النصر على الأمراض ، يعتقدون بالمعجزات وبأن الموت والعجز قد قضي عليهما ! !

ومعنى ذلك ان لمستوى الخدمة الطبية حدوداً مقررة لجميع المنتسبين لصندوق الضمان الشامل لجميع المواطنين او لفئة منهم ، وهي حدود يقررها المستوى العلمي التقني بشكل عام وقدرة الاقتصاد الوطني على الانفاق .

تعتمد العلوم الطبية في تطورها وفي صحة فحوصها ونجاح اجراءاتها على تطور متناسق في جميع العلوم الأساسية . فاذا لم تتوفر الكفـاية من الكيميائيين والفيزيائيين والالكترونيين والفيزيولوجيين . الخ ، اذا لم يتوفر جميع هؤلاء وغيرهم أيضاً ، واذا لم يقم تعاون كامـل بين جميع العاملين العلميين ، فستبقى الآلات والأجهزة المشتراة مقتنيات جيلة لفترة زمنية محددة ، ثم تصبح قديمة بالية وقبل ان يستفاد منها احياناً .

والخلاصة لقد اصبحت الخدمات الطبية في البلاد المتطورة والمتخلفة على السواء خدمات اجتماعية لا فردية ، وان على المخططين لتطويرها مراعاة امكانية توفيرها لجميـع المحتاجين لهـا . ولايمكن ذلك الا في حدود طاقات احتمال الاقتصاد القومي والتطور العلمي الوطني .

ثانيا ــ الرقي في التقنية الطبية وعلاقات المرضى بالاطباء :

لو صحا طبيب عام ١٩٣٠ من سبات استمر زهاء اربعين عاما لأصيب بالذهول من التبدل في مظاهر العمران في المدينة وفي وسائل النقل والإنتاج . يحتفظ هذا الذي نام في الكهف زهاء اربعين عاما بامكانيات عملية كافية لمتابعة عمله الطبي دون تخلف يذكر ، فقد بقيت وسائل الأطبـاء واحدة في مساعدة القلوب الواهنة ، وتسكين السعال العنيـد ، وتمييع القشع .. الخ .

لقد بقي الطب حتى الثلاثينات من القرن الحالي عاجزاً عن تبديل سير الأمراض بشكل جذري، الأمراض السليمة يشفى منها والخطيرة تميت، وكانت وظيفة الطبيب في حقيقتها وظيفة شاهد قليل الكلام ضئيل المعرفة، ولكنه كبير الثقة بما يفعل!! فالتهاب السحايا والسل وانتان الدم وقصور الغدد، أمراض يعرفها. ويعرف كذلك كيف يخفف من جزع الاهل، حتى تكمل سيرها الحتمي.

أما الطبيب الذي نام في الثلاثين ليصحو اليوم فهو شخص قد تبهره الأنوار التي ازدادت، والضجيج الذي اشتد، ولكنه انسان لا يمكن ان يتعرف عليه زملاؤه. فالانتانات يشفى منها، وداء أديسون مرض يمكن للمريض ان يعيش معه كذلك الديابت، أو فقر الدم الخبيث لم يعد خبيثا، والجراح يمد بمشرطه الى القلب والدماغ، وأخصائيو الدم يبدلون دماء المولودين، واطباء النفس اصبحوا كيميائيين قادرين على اصلاح الخلل العقلي. والمسابر والأنوار والأشعة والمجاهر والالكترون، كلها وسائل لاستقصاء الأحشاء، وتبلغ وسائل الاستقصاء حتى مستوى الخلايا والنسج والجزئيات Molécules أحيانا.

يعتمد البحث الطبي في الوقت الحاضر على الاحصاء في التشخيص والمداواة، ويهدد هذا الاتجاه بأن يجعل المريض رقماً او حالة دون صلة شخصية بين الطبيب ومريضه. إن النتائج المترتبة على الاعتماد المتزايد على الاحصاء لا يجوز ان تطمس ضرورة الصلة النفسية الفردية بين المعالج والمريض.

وانقطاع الصلة بين المرضى والأطباء اتجاه ظاهر خاصة في المستشفيات، حيث لا يجد الأطباء وقتا لزيارة مرضاهم. ان هذا الاتجاه نتيجة لرقي التقنية الطبية، وقد جعل الأطباء فئتين يزداد التباعد بينها، الفئة الأولى هم أطباء الفراسة والخبرة الشخصية Empirique ويعتمدون على التقدير والترجيح والحدس، والآخرون هم الاطباء العلميون. ويتميز الأولون بأنهم يطوفون على مرضاهم يحاولون ارضاءهم، وهم يمثلون بقايا جيل فردي في سبيله للزوال، والآخرون اشخاص قساة يبعدون عن مرضاهم، وهم اقرب للاوتوماتية الآلية منهم للطبيب المواسي.

ولعل مصيبة المريض في هذه الايام بطبيب جاهل اكبر من مصيبته بمرضه. وما نفع الوجدان الطبي اذا اهمل الطبيب متابعة تطور المعرفة الطبية!! تتبدل اسس المعرفة الطبية ووسائل البحث والمعالجة في فترات تجعل المتابعة الشهرية او اليومية للجديد في الطب ضرورة لا غنى للممارس ان يخصص الوقت الكافي لها من نشاطه اليومي.

فطبيب اليوم تلميذ طالب علم طيلة حياته ، وهو مضطر لمتابعة النشرات الدورية والمحاضرات العلمية والمؤتمرات والدورات التدريبية . فاذا لم يفعل فقد انحدر الى مرتبة موزع الدواء لا صانع الشفاء .

ويحق لنا ان نتساءل : ألا يجوز للطبيب ان يجمع بين التعامل الانساني والمعرفة الطبية في ممارسته ؟! ان الزيادة المطردة في الأدوات والأدوية والأرقام والآلات تستأثر بجزء كبـــير من وقت الطبيب العلمي ، فـلا يسمح له بأن يبقى قرب فراش مريضه يجامله ويواسيه ، خاصة وان تقدير الطبيب لخطورة المرض يتباين ويتناقض غالباً مع رغبة المريض الذي يريد ان يستأثر بحصة الأسد من وقت طبيبه .

وتتركز شكوى الأطباء، ومتاعب الخدمة الطبية في تأميم الطب ونظام الضمان الصحي، من الضغط الذي يمارسه المرضى واهلهم من اجل شكاوى سليمة ، فيحجبون بذلك عن الاطباء المرضى الحقيقيين المحتاجين لعناية مستعجلة ضرورية .

ثالثاً ـ التكاليف المتزايدة للخدمة الطبية :

ان تطبيب المرضى في هذه الأيام عمل جماعة متعاونة ومنصرفة لعملهـــا ، لا عمل هواة قانعين بالرضا الوجداني والجهل العلمي .

يزداد عدد الأفراد العلميين العاملين في التشخيص والمداواة وتتعدد اختصاصاتهم « باتولوجيا ، كيمياء ، أشعة ، الكترون ، تخدير ، تأهيل ، تمريض .. الخ » وكذلك يزداد عدد الفحوص الضرورية لتشخيص الأمراض ومتابعة العناية بها . نتيجة كل ذلك ارتفاع حاد التكاليف المرض وعجز الأفراد عن تحمل ذلك . ومن اجل توفير طب علمي والجميع على السواء كانت فكرة الضمان الطبي . قوبل قانون الانتساب لصناديق الضمان الاجتماعي في فرنسا عام ١٩٣٣ بالريبة والشكوك . ومع تطور التقنية وازدياد الشعور بضرورة التكامل الاجتماعي امام المرض والعجز والشيخوخة بلغ عدد المنتسبين الى هذا الصندوق عام ١٩٦٥ ، ٨٥٪ من الشعب الفرنسي .

وليس يعني ازدياد عدد الفريق العامل في تطبيب المريض ضياع المسؤولية فيما بينهم، فان على الطبيب او الجراح رئيس هذا الفريق ان يقوم بدور رئيس فرقة ينظم العمل فيها ويتابع حسن ادائه . ويقضي كل ذلك على العقل المنظم لعمل الفريق ، الالمـــام بالأسس والتطورات في مختلف الفروع ، وعليه كذلك اسباب الوقاية من القصور الدوراني Collapse والكلوي والصامة او غيرها من الاختلاطات . وعلى الطبيب والجراح

وكل أخصائي وفي جميع الفروع أن يعملوا متعاونين منكرين لذاتهم anonymat قادرين على فهم الآلية الامراضية وقراءة المخطط والصورة ، والتعرف على الاعراض المنذرة او الارقام البيولوجية الطبيعية والمرضية وهي ظروف نفسية اجتماعية جديدة تماما في العمل الطبي .

ولا تنتهي مهمة الطبيب او الجراح بزوال أعراض المرض او اجتياز الفترة الحادة منه ، بل لابد له من ان يساعد ويوجه ليعود المريض عضوا عاملا منتجا في مجتمعه ، فان التدريب والتأهيل والتوجيه مسؤولية طبية اجتماعية لابـد للأطباء من المساهمة في نجاحها .

والخلاصة : العمل الطبي العلمي الناجح وفي جميع الاختصاصات هو نتاج تعاون وتفاهم وتكامل بين فريق من الفنيين على مختلف مستوياتهم .

والبديل المنطقي لعمل الطبيب الحرفي ، والجواب الصحيح لتعدد الاختصاص ، هو في عمل الفريق الطبي ، وفي المستشفى المجهز بالأفراد العلميين والأدوات .

وما من شك في ان تطبيق الضمان الاجتماعي ، لفئات من المجتمع او لجميع المواطنين ، كان اجراء انسانيا وجوابا صحيحا يرفع عن المريض اعباء انفاق لاطاقة له باحتماله ، فوق مصيبته بمرضه او عجزه وشيخوخته .

وقد تغلغلت بعبدا فكرة الضمان الصحي وفي جميع انحاء العالم حتى اضطر الكونغرس في الولايات المتحدة فأجاز قانون العناية الطبية medicare بعد تردد دام سنوات.

ويزداد وضوحا امام الرأي العام وفي كل بلاد العالم ، ان اهمال مرض الافراد وحدوث العجز الوظيفي نتيجة لذلك ، مع الزيادة المطردة في متوسط حياة الانسان ، كل ذلك يحمل الاقتصاد الوطني ، وقبل ذلك دخل الفرد وعائلته ، أعباء ذات نتائج خطيرة ، اذ تزيد من عدد المستهلكين للخدمات الطبية ، والعاجزين عن العمل والانتاج.

ونتيجة لذلك يركز القطاع العام للخدمات الطبية جهوده لتوفير المزيد من وسائل الوقاية الطبية، وكذلك المزيد من العناية بالتأهيل والتدريب بعد الاصابة بالشلل والكسور او العاهات على اختلاف أشكالها ، كل ذلك ليبقى المواطن العاجز انسانا طموحا قادرا على الانتاج ، او في الحدود الدنيا غير كافر بانسانيته .

رابعا : تحديد مستوى الخدمة الطبية في المجتمع المتضامن :

بعد تطبيق نظام الضمان الاجتماعي لابد من تحديد مستوى الخدمة التي يجب ان توفر للمرضى بحسب امكانيات اقتصاد البلد ، فان الارتفاع في خدمات اختصاصية لابد وان يحرم آخرين من خدمات اساسية، وهو صراع بين خدمات لأفراد وخدمات للجميع.

ويبقى الصراع حاداً بين رغبة الانسان باطالة ايام حياته ، مها كانت باهظة تكاليف ذلك ، وبين توفير الضرورات للمجموع . ومن اجل المشاركة في رسم الحدود بين حقوق الجماعة ورغبات الأفراد ، لابد للأطباء من المساهمة الإيجابية في ايجاد حلول منطقية وفي مصلحة الجماعة لا الأفراد .

• التضامن الجماعي امام المرض ونتائجه ، ضرورة يفرضها التطور العلمي التقني والاجتماعي هذا التكافل الاجتماعي امام المرض يقضي بالتزام خطة لتنظيم تأمين الخدمات الطبية للجميع عند حاجتهم لها .

وتعني الخطة رسم حدود للخدمة الطبية بحسب قدرة الاقتصاد الوطني . والترجمة العملية لذلك توجيه الاختصاص نحو فروع اساسية ، والانتقال المرحلي لمستوى أرفع بعد تأمين الضرورات الاساسية الوقائية والعلاجية في الحدود الدنيا وللجميع على السواء .

ولايضاح الفكرة اورد مثلا منقولا عن فرنسا في موضوع كشف علمي جديد : كانت تستعمل الكلية الصناعية قبل عام ١٩٦٠ في معالجة العجز الكلوي الحاد والعارض ، « حيث يحتفظ المريض بالسلامة التشريحية والفيزيولوجية للكليتين » وتفيد الكلية الصناعية كذلك في تنقية الدم لأشخاص مصابين بآفات كلوية مزمنة ، تطبق من حين لآخر فتصفي الدم من الفضلات السامة . في عام ١٩٦٠ أوجد سيتل Seattle) «من الولايات المتحدة» طريقة تمكن الطبيب من تكرار التصفية الدموية في فترات متقاربة ، باستعمال جهاز بسيط نسبياً ينظم دورة قصيرة Court - circuit دائمة بين شريان ووريد في الساعد . ويترك الجهاز في مكانه تحت ضماد ، وتوصل هذه الدائرة القصيرة بجهاز الكلية الصناعية كلما قضت الضرورة بذلك ، مرة او مرتين في الاسبوع ، وتستمر الجلسة عدة ساعات . وهكذا فان عدة مئات من المرضى المصابين بالاوريميا في الولايات المتحدة ، ورغم الخراب التام للكليتين عندهم ، يعيشون حياة عادية تقريبا بفضل هذا الجهاز .

انها طريقة ممتازة قد تمنع حدوث الموت عند آلاف من الناس المصابين بالاصابة الكلوية المزمنة ، ويمكن لمركز اختصاصي ان يتابع معالجة ١٥-٢٠ مريضاً . فهل يجوز

إن نقيم مئات من المراكز لعلاج المصابين بالاوريميا المزمنة لاطالة حياتهم ؟ هل نوجه العناية الطبية وننفق الأموال المخصصة للخدمة الطبية ، وارقامها محددة ، في علاج جديد مدهش في نتائجه ، ولكنه باهظ التكاليف بالمواد والافراد ؟ أم ان الافضلية يجب ان تعطى للتلقيح ضد الكزاز والديفتريا او مداواة التيفوئيد والرمد . . . الخ لألوف أو مئات ألوف المرضين أو المصابين بهذه الامراض أو غيرها !؟

تقدر اكلاف علاج مريض مصاب بالاوريميا المزمنة بالكلية الصناعية بـ ٥٠ ألف ليرة سورية سنوياً ولكل مريض ، وتقدر أكلاف كل مركز بمليون ليرة سورية تقريباً في فرنسا « Gosset . ل » . ان عدد المرضى الذين يحتاجون لهذه المداواة سيزداد حتماً من سنة لأخرى ، ذلك أن المرضى المزمنين سيستمر علاجهم ، ويضاف اليهم المصابون مجدداً بآفة كلوية مزمنة ، وقطع العلاج عن الأولين سوف يقضي بموتهم فور اهمال علاجهم.

وهكذا فان اطالة عمر جميع المرضى المصابين بالآفة الكلوية المزمنة ، ولفترة زمنية لاتزيد وسطياً عن عشر سنوات يكلف مبلغاً من المال يقدر في فرنسا بـ ٣٥ مليار من الفرنكات !! وعدداً من الاخصائيين والمساعدين لايمكن لفرنسا أن تجهزهم .

وتطرح الأسئلة السالفة نفسها في موضوع ادخال جراحات القلب والدماغ والتجميل .. الخ وكل مستحدث طبي جديد .

ومع الاعتراف بصحة القول بأن الحياة الانسانية لاتقوم بمال ، علينا أن نعترف كذلك بأن مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد .

وجواباً على تساؤل بعضهم : ولماذا لاتكون أحدث الوسائل الطبية في خدمة الجميع !؟ نؤكد بأنه لايمكن لأي اقتصاد وطني ، وفي أي بلد من بلاد العالم ، أن يقدم لجميع المواطنين على السواء خدمة طبية علمية وفي أرفع مستوياتها المتطورة .

إن الأجهزة التقنية الحديثة المتجددة — والتي نسمع ونقرأ عن تطبيقاتها في أغنى بلاد العالم — تبقى في خدمة الفئة القليلة بل النادرة القادرة على دفع تكاليفها .

هذه صورة عن مشكلة مطروحة في فرنسا وهي بلد حضاري عريق وغني علمياً واقتصاديا . ولست أرغب في الاسهاب في استعراض ابعاد المشكلة الطبية الاجتماعية في بلدنا حيث نشكو نقص الأطباء والممرضين والأسرة ، وحتى الوسائل البدائية في الخدمة الطبية ، وقبل كل ذلك تنظيم للخدمات الطبية يقيم تعاونا وتكاملا فيا بين جهات متعددة تتنافس فيا بينها ، وتشل حتى امكانياتها المحدودة .

لقد انتزعت انتصارات الصحة والطب إعجاب العالم ، وتعلقت آمال الملايين من المرضى ولا تزال ، في امكانية حدوث المعجزات .

إن منجزات الصحة والطب والجراحة مصدر آمال عريضة لمستقبل البشرية، وهي مسؤولة حالياً عن خلق مشاكل وتعقيد اخرى: شيخوخة الشعوب، زيادة عدد المتخلفين عقلياً والعاجزين والمرضى المزمنين، زيادة تكاليف الخدمات الطبية، وزيادة السكان .. إلخ .

فعلى الذين يرسمون خطوط المستقبل، من اجل سلوك الطريق الأقصر للتنمية الاقتصادية والاستقرار الاجتماعي، ان يدركوا ويلتزموا حدود الامكانيات والضرورات في التنسيق بين التنمية الاقتصادية والظروف الاجتماعية والخدمات الطبية، لتبقى هذه الخدمات وسيلة رئيسية تساهم في تحرير الانسان من خوف المرض وخوف العجز والشيخوخة.

يتعامل الطب في الممارسة اليومية مع النفس الانسانية والجسم الانساني، ويعني ذلك ان الطب مهنة ملتصقة بالحياة، فأثر العمل الطبي ونتائجه بالغة الأهمية على الحياة البشرية، ولا يمكن ولا يجوز ان يبقى الأطباء في معزل عن العاملين في الحقول الاجتماعية والسياسية من اجل إيجاد الحلول الايجابية لنتائج عملهم المهني اليومي .

تأثير العلم

على تطوير الزراعة في البلدان النامية

بقلم نعيم جمعة

ان مما يجلب الدهشة والاعجاب في عصرنا الحاضر هذا التفاوت الموجود في مستوى المعيشة لسكان البشرية . فقد وصلت الدول المتحضرة بواسطة العلم في هذا العصر الى درجات عالية من التقدم في مختلف مجالات الحياة ، فهو عصر الثورة الصناعية الذي احتلت الآلة فيه معظم الاعمال التي كان على الانسان ان يقوم بها واخذت فيه آلات بل ومعامل كبيرة تدار بشكل اتومانيكي حتى ان بعض العلماء يسمون هذا العصر بعصر الذرة، فما اطلاق الصواريخ والمركبات

الفضائية التي تدور حول الارض وهي تحمل البشر استعداداً لانزال انسان على سطح القمر واكتشاف الاجرام السماوية لمعرفة ماهيتها والاستفادة منها الا صورة حية لهذا العصر، الذي كان من نتائجه المباشرة ارتفاع مستوى المعيشة في الدول المتحضرة بينما بقي قسم كبير من سكان البشرية يعاني الجهل والفقر والمرض.

يبلغ تعداد سكان البشرية الآن اكثر من ثلاثة مليارات نسمة نصفهم تقريباً يعانون الجوع وامراض قلة التغذية والامراض المزمنة الاخرى الى جانب الجهل.

فاذا حسبنا متوسط زيادة سكان البشرية في العام الواحد لوجدنا ان هذه الزيادة تبلغ اكثر من ٢،٠٧٪ ومعنى ذلك انه حتى عـام - ٢٠٠٠ - سيكون مجموع سكان البشرية ثلاثة مليارات اخرى تقريباً عما هو موجود حالياً وبالتالي يجب مضاعفة الانتاج الحالي اضعافاً مضاعفة لتأمين الغذاء اللازم لهذه الزيادة الى جانب العدد غير القليل من ملايين الشعب في وقتنا هذا والتي تموت جوعاً. الا اننا في عرضنا هذا يجب ان لانكون متشائمين حسب نظرية مالتوس التي تقول: « ان زيادة البشرية المضطرد لايتناسب مع مانقدمه الارض من خيرات تكفي لهذه الزيادة مما يستوجب تحديد النسل » ، مادامت توجد مساحات واسعة من الارض الزراعية القابلة للزراعة لم تستثمر بعد وادخال العلم في الزراعة في هذه المناطق لم يحتل مكانه الرئيسي في زيادة وتطوير الانتاج الى جانب الادلة العديدة التي تدعينا الى التفاؤل شريطة العمل والانتاج.

فالادلة الكبيرة على امكانية زيادة الانتاج وتطويره في القطاع الزراعي، التوسع الافقي في الزراعة (اي زيادة المساحات المزروعة حالياً على حساب الاراضي القابلة للزراعة ولم تستثمر بعد) والتـوسع العمودي (اي زيادة وتحسين الانتاج باستعمال الآلات الحديثة والاسمدة العضوية والمعدنية وانتقاء البذور ومكافحة الحشرات وادخال نتائج العلم الحديث في الزراعة الخ ...). ولذا فان تطوير الزراعة - لزيادة الانتاج وتأمين الغذاء اللازم لسكان البشرية - من اهم الوظائف الملقاة على عاتق العالم في الحاضر والمستقبل، مع العلم بأن جميع الامكانات الطبيعية والعلمية اللازمة لذلك متوفرة الا انه ينقص الابتداء في العمل والانتاج.

ففي دراسة علمية وتحليلية قام بها علماء الاقتصاد لمشاكل تطوير الزراعة في العالم لحل هذه المشكلة الانسانية الكبيرة، ثبت ان الثروات الكبيرة التي يمكن ان تمد العالم - ولاسيما شعوب هذه المناطق التي تعاني الجوع والحرمان - بما تحتاجه من مواد غذائية ضرورية موجودة في المناطق المدارية وتحت المدارية.

تتجلى الاهمية العلمية لهذه المناطق بما يلي :

١ — **ان نقص المواد الغذائية يزداد مع الزمن** وخصوصاً بالنسبة لسكان قارات آسيا وامريكا اللاتينية وافريقيا بسبب الازدياد الكبير بعدد السكان اذ تبلغ هذه الزيادة من ٣٫٤٪ — ٣٫٥٪ بينما لاتتجاوز نسبة هذه الزيادة في الدول المتحضرة عن ١٫٢٪ علماً بأن الشروط الانتاجية ملائمة جداً لزيادة وتطوير الزراعة والانتاج في هذه القارات .

الا ان سيطرة الاستعمار وسياسته الغاشمة ضد هذه الدول في الماضي — والى حد ما في الوقت الحاضر — تركها تعيش ضعيفة متفرقة مغلوبة على امرها . وهذه البلدان تسمى بالدول النامية ، وذلك بعد تحررها والعمل على تطوير الحياة الاقتصادية فيها ورفع جميع مستويات شعوبها ، فقد كان هم المستعمر في هذه المناطق هو زيادة ربحه بجميع الوسائل .

فالمستعمر في هذه البلدان لم يحاول مراعاة ماتحتاجه هذه البلاد من المواد الضرورية اللازمة لحياتها — وخصوصاً الغذائية منها — وانما حاول ان تكون الدول الخاضعة لسيطرته تنتج المواد الاولية التي تحتاجها صناعته بالدرجة الاول او المواد الاولية التي تدر عليه أرباحاً كبيرة .

وما اكثر الامثلة الواقعية على ذلك . فالاستعمار البريطاني مثلاً في الهند ومصر سابقاً قام بتشجيع الاهلين على زراعة القطن بحيث أصبحت زراعة القطن في هذه البلاد تشغل معظم المساحات الزراعية ، واحتكر المستعمر لنفسه امداد هذه الدول بما تحتاجه من مواد غذائية ضرورية ، ومعنى ذلك ان جميع الطرق التجارية يجب ان تمر عن طريقه ليزيد ربحه منها ويضمن مصالحه فيها ، وليتمكن من محاربة كل الحركات الوطنية التي تنشب ضده والقضاء عليها — اذا ماحاولت هذه الدول تحرير نفسها — بحرب اقتصادية بالدرجة الاولى ثم عسكرية بالدرجة الثانية .

الى جانب ذلك حاول الاستعمار ضرب الصناعات الوطنية والحد من تقدمها حتى يزيد من استغلاله لها وترك معظم سكان هذه المناطق يعملون في الزراعة حتى لاتتضارب مصالحه . هذا ، ومن المعروف ان حوالي ٦٠ — ٧٠٪ من الدخل القومي لاكثر الدول النامية مصدره المنتجات الزراعية . وفي هذه الدول يعمل حوالي ٨٠ — ٩٠٪ من السكان بالزراعة .

فن دراسة تقارير منظمة الاغذية الدولية حول هذا الموضوع تبين لنا بالارقام ان

٩٠٪ من التجارة الخارجية لجمهورية السنغال عبارة عن (فستق عبيد) وان ٨٠٪ من صادرات جمهورية التشاد من القطن وان صادرات التمور في جمهورية الداهومي تبلغ ٧٥ ٪ من مجموع صادراتها .

واذ اتفقنا بالآراء مع المشرعين والقائلين بأن هــذه الزراعات تجود في هذه البلدان ، فلامانع من زراعتهـــا ولو على مساحات كبيرة تشغل معظم الاراضي الزراعية المستثمرة لهذه البلدان ، إلا أننا من ناحية اخرى يجب ان نقف حذرين من النتائج السلبية لهذه الزراعات على هذه المساحات الكبيرة والتي يمكن ان تؤدي في بعض الاحيان الى انهيار الاقتصاد الوطني لهذه البلاد وذلك للاسباب التالية :

أولاً : ان زراعة الأراضي الزراعية بنوع معين من المحاصيل يعتبر مخاطرة بحد ذاته ، اذ يمكن لهذا النوع من المزروعات ان يصاب بآفة زراعية ما او ان تؤثر بعض العوامل الطبيعية على هذا المحصول الرئيسي والوحيد تقريباً لهـــذا البلد ، مما يؤدي الى وقوع هذه الدولة او الدول التي تتبع هذه الطريقة في كارثة اقتصادية تضر بمصالحها العامة وتجبرها على طلب المساعدة من الدول الغنية اقتصادياً ، وعلى الغالب ربطهـا بمعاهدات اقتصادية وسياسية مع الدول الغنية تضر بمصالحها الاقتصادية والوطنية .

ثانياً : ان أسعار هذه المحاصيل الزراعية غير ثابتة ومتغير حسب السوق العالمية ومتعلق بشكل خاص بالدول المستوردة لهذه المحاصيل وبما ان الدول الرأسمالية الاستعمارية هي دول صناعية وهي المستورد الأساسي لأكثر المنتجات الزراعية ولذا نراها تلعب الدور الحساس في تأمين مصالحها على حساب الدول النامية .

فالدول الامبريالية ترغم تبعاً لذلك الدول الزراعية النامية على اللحاق بها والخضوع لها اقتصادياً وسياسياً .

فالدول الامبريالية تستطيع ضرب الاوضاع الاقتصادية للدول الزراعية بطرح سعر زهيد للمنتجات الزراعية لايغطي التكلفة ؛ او انها تحجم أحياناً عن شراء هـــذه المنتجات وخصوصاً بالنسبة للدول النامية التي تحررت من الاستعمار لضرب الحركات الوطنية في بلادنا كما حدث لقطرنا العربي السوري في عام ١٩٥٦ حينما رفضت الدول الاستعمارية شراء صادراتنا من المنتجات الزراعيـــة وعلى الاخص القمح وبعضها الآخر عرض أسعاراً زهيدة لاتغطي الكلفة لإرغامنا على الرضوخ لمطالبهم والانحياز اليهم ، وكما

حدث لكوبا عام ١٩٦٣ حينا احجمت الولايات المتحـدة عن شراء صادرات كوبا الرئيسية من السكر .

كما وان الدول الاستعمارية تستعمل طرق ادخار المحاصيل الزراعية في السنين الجيدة الانتاج ولعدد من السنين تتحكم بعدها باسعاره في السنين العجاف بالنسبة للدول المحتاجة، كما هي خطة الولايات المتحدة بالنسبة لانتاج القطن في هذه السنة ، فقد قررت بيع احتياطها من مخزون القطن البالغ ١٩ مليون بالة من اصل ٢٨،٥ مليون بالة احتياطي العالم كله ، مما سيؤدي الى خفض سعر القطن في الاسواق العالمية بنسبة تتراوح بين ٥ – ١٠٪ من سعر القطن في السنة الماضية ، فتسبب قلة الاسعـار صعوبات مالية للدول المنتجة وخصوصاً الدول النامية .

هذه هي بعض الاسباب الرئيسية لضعف مستوى المعيشة في الدول النامية ، فبينا يبلغ متوسط دخل الفرد في اوربا وأمريكا الشمالية حوالي (٤٠٠) جنيه استرليني في السنة فانه متوسط دخل الفرد الواحد من اكثر من مليار فرد من البشر في آسيـا وافريقيا وامريكا اللاتينية لايتجاوز (٤٠) جنيه استرليني سنويا .

زد على ذلك ان عدداً كبيراً من الدول النامية تستورد المواد الغذائية والمنتجات الزراعية اللازمة لها ، مع ان بلادها زراعية تشكل الزراعة فيها المصدر الرئيسي للثروة القومية ، فلايمكن لهذه الدول والحالة هذه أن تسير في ركب التطور وترفـع من مستويات حياة شعبها اذا لم تستطع القضاء على هذه التناقضات الضخمة في بلادها وذلك بالتخطيط الصحيح لمواردها الاقتصادية واستخدام الطرق العلمية الحديثة في زراعتها وادخال الآلة وتنمية الروح الوطنية عند ابنائها لتقضي على الاتكالية بينهم وتدفعهم الى العمل المنتج البناء لمافيه خيرهم وخير امتهم ، وتوجه بالتالي ضربة قاضية للاستعمار الذي طالما استغلهم وابتز خيرات بلادهم .

٢ – ان مساحة اليابسة في العالم تبلـغ حوالي ١٣٥ مليار هكتار

منها حوالي ١٠٪ فقط مستثمر زراعيا – أي حوالي ١٤،٤ مليار هكتار – وماتبقى عبارة عن اراض غير مستثمرة ، كما وتشغل المساحات المستثمرة في المنـاطق المعتدلة حوالي ثلثي المساحات الزراعية المستثمرة في العالم تبين لنـا : ان مجموع المساحات التي يمكن استثمارها في العالم اجمع حوالي ٢٠٪ من المساحات العامة . وهذا معناه زيادة المساحات المزروعة حاليا بمقدار ١٠٪ من المساحة العامة أي ضعف المساحة المستثمرة حاليا . وتتجلى هذه الزيادة في المساحات القابلة للزراعة خصوصاً في المناطق المدارية وتحت المدارية اذ

تبلغ حوالي ٤٠٪ (تبلغ المساحات القابلة للزراعة في المناطق المدارية وتحت المدارية حوالي مليارى هكتار منها مليار واحد تقريباً مستثمر وماتبقى قابل للاستثمار الزراعي بشكل جيد ولكنه لم يستثمر بعد) . ومن هنا نستنتج ان المساحات القابلة للزراعة في البلدان النامية متوفرة بمساحات واسعة يمكن لها اذا مااستثمرت ان تضاعف من انتاجها وبالتالي ان ترفع من مستويات حياتها العامة .

٣ – ان المميزات الطبيعية والانتاجات التي تتميز بها المناطق المدارية وتحت المدارية ، تساعدها تام المساعدة على تطوير منتجاتها وزيادة مردودها بكميات كبيرة تغطي الحاجة ويصدر مايفيض منها . فالى جانب امكانية زيادة المساحات الزراعية تتميز هذه المناطق بشروطها الطبيعية الملائمة : من ارتفاع في درجات الحرارة اللازمة للنباتات ؛ ومن ضوء كاف للاسراع في نضج النباتات نتيجة لزيادة عمليات التمثل اليخضوري والمياه الكثيرة في بعض المناطق والتي لم تستغل بعد الاستغلال الكافي وانما تذهب هدراً بغض النظر عن مصادرها من الانهار او الامطار او السيول او المياه الجوفية .

كما وان هناك عدداً كافيا من الأيدي العاملة العاطلة عن العمل ، والتي اذا مابذلت جهودها في هذه الاراضي الخصبة اعطت اطيب النتائج من ناحية زيادة المردود وتطوير الزراعة في بلادها .

٤ – ان طرق الزراعة في الدول النامية لاتزال بدائية تعتمد على الطرق القديمة وما توارثه الابناء عن الآباء والاجداد ، كما ويقل في هذه البلدان استعمال الآلات الزراعية الحديثة في العمليات الحقلية وخصوصاً فيما يتعلق بحراثة التربة ومكافحة الحشرات واستعمال الاسمدة الكيميائية وقلة استعمال الاسمدة العضوية المعدنية . لذا نرى البون الشاسع في مردود الهكتار الواحد بين الدول المتقدمة والدول النامية .

ان مردود الهكتار الواحد من القمح في هولاندا مثلا يبلغ ٤،٥٥ أطنان بينما لايبلغ اكثر من ٠،٤ – ٠،٤٦ طن في كل من بورما والاردن و ٠،٣٢ طن في تونس. اما بالنسبة لمحصول الذرة الصفراء فيبلغ متوسط مردود الهكتار الواحد في الولايات المتحدة ٤،٧٨ طن بينما لايتجاوز هذا المردود في (جامايقا) عن ٠،٣ طن و٠،٥٨ طن في زامبيا . وكذلك بالنسبة لانتاج الارز اذ لايزيد مردود الهكتار الواحد في هوندراوس في امريكا اللاتينية عن ٠،٦٣ طن بينما يرتفع هذا الانتاج الى ٥،٠٣ طن في اليابان .

من دراسة هذه المعطيات الاحصائية يتبين لنا أن متوسط مردود الهكتار الواحد في الدول النامية لايبلغ الا عشر المردود تقريباً في الدول المتقدمة . والى جانب قلة المردود فان التكاليف النسبية للزراعة في الدول النامية اعلى منها في الدول المتقدمة . وهذا يرجع بالدرجة الاولى الى ان العمل اليدوي ووسائل الانتاج البدائية تحتل معظم الاعمال في الدول النامية الى جانب عدم استعمالها للطرق الحديثة في الزراعة ومكافحة الحشرات واستعمال الاسمدة المختلفة . ولذا فان الأرباح الاقتصادية قليلة وبالتالي فان دخل العاملين في الزراعة ضعيف ،

ولذا يمكننا القول : ان ضعف الانتاج وزيادة التكاليف هما الميزتان الرئيسيتان للزراعات الحقلية في الدول النامية وكذلك الامر بالنسبة لتربية الحيوان والانتاج الحيواني فهي متأخرة في الدول النامية ومتقدمة في الدول المتحضرة اذ يبلغ مثلا متوسط انتاج البقرة الحلوب السنوي في اوربا حوالي ١٨٥٠ كغ بينما لايبلغ متوسط انتاج البقرة الحلوب الواحدة سنوياً في الشرق الاقصى وافريقيا ١٠٠ كغ .

ان نسب الانتاج هذه تنعكس مباشرة على استهلاك الفرد في كل من هذه الدول وبالتالي على مستوى المعيشة . ففي امريكا الشمالية مثلا يبلغ استهلاك الفرد الواحد سنوياً من اللحوم حوالي ٦٩ كغ بينما لايزيد متوسط استهلاك الفرد السنوي في منطقة الشرق الادنى من اللحوم عن ٨،٥ كغ وفي الشرق الاقصى عن ٢،٩ كغ .

ه – ان كثيراً من الدول النامية اخذت بعد تحررها من الاستعمار تعاني الامرين من أذناب الاستعمار ومن الاقطاعيين المستغلين والرجعيين الذين تربطهم روابط قوية مع اسيادهم المستعمرين وذلك للحفاظ على مكاسبهم كوسطاء لاسيادهم في بلادهم وتقوية مراكزهم فكأنما الاستعمار الاجنبي قد رحل وترك اربابيته التأثير الكبير على سياسة واقتصاد كل هذه الدول .

فالاقطاعيون الزراعيون اخذوا على الغالب يستثمرون اراضيهم بواسطة فلاحين أو عمال ، وهدفهم الرئيسي من ذلك زيادة ارباحهم باستغلال الآخرين وكان من نتائج ذلك أن قلت خصوبة التربة وضعف الانتاج فيها واخذ الاقطاعيون يصرفون الأرباح الباهظة التي تعود عليهم بها أراضيهم الواسعة – في مجالس اللهو والشراب والمجون بدلاً من ان يستغلوها في ادخال وسائل الانتاج الحديثة التي تزيد من الانتاج وتطوره .

كما أن عدداً من الدول النامية قد تنبه في الآونة الاخيرة لهذه الناحية الاجتماعية الاقتصادية السياسية الخطيرة فقامت بتطبيق نظام الاصلاح الزراعي باشكال متباينة ومختلفة تتخللها ثغرات كبيرة تركت المجال للاقطاعيين والانتهازيين والرجعيين من النفوذ الى هذا النظام وتحويل هذا الاصلاح التقدمي الى ضرر عام وشامل واستطاعوا ان يثبتوا أن الاصلاح في بلادهم فاشل ولا يخدم المصلحة الاقتصادية العامة للبلاد بسبب قلة الانتاج التي اصابت هذه الدول بعد تطبيق نظام الاصلاح الزراعي في بلادها. وذلك لعدم وضع نظام اصلاح زراعي مدروس عن الواقع العلمي والاجتماعي لهـذه الدول واتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة لانجاحه الى جانب توعية الفلاحين وتقويتهم مادياً ومعنوياً واختيار نظم الاستثمار التعاونية الملائمة لشد أزرهم للوقوف في وجه كل من تسول له نفسه النيل من مكاسبهم .

ففي البلدان النامية إذن تسود المتناقضات من حيث توفر الشروط الطبيعية والانتاجية من ناحية وقلة الانتاج الزراعي بشكل عام والفقر من ناحية اخرى ، فاهي العوامل المساعدة على دفع عجلة التطور الزراعي في هذه البلدان الى الامام ؟ من عرضنا السابق لمشاكل الزراعة في الدول النامية وماتلاقيه هذه الدول من صعوبات اقتصادية بالنسبة لتأمين الغذاء الكافي لشعبها وبالتالي الاستفادة من منتجات البلاد الرئيسية لتطوير المرافق العامة الاخرى في البلاد من صناعة وصحة الخ ... يتضح لنا أن الحل الوحيد لهـذه المشاكل هو العلم بشتى معانيه ووسائله ووجود المنظمات المؤمنة بوظيفتها والرغبة في تطوير بلادها بالعمل الجدي المثمر والمثابرة عليه .

فتطبيق النواحي العلمية والعملية الملائمة لهذه المناطق — من حيث اجراء التجارب اللازمة بأراضيها واعداد الاختصاصيين لذلك — يجعلها تخطو خطوات سريعة الى الأمام لتأتي ركب الدول المتحضرة . فلا خوف على هـذه الدول من استيراد الابحاث العلمية والاقتصادية شريطة دراستها في بلادها وذلك بمطابقتها على الواقع العلمي واختيار الأفضل منها بالاستعانة بذلك بشتى الوسائل والطرق للوصول الى مآربها . كما يتطلب من هـذه الدول إعداد الاختصاصيين اللازمين لكل فرع من فروع العمل الزراعي قبل الشروع بتطبيقه ، لتلافي الاخطاء التي يمكن ان تحدث وذلك بارسال البعثات العلمية للتخصص في جميع مجالات العمل وعلى عاتق هذه الدول تقع مسؤولية تنظيم الزراعة ورسم الخطوط اللازمة لنجاحها بشكل عام وشامل لايقتصر فقط على المحاصيل التي اعتادت زراعتها وبالتالي تصديرها بناء على رغبة المستعمر وانما دراسة حاجتها من المواد الغذائية

الضرورية اللازمة لها وتطويرها، لقطع الطريق بذلك على كل من تسول له نفسه التدخل في الشؤون الاقتصادية لهذه البلدان، الا ان هذا لا يمنع من التعاون مع الدول الصديقة التي ترغب بهذا التعاون شريطة ان يكون هذا التعاون قائماً على اساس المصلحة المشتركة بعيداً عن الاستغلال بشتى مظاهره .

ولنشرح الآن اهم الطرق الاساسية التي يمكن ان يساعد العلم بها على تطوير الزراعة في هذه البلدان التي لاتزال تعتمد على الطرق القديمة .

١ – ان طريقة الاستثمار الزراعي واسعة الانتشار في المناطق المدارية الرطبة هي (نظام الزراعات الحقلية المتجول) اي تزرع الارض على هذه الطريقة سنة ثم تترك عدة سنوات بدون استثمار لتزرع أراض اخرى وهكذا دواليك ...

يتبع استعمال هذه الطريقة حوالي (٢٠٠) مليون نسمة من البشر اي حوالي ١٠٪ من مجموع البشرية يعيشون على حوالي ثلاثة مليارات هكتار اي حوالي ربع مساحة الأراضي العامة .

وبذلك فان هذا النظام يشكل خطراً كبيراً على تطوير الزراعة في هـذه البلدان وخصوصاً بسبب زيادة كثافة السكان وبالتالي زيادة البشر على سطح الارض ونقص المساحات الزراعية باستمرار ، هذا الى جانب المردود السنوي القليل من المحاصيل الزراعية الذي تعطيه الارض نتيجة لتطبيق هذه الطريقة ، ولذا كان تنظيم الزراعة في هـذه المناطق ضرورة ملحة لأهالي هذه المناطق وذلك على طريقة التوسع الافقي في الزراعة واستخدام الطرق العلمية الزراعية واتباع الدورات الزراعية الملائمة لهذه المناطق لرفع المستوى الانتاجي واستثمار الارض استثماراً جيداً .

٢ – ان مما يساعد على زيادة الانتاج الزراعي في الدول النامية هو زيادة المساحات الزراعية وذلك باستثمار الاراضي الزراعية القابلة للزراعة ولم تستثمر بعد ، والابتداء بالمناطق التي تتوفر فيها جميع الشروط الطبيعية والانتاجية اذ تبلغ المساحات القابلة للاستثمار ولم تستثمر بعد في الدول النامية حوالي ٥٠٪ من المساحات الزراعية .

ولما كانت المياه تعتبر العنصر الرئيسي في زيادة المساحات المزروعة فلا بد اذن من انشاء السدود في الوديان التي تتوفر فيها المياه في فصل الشتاء او استغلال المياه الجوفية في باطن الارض بعد اجراء دراسات علمية عن كميات المياه الموجودة الى جانب اقامة السدود على الانهار لارواء مساحات كبيرة تساعد على تطوير الزراعة بزيادة المساحات

الزراعية وبالتالي من زيادة الانتاج وتوليد القوى الكهربائية اللازمة للتصنيع بمختلف انواعه وخصوصا التصنيع الزراعي .

كما ان ذلك يتطلب استعمال الطرق العلمية الحديثة في السقاية وانشاء المصارف للمياه للقضاء على تملح التربة والحد من اي تملح يمكن ان تتعرض له التربة في المستقبل .

اذا أصبحت مشاكل تملح الاتربة في وقتنا الحاضر من اهم المشاكل التي تتعرض لها الاراضي الزراعية والتي من نتائجها تقليص المساحات الزراعية وصعوبة تحسينها في المستقبل . فاذا قارنا بين كلف عمليات الوقاية اللازمة – من انشاء مصارف وخفض مستوى الماء الارضي في الاراضي القابلة للتملح – وبين كلف العمليات اللازمة لتحسين التربة بعد تملحها ، لوجدناها نسبة بسيطة جداً بالنسبة لمعالجة التربة بعد تملحهـا ، هذا على فرض نجاح عمليات الاستصلاح فيها .

٣ – الى جانب زيادة المساحات الزراعية يجب المحافظة على خصوبة التربة فيها . فعدم توزع الامطار على مدار السنة بشكل منتظم بل بغزارة وفي اوقات معينة ، تجبر الفلاحين على استثمار اراضيهم في هذه الاوقات الى جانب قطعهم للغابات وحرق زيادة التبخر وبالتالي تترك التربة السطحية الزراعية عرضة لتأثير الحت الريحي والمائي مما يساعد على انجرافها وتركها اراضي غير قابلة للزراعة .

كما وان الحت الريحي ينقل ذرات التراب الى مناطق بعيدة مرتفعة تصبح كذلك غير قابلة للزراعة ، فاضراره اذن مزدوجة .

وقد قاس العلماء كمية المياه التي تفقد سنوياً بسبب هذه العوامل فبلغت وسطياً في اوربا حوالي ٨٤ طن في الكيلو متر المربع الواحد و ٧١٥ طن في الكيلو متر المربع الواحد في افريقيا .

هذا ومما يساعد على ضعف خصوبة التربة كذلك نظم الاستثمار المتبعة في الدول النامية . فالمستثمر او المستأجر للاراضي الزراعية يهمه استغلال الارض باقرب وقت بحيث يأخذ منها بدون ان يعطيها ماسلبها اياه من مواد غذائية . فالعمل على الحد من انتشار هذه العوامل المضرة يمكنه المحافظة على خصوبة التربة وبالتالي يساعد على زيادة وتطوير الانتاج .

الى جانب ماذكر آنفاً يمكن المحافظة على خصوبة التربة وزيادة الانتاج في الدول النامية باتباع مايلي :

أ – استعمال الاسمدة المعدنية والعضوية : فبالنسبة للأسمدة المعدنية فان الدول

النامية تحتاج الى كميات كبيرة فاذا قارنا نسبة استعمالها في هذه المناطق بالنسبة لاستعمالها في الدول المتحضرة لوجدنا مثلاً ان القارة الافريقية بكاملها ماعدا مصر وجمهورية جنوب افريقيا لاتستعمل الا اكثر بقليل مما تستعمله هولاندة لوحدها مع العلم ان المساحات الزراعية في هولاندة أصغر ألف مرة على الاقل من المساحات الزراعية المستثمرة في افريقيا .

اذ يبلغ متوسط استعمال الاسمدة المعدنية من الآزوت والفسفور والبوتاس في القارة الافريقية حوالي ١٫٢١٤ كغ لكل هكتار من الأراضي الزراعية المستثمرة ويبلغ ذلك في الهند ١٫٢٣٨ كغ للهكتار الواحد و٣٫٢٩٢ كغ في امريكا اللاتينية بينما يبلغ في هولاندة ٤٦١ كغ لكل هكتار من الأراضي الزراعية المستثمرة ومن التجارب العلمية العديدة التي اجريت على استخدام الاسمدة المعدنية في رفع مستوى الانتاج الزراعي في جميع مناطق الدول النامية واثبتت زيادة كبيرة في الانتاج ونتائج التجارب التي اجريت في غانا .

ففي حال زيادة ٢٠ كغ سماد آزوتي و٣٠ كغ فوسفوري و٢٠ كغ من السماد البوتاسي للهكتار الواحد يعطي انتاج الهكتار زيادة في المردود تقدر بـ ٨٠٪ ولايعتبر استعمال الاسمدة المعدنية كافياً لزيادة الانتاج والتخلي نهائياً عن استعمال الاسمدة العضوية التي تستعمل كمنابع حرارية في اكثر الدول النامية او انها تترك عرضة لاشعة الشمس والهواء بشكل تفقد معه تأثيرها على خصوبة التربة وزيادتها .

ب – انتقاء الاصناف وزراعة النباتات الملائمة لهذه المناطق من النواحي الطبيعية واختيار الاصناف من النباتات التي تتمتع بمناعة ومقاومة ضد الامراض النباتية المنتشرة في هذه المناطق .

ولابد لنا هنا من ذكر بعض نتائج هذه الأعمال التي اجريت على طرق علمية صحيحة في جميع الدول التي تتبع في زراعتها الاسلوب العلمي الصحيح .

فزراعة الذرة الهجينة في الولايات المتحدة – انطلاقاً من الاصناف المحلية التي كانت تزرع في هذه البلاد – أدت الى زيادة لانتاج أضعاف ما كان عليه من قبل ، وكذلك زيادة انتاج القمح في المكسيك بسبب ايجاد صنف من القمح يقاوم مرض الصدأ الفطري الذي اعطى نتائج ايجابية جيدة جداً بعد ان كان هذا المحصول يتعرض سنويا لنقص كبير في المردود نتيجة لهذا المرض .

جـ – استعمال مواد المكافحة اللازمة لإبادة الحشرات والامراض والاعشاب

الضارة غير الاقتصادية والتي تنبت بين المحاصيل الزراعية وتقاسم النباتات الزراعية حقها من المواد الغذائية بل واحياناً تقضي عليها وكذلك مكافحة حشرات التخزين التي تصيب المحاصيل المخزنة ،فقد حسب احد العلماء الاضرار التي تسببها حشرات التخزين في المناطق المدارية وتحت المدارية بحوالي ٢٥٪ من الانتاج العام اي مايكفي لغذاء (٦٠٠) مليون نسمة من البشر .

د – ادخال الطرق العلمية الزراعية الحديثة وتنظيم الزراعة في هذه المناطق وخصوصاً زيادة الاعتناء بهذه النباتات اثناء نموها وتقديم جميع الخدمات اللازمة لها من تعشيب وركش الخ . .

هـ – ادخال الآلات الزراعية الحديثة في مجال العمل الزراعي لتخفيض كلفة الانتاج ولاستثمار الاراضي القابلة للاستثمار التي لم تستثمر بعد .

و – زيادة الاهتمام بتنمية الثروة الحيوانية في هذه البلاد لتأمين البروتين الحيواني لجسم الانسان ولأهميته الاقتصادية بشكل عام من حيث زيادة دخل الفلاحين في هذه المناطق وزيادة الانتاج الحقلي في حال استعمال الاسمدة الناتجة عن تربية الحيوان للمحافظة على خصوبة التربة وزيادتها . ان تطوير الثروة الحيوانية يتم بتحسين السلالات الحيوانية وتأمين العلف اللازم والاهتمام بتطوير المراعي ومكافحة الامراض الحيوانية ونشر طرق الوقاية الحديثة والاهتمام بمصائد الاسماك .

ز – نشر التعليم ومكافحة الامية بين سكان هذه المناطق الذين حرموا في سنوات الاحتلال الاجنبي من التعليم لاستغلاله في زيادة انتاجهم وتطوير مستقبلهم .

ح – تطبيق قانون لاصلاح زراعي مدروس من الواقع العملي لكل من هذه الدول بعد دراسة وافية وكاملة وتوعية الفلاحين ومساعدتهم مادياً ومعنوياً واختيار النظم التعاونية للاستثمار الملائمة التي تزيد من الروابط الاجتماعية والانتاجية ليقفوا في وجه من تسول له نفسه النيل من مكاسبهم . ففي اتباع الدول النامية للنقاط المذكورة آنفاً يمكن مضاعفة الانتاج على الأقل في السنوات القليلة القادمة والذي من نتائجه تأمين الغذاء اللازم وتحسين الأحوال المعاشية لسكان هذه المناطق .

وبما سبق يمكننا ان نستنتج ان الأعمال الفنية لوحدها لايمكن ان تعطي اطيب النتائج بالنسبة لشعوب هذه البلدان وانما يجب وضع الخطط الاقتصادية اللازمة والكفيلة برفع مستوى شعوبها وتطويرها شريطة ملاءمة هذه الخطط للواقع الاجتماعي والطبيعي لكل هذه الدول واختيار نظم الاستثمار الزراعي بالنسبة للتنظيم المزرعي وكذلك وجود المنظمات المؤمنة بوطنها والعاملة لسعادة شعبها ...

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها وأصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة — كل أربعة أعداد في مجلد واحد — وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجوة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى ان يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي — دمشق — مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

الآداب

الكتاب والموضوعات

تعدد الترجمات
للأثر الفكري الواحد

بقلم محمد عبد الغني حسن
— القاهرة

يرى الأديب الناقد المعاصر «جلبرت هايت» في كتابه المعنون (الناس والامكنة والكتب) ان تعدد الترجمات للأثر الواحد لايضيره، بل يزيد اللغة المنقول اليها اثراء ، ويفتح منافذ متعددة للاطلال على الفكر في الآخرين من خلال نوافذ مختلفة . ويؤكد جلبرت هايت هذا الرأي بأننا اذا لم نستطع ان نقرأ الأصل لجهلنا باللغة التي كتب فيها ، فما احرانا بأن نستعمل لبلوغ الفهم له عدة ترجمات بدلا من ترجمة واحدة . ومن هنا حفلت لغات العالم منذ عهد بعيد بترجمة روائع الفكر العالمي في اكثر من نص مترجم .

ولايجد القوم بأساً هناك في ان يروا في لغتهم بضع تراجم لألياذة هوميروس مثلا ، او لآثار أرسطو ، أو لأشعار فرجيل ، او لمسرحيات يوريبيدس . كما لايجد الفرنسي بأساً في أن يجد في المكتبة الفرنسية بضع ترجمات لشكسبير ، او لتوماس هاردي ، أو لكارليل ، او لميلتون . ولايجد الانكليزي بأساً في أن يجد في المكتبة الانجليزية بضع ترجمات لفيكتور هوغو ، او لموليير ، او لراسين ، او للامارتين ، او لغوته ، او لتولستوي . ولايجد الروسي بأساً ولاحرجاً في ان يجد في المكتبة الروسية بضع ترجمات لواحد من الكتاب او الشعراء او المفكرين او القصاصين الانكليز او الفرنسيين او الالمان . ولايجد الالماني بأسا في ان يجد في المكتبة الالمانية أكثر من ترجمة واحـــدة لأثر من آثار الشعراء والقصاص والادباء والفلاسفة في غير اللغة الألمانية .

والترجمات المتعددة للأثر الواحد في اللغة الواحدة ، هي – في الحق – كما قال جلبرت هايت نوافذ كثيرة مفتوحة على المعاني التي تضمنها الأصل المترجم . وكلما كثرت هذه النوافذ كان الاستمتاع بالأصل أكثر ، وبلوغ الفهم اليه أقرب كالنظر الى منظر بهيج او حقل فسيح من خلال نوافذ متعددة .. فان ذلك يزيد من تعدد جوانب المرئي ، ومن تنوع مواقع النظر اليه ، ومن تكثير مدارك الجمال فيه .

ومن هنا لم يعد الغربيون الترجمات المتعددة للأثر الواحد في اللسان الواحد ازدواجاً في العمل ، او تكثرا فيه ، او اسرافاً لاطائل تحته ولا جدوى منه ، ولكن عدوه ضرورة لايجوز التخلي عنها ، بل حرصوا على المزيد منها ؛ فان الترجمات للأثر الواحد تزيد عاماً بعد عام . وكل ترجمة جديدة تفتح امام القراء رحابا جديدة ، وآفاقاً جديدة ، ولذاذات ومتعاً فكرية جديدة .. فهي كالقمر يزيدك وجهه حسناً إذا مازدته نظرا . .

وما كانت ترجمة « ويكليف » للكتاب المقدس في القرن الرابع عشر (١٣٢٠ — ١٣٨٤) ، ولا ترجمة « تندال » له (١٤٨٥ — ١٥٣٦) اضاعة للوقت ، ولا ازدواجاً في العمل ؛ فلكل ترجمة منها طابعها الخاص ، وميزاتها الخاصة . وجمالها الذي يفردها من اختها ويجعل لها ذلك الطابع الفريد ، وتلك الشخصية المستقلة . على ان هاتين الترجمتين الجميلتين البليغتين للتوراة وماسبقها من تراجم أخرى أقل منها شأناً ، كانتا الاساس الذي بنيت عليه ترجمة الكتاب المقدس الرسمية في عهد الملك جيمس الأول سنة ١٦١٦ ، والترجمة المنقحة في اواخر القرن الماضي ، والترجمة الامريكية الأخيرة التي تمت سنة ١٩٥٢ .

وعلى قدر مايكون في الأثر الأدبي والفكري من قيمة في لغته الأصلية يكون الاهتمام بتعدد ترجماته الى لغة واحدة ، وبكثرة اقبال أهل اللغات الاخرى على ترجمته ونقله الى لسانهم ، حتى يكون لهم حظ الظفر به . وقد ظفرت أعمال هوميروس في الالياذة والأوديسة بترجمات متعددة في اللغة الإنجليزية مثلاً ، منها ترجمة « ايرل أف دربي » سنة ١٨٦٤ — وهي الترجمة التي صدرت في مجموعة « ايفري مان » بتقديم الاديبة الناقدة « مس ستويل » — وترجمة ويليام كوبر الشاعر الانكليزي (١٧٣١ — ١٨٠٠) التي صدرت في مجموعة « ايفري مان » كما ظهرت في طبعات أخرى غيرها . ولقد ظفرت المكتبة الامريكية حديثاً بخمس ترجمات جديدة مختلفة لاعمال هوميروس ، متنوعة الاهداف والاغراض .

ولو انتقلنا الى الشاعر الايطالي « دانتي » (١٢٦٥ — ١٣٢١) لوجدنا ان كتابه الخالد : « الكوميديا الإلهية » قد ظفر القسم الأول منه — وهو الجحيم — باثنتي عشرة ترجمة الى اللغة الانكليزية اوست ترجمات الى اللغة الفرنسية . ولا نشك في أن اللغة الألمانية كان حظها من الترجمة أقل من هذا ... ومن أقدم ترجمات

الكوميديا الإلهية الى الإنكليزية ترجمة « كاري » التي طبعت بمدينة فلورنسة الإيطالية ، وترجمة الشاعر الامريكي « لونغ فيلو » التي صدرت عن مدينة بوسطن في العقد الثامن من القرن الماضي ، وترجمة « فليتشر » التي صدرت في نيويورك سنة ١٩٣١ . ثم اخذت بعد ذلك تتوالى ترجمات أندرسون الامريكي وترجمة « ويكستيد » الصادرة في الولايات المتحدة سنة ١٩٤٤ او ترجمة « سايرس » الانكليزية التي ظهرت في مدينة ادنبرة الاسكتلاندية عام ١٩٤٩ . وكان أحدثها عهداً منا او اقربها الينا ترجمة « آيرس » التي ظهرت في نيويورك سنة ١٩٥٣ .

أما الترجمات الفرنسية للكوميديا الإلهية فقد كان من أقدمها ترجمة « فيوربنيو » التي ظهرت بمدينة باريس سنة ١٨٩٢ ، واحدثها ترجمة « ماسيرون » التي ظهرت بباريس أيضاً بين سنتي ١٩٤٧ و ١٩٥٠ .

ولم يتخلف العرب عن المشاركة في ترجمة كوميديا دانتي الإلهية وتقديمها الى المكتبة العربية في العقد الرابع من قرننا هـذا ... فبين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣٣ ظهرت « الرحلة الدانتية » في الممالك الإلهية » مترجمة بقلم عبود أبي راشد ، وقد صدرت عن طرابلس الغرب . ولم يكن ظهورها وصدورها عن طرابلس غريباً في عهد الاستعمار الايطالي لها ... وفي سنة ١٩٣٨ صدرت عن مدينة القدس ترجمة عربية جديدة لها بقلم المحامي أمين أبي شعر ، وقد صدرها بمقدمة تبلغ اثنتي عشرة صفحة ، تحدث فيها عن اول عهده بالشاعر دانتي ، وبيئة الشاعر وعصره ، وثقافته وحبه ، وابتلائه بالنفي لظروف سياسية وخلافات حزبية شارك فيها . وتمخض المنفى عن نظم هذه الاغنية الخالدة . كما تناول الحديث عن المصادر التي استقى منها دانتي قصته . واستبعد مترجمنا العربي ان يكون الشاعر الإيطالي قد استقى روايته من منابع عربية او اسلامية ؛ لأن رسالة الغفران للمعري — التي

قيل إن دانتي أفاد منها – لم تكن في ذلك الحين مترجمة الى اللاتينية ؛ ولأن قائلا لم يقل لنا إن دانتي كان يعرف العربية،حتى يمكن القول باطلاعه على المصادر العربية . وأكد مترجمنا العربي أن دانتي قد اقتبس رواية من ملحمة فرجيل المسماة بالأنياد ...

ولعل أجود ترجمات الكوميديا الإلهية لدانتي الى اللغة العربية هي تلك التي قام بها اخيراً الدكتور حسن عثمان ، وظهر قسمها الاول – المعروف بالجحيم – في القاهرة سنة ١٩٥٩ ، كما صدر قسمها الثاني المعروف بالمطهر سنة ١٩٦٤ .

واذا كان الاستاذ احمد حسن الزيات قد أوضح لنا مرة مذهبه في الترجمة حين قدم مجموعة من القصص التي ترجمها عن الفرنسية بعنوان : (ضوء القمر وقصص اخرى) ، كما أوضح لنا من قبله المرحوم سليمان البستاني طريقته في ترجمة إلياذة هوميروس شعراً ، كما كشف لنا المرحوم درويني خشبة عن مذهبه في « تلخيص » الألياذة والأوديسة ، لاترجمتها ، فان الدكتور حسن عثمان يبين لنا في مقدمته التحليلية الدقيقة المفيدة عن مذهبه في الترجمة من الايطالية الى العربية لرائعتي دانتي : الجحيم والمطهر . ويكشف لنا مذهبه عن افادته بطبعات متعددة للكوميديا الإلهية في اللغة الايطالية ، وعن افادته ببعض الترجمات الانكليزية والفرنسية ، للاستئناس بطرائق أصحابها في الترجمة شعرا ونثرا ، وعن محاولته أن يكون قريباً من النص الايطالي ، وعن محاولته الاخرى للقيام ببعض التصرف في الترجمة في أضيق الحدود ، وعن متابعة محاولة أسلوب دانتي في طرائقه المتنوعة ، وعن محاولة عرض النص الايطالي في الترجمة العربيـــة واضحا ومفهوما .

والغريب في أمر ترجمة الأثر الواحد باقلام متعددة في اللغة الواحدة ،

ان بعض الاعمال الادبية التي تقبل الشطر والقسمة ، قد يترجم مترجم معين أحد شطريها أو شطورها ، ويترك بقية الشطور والأقسام لغيره . فلا تتناول يده ترجمة الاثر كله كاملا . فشطر « الجحيم » من الكوميديا الالهية قد ترجم الى الانكليزية مثلا مترجمون مختلفون ، كما سلف القول . وشطر « المطهر » او « الكوميديا والحياة الجديدة » ، قد تعاوره مترجمون آخرون . وممن ترجم « المطهر » الى الانكليزية : « بتار » في كتابه الذي طبع بلندن سنة ١٨٨٠ ، « ورايت » في ترجمته التي ظهرت بادنبرة سنة ١٩٥٤ ، و « سويغيت » في طبعته الامريكية سنة ١٩٥٦ ، و « ليلي » في الترجمة الامريكية التي صدرت في مدينة سان فرنسيسكو سنة ١٩٥٨ ، و « تشياردي » في طبعة نيويورك سنة ١٩٦١ .

ونلاحظ من القاء نظرة على ترجمة الشطرين من كوميديا دانتي ، ان من الذين قاموا بترجمة القسمين معا : سايرز ، وتشياردي ، وأن « روسيتي » قد ترجم « المطهر » ترجمة شعرية كنا نود ان يرجع اليها ويفيد منها الدكتور حسن عثمان ، وان يشير اليها في ثبت مراجعه ، فقد اغفلها اغفالا تاما ـ ولاندري لماذا ـ مع بالغ حرصه على ذكر الترجمات الانكليزية ، ومع ما اشتهرت به ترجمة روسيتي الشعرية من الجمال والدقة ، حتى لقد اصدرتها مكتبة « ايفريمان » في احدى سلاسلها النفيسة .

ولو أخذنا نعدد الامثلة على الترجمات المتعددة للأثر الواحد في اللغة الانكليزية ـ مثلا ـ لضاق بنا نطاق القول ، ولكننا نكتفي بذكر بعض الروائع التي ظهرت لها اكثر من ترجمة واحدة الى لغة شكسبير ، كالياذة هوميروس وأوديسة ، ومسرحيات أسخيلوس ، وسوفوكليس ، ويوربيدس ، أو فلسفات أفلاطون ، وتواريخ هيرودوت ، وتيوسيديد ، وأكسينوفون ،

وتراجم بلوتارك لأعلام الأغريق والرومان في اللغة اليونانية . وكملاحم فرجيل ، ومسرحيات بلوتس ، وروائع لوكريتس الشعرية ، وخطب شيشرون في اللغة الرومانية . وكخوالد بترارك ، وبوكاتشيو ، ومكيافيلي ، ودانتي في الأدب الايطالي . وكشوامخ رابليه ، ومونتيني ، وبوالو ، وكورني ، وموليير ، وراسين ، وفينلون ، وباسكال ، وشاتو بريان ، ولامارتين ، وألفريد دي موسيه ، وفكتور هوغو ، وبلزاك ، وغوستاف فلوبير ، وأميل زولا ، وألفونس دوديه ، ومربان ، وتين ، وأناتول فرانس في الأدب الفرنسي . وروائع هنريش هاين ، وفاغنر ، وهوفمان ، وغوته ، وفلسفات نيتشة وشوبنهاور في اللسان الألمـــاني . وبدائع ميشيل سرفانتس ـ صاحب دون كيشوت ـ ولوب دي فيغا ، وكالدرون في الادب الاسباني . وروائع بوشكين ، وغوغول ، وتورجنيف ، وتولستوي ، وديستويفسكي ، وتشخوف ، ونكولا فتش في الادب الروسي . وقصص الف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، وكثير من شعر الجاهلية والاسلام في الادب العربي .

ولو أخذنا نعدد بعض مترجمي هذه الآثار والأعمـال العظيمة الى اللغة الانكليزية لصادفتنا أسماء كثيرة ، بلغت من الشهرة وذيوع الاسم مبلغاً لم يحظ به المترجمون عادة ، لأنهم يختفون دائماً وراء الكاتب او الشاعر او المؤلف الأصلي الذي ترجموا عنـــه ، ونقلوا منه . فتطغى شهرته على شهرتهم ، ويغطي اسمه اسماءهم .. ولكن اسماء معينة لمترجمين قد اقترنت دائماً بأسماء المؤلفين الأصليين ، فيقـــال ـ مثلاً ـ : ترجمة « بلاكي » لمسرحيات اسخيلوس الغنائية الشعرية ، وترجمات : « غوبت » ، و « لاندساس » ، و « لي » لأفلاطون . وترجمات : « ألكسندر بوب » ، و « تشابمان » ، و « وبليام كوبر » لإليـاذة هوميروس . وترجمات : « لونغ فيلو » و « كاري » و « روستي » للكوميديا الألهية لدانتي .

وترجمات: « كونستانس غارنت » و « ماغرشاك » و « هوغارث » و «الستون»، و « روشل » للقصاص الروسي تورجنيف . وأحدثها ترجمة « ماغرشاك » التي لما تشتهر ، ولم تصقلها عراقة القدم ، فعمرها بضع سنين . .

وقد حدث تعدد الترجمات للأثر الواحد في اللغة العربية . فقد التقى على ترجمات شكسبير الأساتذة محمد حمدي ، ومحمد عوض ابراهيم ، وخليل مطران ، ومحمد فريد ابو حديد .

والتقى على ترجمة « الجمهورية » لأفلاطون : المرحوم حنا خباز في اولى ترجماتها ، فكان اول رائد في هذا الميدان الافلاطوني ، ثم جاء الاستاذ محمد مظهر سعيد ، وقرينته : السيدة المربية نظلة الحكيم فترجما الجمهورية ترجمة جديدة ثانية .

وقد يترجم الأثر الادبي او الفكري - عموما - في حياة صاحبه . وهذا شائع وكثير في عصرنا هذا ، حيث سهلت سرعة المواصلات، وسهولتها الحصول على الأثر في لغته الاصلية فور صدوره او حين ظهوره . فما هي الا شهور قلية ، حتى نرى ذلك الأثر منقولاً الى اكثر من لغة واحدة . فقد كانت مؤلفات أميل لدفيغ ، وستيفان زفايغ ، وأندريه جيد ، وسارتر ، وبرناردشو ، وويلز ، وسومرست موم، وجيمس وجويس ، ولويد جورج ، وليتون ستريتشي - كاتب السير والتراجم الانكليزية المشهور - تترجم الى غير لغاتها الاصلية فورظهورها ، حتى يستطيع العالم كله ان يقرأها مترجمة في موعد لايتأخر كثيرا عن وقت صدورها في لغتها الاصلية .

واذا كانت ترجمات أعمال القدماء وآثارهم تتجدد وتزيد أعدادها بتقدم

الزمن ، فان الترجمات الحالية — في اللغات كلها — لروائع الأدب الانساني ، وخوالد الفكر المعاصر والحديث ستجدد الترجمات لها على مدى الزمن ، كما تقضي بذلك سنة التطور ، وضرورة متابعة تطور اللغات ..

ومن هنا لانرى أي بأس — على الاطلاق — في ظهور بعض الترجمات المتعددة في اللغة العربية لمسرحيات شكسبير ، او لظهور ترجمتين عندنا لجمهورية أفلاطون ، أو لصدور ثلاث ترجمات عربية للكوميديا الالهية لدانتي ، او لظهور ترجمات متعددة لرباعيات عمر الخيام مابين شعر ونثر،هي ترجمات وديع البستاني، ومحمد السباعي ، ومحمد الهاشمي العراقي ، وأحمد الصافي النجفي ، وأحمد زكي أبو شادي ، وعبد الحق فاضل الشاعر المعاصر ، وجميل صدقي الزهاوي (الذي فرق في ترجمتـــه بين النثر والشعر) وأحمد حامد الصراف العراقي ، وتوفيق مفرج المصري الاقامة اللذين ترجماها نثراً .

نعم ! نحن لانرى في هذا التعدد لترجمة العمل الواحد بأساً ولاحرجاً . فان هذه الظاهرة في الأدب العربي ، وفي باب الترجمة والنقل فيه ، تدل على تنبه حقيقي لقيمة الترجمة ، وعلى محاولة حقيقية للاداء في النقل على أدق وجوه الترجمة ، واكثرها جمالا وقربا من الاصل المترجم ، وادراكا لفهم مراميه .

واذا كان جلبرت هايت الأديب الناقد المعاصر الكبير يرحب بالترجمات المتعددة ، ويفتح لها صدر العالم الجديد ، فلماذا نضيق نحن بهـا مع ان فيها من الدلالات على الوعي مافيها ؟

واذا كان بعض المفكرين العرب اليوم يرى الاقتصار للأثر الواحد على ترجمة واحدة جيدة رصينة ، لاننا لسنا — كما يقول — في زمن يسمح لنا بتكرار انفسنا وجهودنا . بل نحن يعوزنا ان نستغل الوقت والجهد في أعمال متجددة يوما فاننا نقدر رأي سيادته وندرك البواعث التي دعته الى المناداة به ، ولكننا من

ناحية اخرى نرى ان انطلاق الاقلام المقتدرة في الترجمة الى الوقوع على الأثر الاجنبي الواحد لايضر المكتبة العربية شيئاً ، ولا يضيرها ، فهو إطلالة على الكاتب المنقول عنـــه من نوافذ متعددة كما يقول جلبرت هايت في تعبيره الرشيق ، وهو محـــاولة للوصول الى حقيقة المراد من النص المترجم من عقول واذواق مختلفـــة ، هي عقول المترجمين المتعددين واذواقهم ...

ولا شك ان الأستاذ المفكر وديع فلسطين – صاحب هذا الرأي – يتفق معنا في انــ لكل ترجمة عربية من ترجمات رباعيات الخيام مذاقا خاصا ، وطعما خاصاً ، وحلاوة خاصة ، تختلف عنها في اختها .. فلوديع البستاني طعمه ، ولمحمد السباعي لونه ، ولجميل صدقي الزهاوي دقته وفلسفته ، ولأحمـــد الصافي النجفي انطلاق تياره الشعري ، ولأحمد حامد الصراف في ترجمته النثرية ضبطه وصدق أدائه ، ولأحمد رامي رقته وعطر انفاسه ، ولعبـــد الحق فاضل الشاعر العراقي فيضه الفكري وقوة بنائه ..

وقد ينفع رأي الاقتصار على ترجمة واحدة في ترجمة كتب العلوم والحقائق ، التي تجزيء فيها الترجمة والاداء الواحد .. أما في كتب الشعر والآداب والقصص العالمي فما أحوجنا الى هذه اللمسات والفروق والمعاني الدقيقة الخفية التي يمتاز بها مترجم من مترجم ...



أخبار الأديار

وروادها من الشعراء

بقلم رشاد علي أديب

كتب الاستاذ احمد السقاف في العددين التسعين والثاني والتسعين من مجلة العربي موضوعاً بعنوان شعر الديارات . وورد في مقاله الاول عدة أخطاء منها ضبط راء الرُّصافة بالفتح وضم الشين في دير باشَهْوا وتشديد ياء الديارات وهي بالتخفيف . على أنه صحح ضبط الأخيرة بمقال آخر بعد أن كتبت عن ذلك كما أنه نسب الموشح المشهور الذي مطلعه :

أيُّها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

الى ابن المعتز المقتول سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩) م وهو بالحقيقة للوشاح الطبيب أبي بكر احمد بن زُهر الأندلسي المعروف بالحفيد والمتوفى مسموماً سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨) م كما اكد ذلك سائر المحققين . وقد أورده ابن سناء المُلك بكتابه دار الطراز بين الموشحات المغربية مما يدل دلالة قاطعة على أنه ليس لابن المعتز وانما نُقل الى ديوانه خطأ ولو صح أن هـذا الموشح له لكان هو مخترع الموشحات لاشعراء الأندلس الذين اشتهروا باختراعه وترقيته ولم يُعرف الموشح بهذا الرقي الا في عهد عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤١٢هـ وان كان ظهوره اواخر القرن الثالث للهجرة والقرن التاسع للميلاد ولكن الموشحات التي نظمت قبل عبادة كسدت وفقدت ولم يصل الينا شيء منها .

ثم ان الموشح المذكور لاعلاقة له بأي دير لا من بعيد ولا من قريب .

رشاد علي أديب

كان للأديار في العصرين الأموي والعباسي شأن عظيم بالتبتّل والتقديس كما كان لها دور كبير باشاعة الفرح والمرح في القلوب والنفوس بالنظر لما يتمتع به الرهبان من نقاوة ضمير وكرم أصيل وحسن ضيافة وامتاع الوافدين اليهم من كل حدب وصَوْب بما تَقرّ به عيونهم وترتاح اليه أرواحهم وقد كان للشعراء من تلك المتعة الحظّ الأوفر والنصيب الأكبر لرقة مشاعرهم وحلاوة معاشرتهم وطلاوة مسامرتهم ولطف منادمتهم ورغبتهم الجامحة بالقصف واللهو فكانوا يشربون ويطربون وينشدون أشعارهم الوجدية والوجدانية بما يلقونه من مسرات وملذات وقد زودت تلك الأشعار البارعة الأدب العربي والمكتبة العربية بكل مايبهج ويعجب من كنوز عاطفية وذخائر السانية لاتفنى أبد الدهر كما صورت طرازا خاصاً من الحياة أبدع تصوير .

هذه الأشعار الرائعة تفرقت في بطون الكتب الأدبية والدواوين فجمع جلة منها أبو الفرج الأصبهاني في كتابه (الأغاني) الفريد من نوعه والذي استغرق تأليفه مدة خمسين سنة، وفي كتابه (الديارات). وقد توفي هذا المصنف العبقري سنة (٢٥٦) هـ (٩٦٧) م .

وجمع علي بن محمد الشابُشتي كثيرا منها في كتاب سماه (الديارات) أيضاً. والمؤلف أديب مصري توفي سنة (٣٨٨) هـ (٩٩٨) م .

كما جمع قسما منها ياقوت الحموي الرومي البغدادي المتوفى سنة (٦٢٦) هـ (١٢٢٨) م في كتابه المشهور (معجم البلدان) عند ذكره الدير وسأورد ما اخترته من (الأغاني) و (معجم البلدان) وديوان أبي نواس ، مع التعليق على الأبيات المختارة ليستمتع القارىء الكريم

بالشعر الباسم المرح ، وقبل أن أشرع بذلك لأرى بدأ من تعريف الدير والاشارة الى صيغة جمعه اللغوي وصيغ جوعه المولدة والفرق بينه وبين الدار والدارة .

فالدير بناء يتعبد فيه الرهبان ويكون على الأغلب الأعم في الصحاري والجبال ، أما مايكون في المدن فيقال له كنيسة أوبيعة ويقال لصاحب الدير ديراني ودبار .

جاء في لسان العرب والقاموس المحيط مانصه : الدير خان النصارى : وقد عرفاه كذلك لأن قاصديه ينزلون به فيأكلون ويشربون وينامون .

وجمع الدير في المعاجم المعتمدعليها : أديار : ليس غير . ولكن المحدثين جموه تجوزاً على ديارات وديَرة وأدْيِرة ،وقد جوّز ياقوت هذه الجموع لأن الفراء جعل جموع الدار والدير في نسق على رأيه .واني أرجح وأفضل الجمع الذي نص عليه اللسان والقاموس والصحاح وهو الأديار ــ وان اشتهرت وسارت على الألسن جموعه المولدة التي مر ذكرها ــ لاتقيداً بالنص اللغوي فحسب بل للتمييز بين جمع الدير وجوع الدار والدارة لكيلا يختلط المعنيان لأن كلاً من الدير والدارة يدل على معنى خاص كما هو معلوم وقد سبق تعريف الدير ، أما الدار فهي المحل يجمع البناء والعَرْصة أي ساحته غير المبنية وهي مخصصة لسكن الانسان بمفرده أومع غيره ويقال للدار أيضاً دارة ومن جوعهـا دور وديار وأدوُر وأدْؤر وأدْيار وديَر ودُوران وديران وآدُر ــ على القلب ــ وديارات وديَرة وهاتان الصيغتان الأخيرتان نقلها المحدثون الى جمع الدير ، ويقال مافي الدار من دَيار أي أحد . وفي التنزيـل العزيز « وقال نوح رب لاتذر من الكافرين ديّارا » أي لاتدع منهم أحدا . ومن معاني الدار البلد والمدينة المنورة والقبيلة وصنم في الجاهلية وبه سمي عبد الدار ، وللدارة معان أخرى غير الدار وهي الأرض الواسعة بين الجبال وما أحاط بالشيء كالدائرة وما استدار من الرمل ، ودارة القمر هالته وجمعها دارات ودور .وقد أحصى الفيروزابادي في القاموس دارات العرب فبلغت أزيد من عشر ومئة دارة ولم يحصهـا أحد من اللغويين مثله .وأحصى ياقوت زهاء ثمانين دارة .

والآن أعرض بعض الأشعار التي قيلت في الأديار فهذا أبونواس شاعر الخمر والغزل واللهو يدخل دير حَنّة بظاهر الكوفة والحيرة وحوله الأزهار والأشجار فيقصف به ويصفه بهذه الأبيات اللطيفة الظريفة :

يادَيْرَ حَنّةَ من ذاتِ الأُكَيْراحِ مَنْ يَصْحُ عَنْكَ فاني لستُ بالصّاحي
رأيتُ فيكَ ظِباءً لاقُرُونَ لها يَلعَبْنَ مِنّا بألبابٍ وأرواحِ
يَعتادُهُ كلُّ محفوفٍ مَفارِقُهُ من الدِهانِ عليه سَحْقُ أمْساحِ
في عُصْبَةٍ لم يَدَعْ منهم تَقَوُّلُهُمْ وقوعَ ماحذّروه غيرَ أشباحِ
لايدلفون الى ماء بآنِيَـــــةٍ الا اعْترافاً من الغدران بالراحِ

الأُكَيْراح بيوت صغار للرهبان تصغير الأكراح جمع كِرْح وهي أيضامواضع يخرج اليها النصارى في أعيادهم ويقع دير حَنّة قرب الكوفة وبجانبه دير مَرْ عَبْدا. والسحْقُ الثوب البـالي . والأمساح ثياب سود للرهبان والمفرد مِسْح . وفي الأبيات صورة لتقشف الرهبان وزهدهم بالحياة . وأنشد أيضاً في ذات الأكَيْراح هذه الأبيات الجميلة :

دَعِ البساتينَ من وَرْدٍ وتُفّاحِ واعْدِلْ هُدِيتَ الى ذاتِ الأكَيْراحِ
إعْدِلْ الى نَفَرٍ دقّتْ شُخوصُهُمُ مِنَ العبادةِ الاّ نِضْوَ أشباحِ
يكرّرونَ نواقيساً مُرَجّعَـــةً على الزَّبورِ بإمساءٍ وإصباحِ
ياطيبهم وعتيقُ الراح تحفَهم بكلِّ نوعٍ من الطاسات رحْراحِ
يسقيكها مُدْمَجُ الخصرينِ ذو هيف أخو مدارعِ صوفٍ فوق أمْساحِ

الرّحراح الواسع المنبسط ،والمدارع ثياب منْ صوف والمفرد مِدْرعَة . وهذه الأبيات تصور عبادة الرهبان ونُسكهم وعزوفهم عن الدنيا وترسم راهباً أهيف يسقي الخمر المعتقة . وزار ابو نواس دير بَهراذان ويقع في سواد العراق ولم يذكره ياقوت في معجم البلدان فشرب فيه وطرب وأنشد هذه الابيات البديعة :

بـدَيْرِ بهراذانَ لي مجلسٌ وملعب وسط رياحينـهِ
رُحتُ اليـه ومعي فتية نزورهُ يوم سعانينـه
بكل طلاّبَ الهوى فاتكٍ قد آثر الدنيـا على دينه
حتى توافَيْنا الى مجلسٍ تضحك ألوان رياحينـه
وطافَ بالكأسِ لنا شادنٌ يُدميهِ مس الكفّ من لينهِ

وفي الأبيات صور بارعة للأزهار والعقار والساقي الناعم الوسيم الذي يشبه الغزال الصغير وهو يطوف بالكؤوس على المحسنين .

ويوم السّعانين من أعياد النصارى وهو قبل عيد الفصح بأسبوع والعوام يقولون الشعانين ويدعونه أيضاً أحد الشعنينة ومن أسمائه العربية يوم السّباسب كما ورد في شعر النابغة الذبياني بقوله يمدح الحارث الجفني وابناء عمه من الامراء الغساسنة :

رقاق النّعال طيّبٌ حُجُزاتهم يحيّون بالريحان يوم السباسب .

والحجُزات جمع حُجْزَة وهي معقد الزنار وموضع التكة من السروال . وفي قوله : طيّب حجزاتهم : كناية عن العفة .

ونزل أبو نواس بدير الرّصافة - الكائن في بلدة الرصافة التي بناها الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأحسن بناءها وجعلها معسكراً لجيوشه وبينها وبين الرقة مرحلة على الطريق المؤدي الى حلب وهي ذات آثار عظيمة يؤمها السياح ، والدير من عجائب الدنيا حسناً - فأنشد هذين البيتين :

ليس كالدير بالرصافــــة ديرٌ فيه ما تشتهي النفوسُ وتهوى
رمته ليـــلة فقضيتُ اوطا راً ويوماً ملأتُ قطربه لهوا

والبيتان بديعان بارعان يعبران عن نزعة الشاعر وهواه .

وبات ليلة مخمورا في دير مَر يونان - وهو بالأنبار على شط الفرات - ثم صحا على قرع الناقوس فقال :

آذنكَ الناقوسُ بالفجرِ وغرَّدَ الراهبُ في العُمْرِ
وحَنَّ مخمورٌ الى خمرةٍ وجاءك الغيثُ على قدْرِ
واطّردت عيناك في روضةٍ تضحك عن خضرٍ وعن صفرِ
ياحبذا الصُّبْحَة في العُمْرِ وحبّذا نيسانُ من شهرِ
ياعاقد الزنار في الخَصْرِ بحرمة الحـانة والقَهرِ
هات التي تعرفُ وجدي بها وَاكْنِ بما شئتَ عن الخمرِ

هذه الابيات أنيقة رشيقة تدل على هيامه بالخمر والسكر وقد نسبها ياقوت الى الحسين بن الضحاك الملقب بالخليع وهي مثبتة في ديوانه ،على انها اشتهرت لأبي نواس وذكرت في ديوانه — والعُمْرُ هو الدير . واطردت العينان تتابع نظرهما . والصُبْحَة ما يتعلل به صباحاً ويقصد شرب الصَّبوح . والقُبُور مكان التلاوة والعبادة وعبد لليهود ومدراسهم أي كنيسهم .

وماذكره ياقوت في معجم البلدان من الاديار : دير أحويشا : ومعناه بالسريانية الحبيس .وهو بديار بكر وكان كبيراً جداً فيه أربعمئة راهب وحوله البساتين والكروم واشتهر بجودة خمره وحسن بنائه ويجري قربه نهر الروم وفيه يقول أبوبكر محمد بن طناب البادي :

نؤمُ بدير أحْوِيشا غزالاً ... غريبَ الحسنِ كالقمرِ اللياحِ
وكابدنا السُّرى شوقاً إليـه ... فوافينا الصَّباحَ مع الصَّباحِ
قسمنــا الوقتَ فيه لاغتباقٍ ... على الوجهِ المليحِ والاصْطِباحِ
وَظلْنا بين ريحانٍ وراحٍ ... وأوتارٍ تساعدنا فِصَـاحِ

وفي الابيات حسن ورقة وسهولة . والاغتباق شرب الراح مساء والاصطبـاح شربها صباحاً .

ودير الأعلى يقع في أعلى الموصل على جبل مطل على دجلة وهو جيد الهواء ويقال انه ليس في الأديار مثله .قال فيه الخالدي :

قمرٌ بدير الموصلِ الأعلى ... أنا عَبْدُهُ وهواهُ لي مَوْلى
لثمَ الصَّليبَ فقلتُ من حسدٍ ... قُبَلُ الحبيبِ فمي بها أولى
جُدْ لي باحداهُنَّ تَحْوِ بها ... قلبي محبّتهُ عـلى المقلى
فاحْمَرَّ من خجلٍ وكم قطفت ... عيني شقائقَ وجنةٍ خجلى
وَتكلتُ صبري عند فُرقته ... فعرفتُ كيف مصيبةُ الثكلى

وفي أبيات الشاعر رقة وحلاوة ومداعبة لطيفة وقد حسد الصليب لانهال القُبَل عليه من قِبل الحبيب ويرى أن فمه أحق وأولى بتلك القبل الحلـوة ويتمنى لو نال قبلة واحدة منها .

ودير بَوَنّا ، ويقع بجانب غوطة دمشق ويقال انه بُني في عهد المسيح عليه

السلام او بعده بقليل ،وهو من أقدم الأديار وبناؤه صغير ورهبانه قليلون وقد أمضى به الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة الاموي يوم لهو وكان ماجناً فقال فيه :

حبذا ليلتي بدير بوَنّا ... حيثُ نُسقى شرابنا ونُغنّى
كيف ماداراتِ الزجاجةُ دُرنا ... يحسبُ الجاهلون أنّا جُننّا
ومررنا بنسوةٍ عطِراتٍ ... وغناءٍ وقهوة فنزلنا
وجعلنا خليفةَ الله فطرو ... سَ مجوناً والمستشارَ يُحنّا
واشتهرنا للناس حيثُ يقولو ... نَ اذا خُبّروا بما قد فعلنا

وهذه الأبيات في غاية الرشاقة والظرف والمجون .

ودير الجاثليق غربي دجلة قرب بغداد وهو قديم البناء رحب الفِناء وفيه يقول محمد بن أبي أمية :

تذكرتُ ديرَ الجاثليق وفتيةً ... بهم تم لي فيه السُرور وأسعفا
ألا رُبَّ يوم قد نعمتُ بظلّه ... أبادلُ من لذّات عيشيَ ماصفّا
أغازلُ فيه أدعج الطرف أغيداً ... وأسقى به مسكية الراح قرقفا
فسقياً لأيام مضت لي بقربهم ... لقد أوسعتني رأفةً وتعطّفا
وتَعساً لأيام رمتني ببينهم ... ودهر تقضاني الذي كان أسلفا

وفي الأبيات تشوّق وتلهّف وذكريات لطيفة . وقد ذكر الاصبهاني في كتابه الأغاني ان عند هذا الدير حصلت المعركة بين عبد الملك بن مروان ومُصعَب بن الزبير وقتل الأخير فرثاه عبد الله بن قيس الرّقيّات بقوله :

لقد أورثَ المصرَين حزناً وذلّةً ... قتيلٌ بديرِ الجاثليق مُقيمُ
تولّى قتال المارقين بنفسه ... وقد أسلماهُ مُبعَدٌ وحميمُ
فما قاتلت في الله بكرُ بنُ وائلٍ ... ولا صدَقت عند اللقاء تميمُ

ولُقّبَ هذا الشاعر بالرُقيّات لأنه كان يحبّ ثلاث نسوة كل واحدة منهنّ اسمها رُقيّة وقد حضر المعركة بجانب مُصعَب وكان مصعب من الفرسان والشجعان المعدودين

وقد تزوج أجمل وأملح غادتين هما عائشة بنت طلحة وسُكَيْنَة بنت الحسين عليه السلام، والأبيات مذكورة في ديوان الشاعر وفي معجم البلدان ويقصد بقوله : المصريْن : الكوفة والبصرة .

ودير حنظلة : وهو قرب الفرات من الجانب الشرقي وحنظلة عم إياس بن قبيصة وكان قد تنسَّك وتنصَّر في الجاهلية فبنى ديرا سُمي باسمه وقد نزل به عبد الله بن محمد الأمين الخليفة العباسي فاستطابه وقال فيه :

ألا يادير حَنْظلةَ المُفَدّى   لقد أورثْتَني سَقَماً وكدّا
أزُفُّ من الفرات اليك دَنّاً   وأجعل حوله الورد المندّى
وأبدأ بالصَّبوح أمام صحبي   ومَن ينشطْ له فهو المُفَدّى

والأبيات رشيقة رقيقة تنمّ عن عاطفة جيّاشة .

ودَيْر الخُوات أي الأخوات . قال ياقوت ولعله دير العـذارى وعيده الأحد الأول من الصوم ويقع وسط البساتين معكبرا . وفيه يقول أبو عثمان الناجم :

آح قلبي من الصّبابة آحِ   من جوارٍ مُزَيّناتٍ مِلاحِ
أهلَ دَيْر الخُوات بالله ربّي   هل على عاشق قضى من جُناحِ
وفتاةٍ كأنها غُصْنُ بانٍ   ذات وجه كمثل نور الصّباحِ

والخُوات من كلام العوام، وآح كلمة تقال لما يكره ويجوز فيها كسر الحاء وفتحها. والأبيات لطيفة وجميلة .

ودير دُرْتا : بضم الدال ويقع على دجلة في غربي بغداد ازاء باب الشماسية وهو حسن العمارة وشاهق الارتفاع كثير الرهبان . قال فيه احمد بن عبيد الله البديهي :

قد أَدَرْنا بدير دُرْتا وقدّسْـ   ـنا مُجوناً اذْ قدّسَت رهبانُهْ
وسقانا فيه المُدامةَ ظبي   بابليّ ألحاظه أعوانُهْ
ماسَ منه عليّ غُصنٌ من البا   نِ يُضاهي تفّاحَهُ رُمّانُهُ

وفي الأبيات حلاوة وطلاوة وخفة روح .

ودير دَرْمالس : في رقة باب الشماسية ببغداد قرب الدار المعزّية ، وهو نزه

كثير الأشجار والبساتين وكان النصارى يجتمعون فيه يوم الأحد الرابع من أعياد الصوم. وفيه يقول أحمد بن حمدون النديم :

يادَيْرَ دَرْ مالِسَ ما أحْسَنَكْ ... وياغَزالَ الدَّيْرِ ما أفْتَنَكْ
لَئِنْ سَكَنْتَ الدَّيْرَ ياسيدي ... فانَّ في جَوْفِ الحشا مَسْكَنَكْ
ويْحكَ ياقلبُ أمـا تَنْتَهي ... عن شدة الوَجْدِ لِمَنْ أحزَنَكْ
رِفْقٌ بــه بالله ياسيّدي ... فاتـه من حَتْفِهِ مَكَّنَكْ

وفي الأبيات طرافة ولوعة واستعطاف .

ودير الروم : ويقع في الجانب الشرقي من بغداد وهو خاص بالنسطورية، والجاثليق – وهو الرئيس الديني للنصارى بعد البطريق – قلاية الى جانبه. وفيه يقول مدرك بن علي الشيباني :

وجوهٌ بدير الروم قـــد سلبت عقلي ... فأصبحتُ في خَبْلٍ شديدٍ من الخَبْلِ
فكم من غزالٍ قد سبى العقلَ لحظُه ... ومن ظبية رامَتْ بألحــاظها قتلي
فــلم ترَ عيني منظراً قطُّ مثلهُم ... ولمْ ترَ عينٌ مُستَهاماً بهم مثــلي
اذا رُمْتُ أن أسلو أبى الشوقُ والهوى ... كذاك الهوى يُغري المُحبَّ ولا يسلي

وهذه الأبيات حسنة الغزَل دقيقة المبنى رقيقة المعنى .

ودَيْرُ زَكّى ، قال الخالدي : هو في الرقة قريب من الفرات وعلى جنبيه نهر البليخ وفيه يقول الصَّنوبري :

أيا مُتَنَزَّهي في ديْرِ زَكّى ... ألمْ تكُ نُزْهتي بك نُزْهتين
أردّدُ بينَ وَرْدِ نَداكَ طَرْفاً ... تَردّدَ بين ورد الوجنتين
وياسُفنَ الفُراتِ بحيثُ تهوي ... هُويَّ الطير بين الجَلهتَيْنِ
تطـاردُ مقبلات مدبراتٍ ... على عجل تَطارُدَ عسكرَيْنِ

تزانا واصايك كما عهدتنا ... بوصل لاتنغصه ببين

لقد غصبتني الحسون فتكي ... وقامت بين لذاتي وبيني

وفي هذه الأبيات وصف جميل وشوق وحنين وأسف على ذهاب الشباب . والتجلهتان مثنى الجلهة وهي ناحية الوادي . والجلهتان مكانان بحمص ضربة كما في معجم البلدان .

وبهذا الدير أيضاً قال أمير المؤمنين هرون الرشيد :

سلامٌ على النازح المغترب ... تحية صبٍ به مكتئب

غزالٌ مراتعه بالبليخ ... الى دير زكى فجسر الخشب

سأستر والستر من شيمتي ... هوى من أحب لمن لا أحب

ودير سمعان – بكسر السين وفتحها – وهو بنواحي دمشق في موضع نزه جداً والبساتين محدقة به وبجانبه قصور ودور وقبر الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز التي رثاه الشريف الرضي بقوله :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين فتى من أمية لبكيتك

أنت أنقذتنا من السب والشتم فلو أمكن الجزا لجزيتك

دير سمعان لاعدتك الغوادي ... خير ميت من آل مروان بيتك

والذي مدحه كثير عزة بقصيدة رائعة مطلعها :

وليت ولم تشتم علياً ولم تخف ... برياً ولم تتبع مقالة مجرم

وبهذا الدير يقول أبو فراس بن أبي الفرج البزاعي :

يا دير سمعان قل لي أين سمعان ... وأين بانوك خبروني متى بانوا

وأين سكانك اليوم الألى سلفوا ... قد أصبحوا وهم في الترب سكان

أصبحت قفراً خراباً مثلما خربوا ... بالموت ثم انقضى عمرو وعمران

وفي الأبيات تلهف للدير وأصحابه وبناته وفيها أيضاً محسنات بديعية خالية من التكلف .

ودير الزعفران : ويسمى أيضاً عمر الزعفران قرب جزيرة ابن عمر ، وازاؤه جبل الزعفران ، وهو دير نزه فرح قال فيه مصعب الكاتب :

عَمَرَتْ بقاعَ عُمُرِ الزعفران ... بفتيانٍ غطارفةٍ هجانِ
بكل فتىً يحنُّ الى التصابي ... ويهوى شربَ عاتقةِ الدنان
ظللنا نُعملُ الكاساتِ فيه ... على روضٍ كنقش الخُسْرُوَاني

وهذه الأبيات رائقة شائقة وقوله : كنقش الخُسْرُوَاني : أي المنسوب لخسروشاه من الاكاسرة .

ودير صليبا بنواحي دمشق مقابل باب الفراديس ويعرف بدير خالد لأن ابن الوليد نزل به حين حاصر دمشق وفيه يقول أبو الفتح محمد بن علي المعروف بأبي اللقاء :

جنة لقبت بدير صليبا ... مبدعاً حسنه كمالا وطيبا
جئتُه للمقام يوماً فظلنا ... فيه شهراً وكان أمراً عجيبا
وشربنا به الحياة مُداماً ... تطلع الشمس في الكؤوس غروبا
لستُ أنسى مامرَّ فيه ولاأجْ ... عَلُ مدحي الا لدير صليبا

والأبيات بارعة ولطيفة تفيض عاطفة ورقة .

ودَيرُ مَرجِيس وبكس ، وهو منسوب الى راهبين بنجران وكان هذا الدير بطيزناباذ — بين الكوفة والقادسية — وهو محفوف بالكروم والأشجار والحانات ولم يبق فيه الا خربٌ تدعى قباب أبي نُواس .وفيه يقول الحسين بن الضّحاك . وفي معجم البلدان الحسين بن الصحان وهو تحريف والتصويب في ديوان الشاعر الخليع :

أخَوَيَّ حيَّ على الصَّبوح صَباحا ... هُبّا ولا تَعِدا الصَّباحَ رَواحا
هذا الشُّميطُ كأنّهُ مُتحيّرٌ ... في الأفقِ سُدَّ طريقُهُ فألاحا
مَنها أقامَ على الصَّبوحِ مُساعدٌ ... وعلى الغَبوق فلن أريدَ بَراحا
عودا لعادتنا صَبيحةَ أمْسِنا ... فالعَوْدُ أحمدُ مُغتَدىً ومَراحا
هل تعذران بدير مرجس صاحباً ... بالصَّحْوِ أو تَرَيانِ ذاك جُناحا
عجّتْ قواقِزُنا وقدَّسَ قَسُّنا ... هَزجاً وأصْخَبَنا الدّجاجُ صياحا

وفي الأبيات طرافة ولطافة ، وطيزناباذ كلمة فارسية عربيتها عمارة الضيزن

والعجم لا يلفظون الضاد فقلبوها طاء وأباذ بمعنى العمارة . والشحيط الصبح وسُمّي كذلك لاختلاطه من بياض وسواد . والقواقيز جمع قاقوزة وهي القدح وقد عارض هذه القصيدة أبو نواس بقوله :

ذكرَ الصَّبوحَ بسُحْرةٍ فارْتاحا ... وأملّهُ ديكُ الصَّباحِ صياحا

ودَيْرُ سابُر قرب بغداد . قال فيه الحسين الخليع :

وعواتقٍ باشرتُ بين حدائقٍ ... ففضضتُهنَّ وقد عنين صحاحا

أتبعتُ وخزةَ تلك وخزةَ هذه ... حتّى شربتُ دماءهُنَّ جراحا

في ديْرِ سابُرَ والصَّباحُ يلوحُ لي ... فجمعت بدراً والصَّباح وراحا

العواتق جمع عاتق وهو الزّقّ وعاء الخمر . والصحاح اللبّ . ورواية الديوان : وقد عُنين صِحاحا : والأبيات جميلة تضوع بطيب الراح .

ودير سليمان على جبل عال قرب دلوك يطلّ على مرج العين وهو نزه جداً وقد ورد ذكره في الأغاني أيضاً وفيه يقول ابراهيم بن المدبّر :

أيا ساقيَيْنا وسْطَ ديْرِ سليْمانِ ... أديرا الكؤوسَ فانْهلاني وعلّاني

وعبّا بها النعمان والصحب انني ... تنكرت عيشي بعد صحبي واخواني

ولا تتركا نفسي تمتْ بسقامها ... لذكرى حبيبٍ قدشجاني وعنّاني

وليلة عين المرج زار خياله ... فهيّج لي شوقاً وجدّد احزاني

ومثّله شوقي اليـه مُقابلي ... وناجاه عنه بالضمير وناجاني

والأبيات تموج بالكؤوس والرقة والشوق .

ودير طورسينا : يقع في الجبل الذي تجلى فيه النور لموسى عليه السلام . قال فيه ابن عاصم المصري :

يا راهبَ الدَّيْرِ ماذا الضَّوْءُ والنّورُ

فقدْ أضاءَ بمـا في ديْرِكَ الطُّورُ

هل حلّت الشمسُ فيه دون أبرُجها
أم غيّب البدرُ عنهُ فهو مستورُ
فقال ما حلّهُ شمسٌ ولا قمرٌ
لكنّها قُرّبت فيه القواريرُ

وهذه الأبيات تشف عن صور بديعة .

ودير العذارى : هو بين الموصل وباجرمى من أعمال الرقة كما ذكر أبو الفرج الأصبهاني ، وهو دير عظيم قديم خاص بالمترهبات المتعبدات ويقال إن أحد الملوك أراد أن يجلبن اليه لينتقي زوجة منهن لاشتهارهن بالجمال فقمن الليل يصلين ويدعون الله ان يخلصهن منه فات تلك الليلة وأصبحت الراهبات صائمات لاستجابة دعائهن ولذلك سمي صوم العذارى وبهذا الدير يقول جحظة :

ألا هلْ الى ديرِ العذارى ونظرةٍ
الى الخيرِ من قبل المماتِ سبيلُ
وهلْ لي بسوقِ القادسيةِ سكرةٌ
تُعلِّلُ نفسي والنسيمُ عليلُ
وهلْ بحاناتِ المطيرةِ وقفةٌ
أراعي خروجَ الزقِ وهو جميلُ
الى فتيةٍ ماشتّتَ العذلُ شملهم
شعارُهمُ عند الصباحِ شمولُ
وقد نطقَ الناقوسُ بعد سكوته
وشمعلَ قسّيسٌ ولاحَ فتيلُ
لعمرُكَ ماستحملتُ صبراً لفقدِه
وكلُّ اصطبارٍ عنْ سواهُ جميلُ

وفي الأبيات رقة وعذوبة وحنين . والشمول من أسماء الخمر سميت كذلك لأنها شملها بريح الشمال فبردت . وشمعل : قرأ ، جاء في لسان العرب :

وتعلت اليهود شعلة وهي قراءتهم اذا اجتمعوا في فهرم . وهناك أكثر من دير باسم دير العذارى .

ودير قُنَّى ، ويعرف بدير مرماري السليخ ويبعد ستة عشر فرسخاً عن بغداد وبينه وبين دجلة ميل . قال فيه أبو علي محمد بن الحسن القمي :

يامَنْزِلَ اللَّهْوِ بدَيْرِ قُنَّى … قلبي الى تلك الرُّبى قد حنّا
سَقْياً لأيّامِكَ لمّا حَسْبُنا … نختارُ منك لَذَّةً وحُسْنا
أيّامَ لا أنعمَ عَيْشٍ مِنّا … اذا انْتَشَيْنا وصَحَوْنا عُدْنا
وان فنى دَنٌّ نَزَلْنا دَنّا … حتّى يُظَنَّ أنّنا جُنِنّا

وفي هذه الأرجوزة رقة ورشاقة وعذوبة .

ودير مامرجيس وهو بالمطيرة قرب سامرا . قال فيه عبد الله بن العباس ابن الفضل :

رُبَّ صَهْباءَ من شَرابِ المجوسِ … قهوةٍ بابليّةٍ خَنْدَريسِ
وغَزالٍ مُكَحَّلٍ ذي دلالٍ … ساحرِ الطرفِ بابليٍّ عَروسِ
بَيْنَ آسٍ وبَيْنَ وردٍ جَنيٍّ … وسْطَ دَيْرِ القسيسِ مامرجيسِ
يَتَثَنّى بحُسْنِ جيدِ غَزالٍ … ذي دلالٍ ومُقَصَّصٍ آبَنوسِ
كم لَثَمْتُ الصَّليبَ في الجيدِ منهُ … كهلالٍ مُكَلَّلٍ بشُموسِ

الخندريس الخمر القديمة والكلمة معربة عن اليونانية ، والآبنوس خشب أسود صلب ثمين والكلمة يونانية معربة . وهذه الابيات تفيض حسناً بوصف الخمر والزهر والغزل الرقيق .

ودير القصير بضم القاف وهو في طريق الصعيد من ديار مصر قرب حلوان على رأس جبل مطل على النيل في منتهى الحسن والنزاهة وفيه صورة جميلة متقنة للسيدة العذراء تحتضن المسيح عليه السلام وكان خمارويه بن أحمد بن طولون يكثر زياراته اليه ويبدي اعجابه بتلك الصورة الرائعة ويحتسي الراح ازاءها وقد بنى لنفسه في أعلى الدير قبة ذات اربع طاقات وكان المصريون يتنزهون فيه لقربه من القاهرة وفيه قال الشاعر كشاجم :

ويوم على ديرِ القُصَيْرِ تجاوبت نواقيسُهُ لما تداعت أساقفُهْ
جعلتُ ضُحاها للطراد وظُهرهُ بمجلس لهو معلنات معازفُهْ
أما تريان الروض كيف بكى الحيا عليه فأضحت ضاحكات زخارفه
تسربل موشيَّ البرودِ وأُعلمت حواشيه من نوّاره ومطارفه

وفي الابيات رقة وعذوبة ووصف لطيف. قوله وأُعلمت أي جُعلت في البرود علامات.

ودير كعب ذكره الاصبهاني في الاغاني ولم يذكره معجم البلدان وقد سكر فيه الشاعر الرقيق الماجن مطيع بن إياس وبينا هو في لهوه دخل عليه ثقيل وجلس معه حتى أضجره فخرج مطيع بعد ان كتب على الحائط هذه الابيات :

طربةً ماطربتُ في دير كعبٍ كدتُ أقضي من طربتي فيه نحبي
أيها الداخل الثقيل علينـــا حين طاب الحديث لي ولصحبي
خِفَّ عنا فأنت أثقلُ والـ[illegible]ـه علينا من فرسخي دير كعبِ
ومن النـــاس من يخفُّ ومنهم كرحى البزر رُكّبَت فوق قلبي

والابيات تنم عن خفة دم الشاعر وكرهه للثقالة .

ودير مديان على نهر كرخايا قرب بغداد وهو دير جميل كان أهل اللهو يقصدونه وفيه قال الحسين الخليع :

حُثَّ المُدامَ فان الكأس مُترعةٌ بما تَهيجُ دواعي الشوق أحيانا
يادير مديانَ لا عُرّيت من سكن ما هجتَ من سقمٍ يادير مديانا
هل عند قسّك من علم فيخـــبرني أن كيف يَسعَدُ وجه الصبر من بانا
سقياً ورعياً لكرخايا وساكنها بين الجُنَيْنَةِ والروحاء من كانا

وفي الأبيات رقة وذكرى وحنين —وذكرابو الفرج الأصبهاني هذه الابيات مع تغيير بعض الكلمات وتقديم وتأخير في دير مران خلافاً لمعجم البلدان وديوان الخليع— وقد انشدها بناء على طلب المعتصم تشوقاً لبغداد ومتنزهاتها .

ودير مَرّان بضم الميم وتشديد الراء وهو بالقرب من دمشق على تل مشرف يطل على مزارع الزعفران والرياض الزاهية وفي هيكله صورة عجيبة وفيه يقول ابوبكر الصنوبري :

أمرُّ بدير مُرّان فأحيـــا ... وأجعلُ بيتَ لهوي بيتَ لِهْيا
ويُبردُ غلتي بردى فسقياً ... لأيام على بردى ورعيـــا
ولي في بـاب جيرون ظباءٌ ... أعاطيها الهوى ظبياً فظبيـا
ونعمَ الدّار داريّا ففيهـــا ... حلا لي العيش حتى صار أريّا
سقت دنيا دمشق ليصطفيها ... وليس يريد غير دمشق دنيـا
تفيض جداول البلور فيها ... خِلالَ حدائق يُنبتنَ وَشْيا
مُظللةٌ فواكهُها بأبهى الـ ... مناظر في نواضرها وأهْيا
فمن تفاحة لم تَعْدُ خَــدّاً ... ومن رمّانةٍ لم تخط ثدْيا

وهي أبيات تترقرق عذوبة ورقة وحسناً . وجيرون من أسماء دمشق ، والأري: العسل ، ويروى أن يزيد بن معاوية كان في دير مران يوماً فجاءه خبر بانتشار وباء بين جيوش المسلمين وموتهم في بلاد الروم ، فقال :

وما أبالي بما لاقت جموعُهم ... بالغذقذونة من حُمّى ومن مُوم
اذا اتّكأتُ على الأنماط مرتفقاً ... بدير مران عندي أمُّ كُلثوم

الغـذقذونة ثغر يجمع المصيصة وطرسوس وغيرهما ، والموم مرض البِرسام والجُدري ، وأمّ كلثوم زوجة يزيد وهي بنت عبد الله بن عامر بن كريْز . فبلغ معاوية ذلك فقال لا جَرَم ليلحقنّ بهم ويصيبه ما أصابهم والا خلعته . فتهيأ للرحيل وكتب اليه :

تَجنّى لاتزالُ تعدُّ ذنباً ... لتقطع حبل وصلك من حبالي
فيوشِكُ أن يريحك من بلائي ... نزولي في المَهالكِ وارتحالي

ثم غزا الروم وأبلى بلاء حسناً حتى وصل الى أبواب القسطنطينية كما جاء في الأغاني.

وفي الجبل المشرف على كفر طاب قرب المعرّة دير يدعى دير مرّان ايضاً .

ودير مَرْماري من نواحي سامرا عند قنطرة وصيف ، وكان عامراً كثير الرهبان. قال فيه الفضل بن العباس بن المأمون :

أنضيتُ في سرَّ من را خيل لذاتي ... ونلتُ منها هوى نفسي وحاجاتي
عمرتُ فيها بقاعَ اللهو منغمساً ... في القصف ما بين أنهارٍ وجنّاتِ
بديرِ مرمار إذ نحيي الصبوحَ به ... ونُعمِلُ الكأسَ فيه بالعشيّاتِ
بينَ النواقيس والتقديس آونةً ... وتارةً بين عيدانٍ ونائاتِ
وكمْ به من غزالٍ أغيدٍ غزِلٍ ... يَصيدُنا بالحاظ البابليّاتِ

هذه الأبيات تفيض بالرقة واللذة والمرح . وسرَّ مَنْ را أصلها سرَّ مَنْ رأى ويقال لها سامراء وسامرّا بالقصر، وساء من رأى سميت كذلك بعد خرابها، وهي مدينة على دجلة تبعد ثلاثين فرسخاً عن بغداد بناها المعتصم على أنقاض مدينة قديمة وجعلها عاصمة ثانية لملكه ومقراً لجنده .

ودير مَرْما عوث بفتح الميم وتسكين الراء وهو شاطىء الفرات من الجانب الغربي في موضع نزه وحوله مزارع نضيرة وفيه صورة عجيبة. قال فيه الشاعر الكتبدي المنبجي :

ياطيبَ ليلة ديرِ مَرْما عوث ... فسقاهُ ربُّ الناس صوبَ غيوثِ
وسقى حمامات هناك صوادحاً ... أبداً على سدْرٍ هناك وتوتِ
ومورَّد الوجنات من رهبانه ... هو بينهم كالظبي بين ليوثِ
ذي لثغة فتّانة فيسمّي الطّـ ... ـاوُس حين يقولُ بالطاوُثِ
حاولتُ منه قُبلةً فأجابني ... لا والمسيح وحرْمةِ الناقوثِ
أتُراكَ ماتخشى عقوبةَ خالقٍ ... تعثيه بينَ شمامثٍ وقسُوثِ

وفي هذه الأبيات فكاهة لطيفة ودعابة طريفة وحلاوة وطلاوة فالشاعر تغزل بألثغ يلفظ السين ثاء فتفنن بإيراد كلمات تحتوي على سين ليلفظها ثاء حتى أنه أنطقه الصاد ثاء بقوله : تعثيه بدلاً من تعصيه :

ودير مريم بالحيرة وهو حسن الموقع والبناء ذكره الأصبهاني ولم يذكره ياقوت . قال فيه إسحق الموصلي وكان مع الخليفة الواثق على مقربة منه :

نعمَ المحلُّ لمَنْ يَسعى للذته ... ديرٌ لمريمَ فوق الظهرِ معمور
ظلٌّ ظليلٌ وماءٌ غيرُ ذي أسَنٍ ... وقاصراتٌ كأمثال الدمى حُورُ

فقال الواثق: لانصطبح غداً الا فيه . وأمر بالاستعداد لذلك ومضى اليه ومعه حاشيته وشرب على غناء اسحق بالبيتين المذكورين وأمر بتفريق مال على الدير وبجائزة لاسحق .

وعُمْرُ نصر : بسامراء . قال فيه الحسين بن الضحاك :

ياعُمْرَ نصرٍ لقد هيجت ساكنة ... هاجت بلابلَ صبٍ بعد إقصارِ
لله هاتفةٌ هبّت مُرجّعةً ... زبور داود طوراً بعد أطوارِ
عجّت أساقفها في بيت مذبحها ... وعجّ رُهبانها في عَرْصَةِ الدارِ
خمّار حانتها ان زرت حانته ... أذكى مجامرها بالعود والنارِ

والأبيات جميلة تثير اللواعج وتهيج الخواطر .

وآخر ماذكره ياقوت من الأديار دير يونس وينسب الى يونس بن متى عليه السلام وهو بالجانب الشرقي من دجلة مقابل الموصل وموضعه يعرف بنينوى . وفيه يقول ابو نواس :

يادير يونس جادت سفحك الديمُ ... حتى يُرى ناظرٌ بالروض يبتسمُ
لم يشف في ناجر داءٌ على ظمأ ... كما شفى حرّ قلبي ماؤك الشَّبِمُ
ولن يُحَالَ محزونٌ به سقمٌ ... الا تحلّل عنه ذلك السقَمُ
أستغفر الله من فتكي بذي غنجٍ ... جرى عليَّ به في ربعك القلمُ

وهذه الابيات حسنة رقيقة وفيها حنين واستغفار . ومعنى ناجر كل شهر من أشهر الصيف ، والشَّبِم البارد .

هذا ماعنّ لي ان اكتبه عن الاديار وماقيل فيها من اشعار لامتاع القارىء الكريم بما جرى على ألسنة الشعراء الظرفاء من وصف للقصف واللهو .

والأخبار عن الديار وروادها كثيرة لايستوعبها إلا كتاب ضخم وقد ذكرت بعض الروائع منها وان كنت كلها روائع .

مذكرات ابريق

شعر ودراسة محمد عفيفي مطر

ـ القاهرة

كيف يتكون الشعر الحديث ، في ضمير الشاعر ، وكيف يظهر في قالبه الانشائي الجديد وما هي العوامل النفسية والفنية التي تكونه ، وتبرزه . السؤال طرحته (المعرفة) على شاعر شاب من شعراء الجديد ، على ان تكون إحدى قصائده موضوع تحليله . فكانت لنا هذه الدراسة .



– ١ –

تُرى .. من أيّ جرح ينزفُ القمرُ !!
وهذا الليلُ والانسان والسفرُ
أرادوا بعض ماء من سواقيه ، فيتكىءُ
بمرفقه على جميزة الأفقِ
ويخرج نهده المقطوعَ في طبقِ
ويعصره ، ويسكب ماءه بحدائق الأرضِ
فأملأ جوفيَ الظمآنْ
– أنا إبريق هذا العالم السفليّ – أملأ جوفيَ الظمآنْ
وعند مداخل الدنيا الترابيةْ
أدسُّ يدي بخاصرتي وانتظرْ
فتأتي حيّةُ الأرضِ
لتشرب جرعةً .. فتصب سمَّ الأرض في جوفي .

* * *

وهذا فارسٌ في الليل ينسلُّ
على صدغيه بعضُ دمٍ وفوق جبينه ظلُّ
من الطعن الرهيب وصرخة السيفِ
من القتلى ، من الحلم الذي لن ينبت الأحلامْ
وجاء الآنَ .. جاء الآنْ
ليشرب جرعةً من مائيَ الصافي !!
وأسقيه

تتعلق نابُها الحيّة
وفي أعماق هذا العالم السفليّ تتسربُ ..

- ٢ -

وتحت الليل جاء اثنان
وفي صدريهما طيران ينتفضان
ومن وثنيهما جرحٌ عميقٌ ينزف الخضرة

[- : سنهرب هذه الليلة
- : سنهرب حينا نستأذن الموتا
ونغرق فوق قنطرة الرؤى للطينة الأولى
نشم عبيرها فنجوس في الأحلام
تراقصنا الرياح ونعرف الصمتا
- : وسوف نذوق طعم الخطة الأولى
- : سنمرق مرةً أخرى من البوابة الخضراء
نقبّلُ هذه الطرق الترابيّة]

وقد أنصتَ للقبلات وهي تطير من غُلٍ إلى غُلٍ
- أنا إبريق هذا العالم السفلي - قد انصتُ لليل
يفجر نهره المعتم
فتشتعل الرؤى السوداء والخضراء
[- : تعالي .. هاهو الابريق في بوابة الأرض .]
فأسقيه عصير الخوف والظلمة
فيمتلىء السكون المعتمُ العينين بالأجراس .

[— سنهوب ليلةً أخرى

تعالَيْ .. قد تمرّ الآنَ كوكبةٌ من الحراسْ

وقد تغتالنا الأيدي التي تمتدُّ في الظلمة

وقد تهوي بنا — من فوق قنطرة الرؤى — الريحُ ..]

— ٣ —

وجاء اثنان من بوابة الليل :

عجوزٌ لم تعد أنثى ، وشيخ أطفأتْ أيامه الطرقاتْ

رأيتهما كزمارين مكسورين في الريح

سمعتهما نداءً ضائعاً في الأرض والظلمة

يقول لها : تسوَّلْنا طوال اليوم فاستغمضتْ على أفواهنا اللقمةْ .

تقول له : ولم أعثر على ولد يطاوعني

ويترك داره ويفر من أبويه ، يتبعني

ليصبح في مغيب الأرض تعويذة

ليضرب صوته في الصدر عرقاً يسكب الابنا

يقول : أجل .. تسولنا وطالتْ في عيون الخلق غربتنا

وهاجرْنا بلا فيءٍ ولا خضرةْ .

أحسُّ دمي — أنا إبريق هذا العالم السفلي — يرتعشُ

أشم روائح الطاعونْ

أحس مجاعةً في الأرض تأكل طفلها الانسانْ

فأسكب من دمي كأساً لشحاذين ينتفضانْ

تسيل خلال عظم الشيخ ماءً معشباً ،
وبظهره نسلاً بلا أسماء
وتضرب فخذها بالطمث ، تملأ صدرها لبنا
[– : سأرجع ، وربما ألقى صغيراً ضائعاً في الليل يتبعني
– : تعاليَ .. ربما نلقاه
– : لقد أغويتني يوماً بما في عودك الصخريّ من أبناءْ
فدعني الآن بتعويذةٍ لأنبتُ الرحمة ..]
وعاد الشيخ يبكي وحده ويجوس في الظلمة ..

– ٤ –

صبيٌّ أخضرُ العينين في الظلماء يحتضر
تشق جدار غرفته الرؤى ، يتحدث الجنُّ والتوتُ
وتمرق عبر منورها العفاريت
يذيبون السواد الصلبَ في القارورة الخضراء
ويفترشون في جنبيه صوتاً غاله الصمتُ
فيغتسل الصبيُّ بمائه الثلجيِّ ، يسمع آخر الأصداء
ويختطفونه في الصمت .. يرتحلون تحت هوادج الصفصاف
يهيلون التراب عليه في جبانة الصمت
وقد أحسست بالموت
– أنا إبريق هذا العالم السفلي – قد أحسستُ بالموت
بريق عصيره الدمويِّ في الصفصاف
أرى الدنيا يزلزل سقفها طاغوته الطوّاف

يدق بها خناجره الرماديّة
ويسحب ثوبه في الريح ، يغرس رمحه في روحها الصماء
يراقصها وينهش نهدها ويغوص في الرحم الجليدية
ويشعل صدرها شمساً من التعتيم والدخان .
وقد أحسست بالأشجار
— أنا إبريق هذا العالم السفلي — قد أحسستُ بالأشجار
تمص من الثرى ملحاً رهيباً أخضرَ الرعب .

* * *

أقمتُ العام بعد العام فوق الشاهد المهجور
أرقّمُ ماتهدُ الريحُ من جبّانة الطفل
أواري وجهه المتآكلَ المطووحَ تحت الشمس في ظلي
ألاطف أوجه الغرباء
وأسقيهم إذا التفّتْ على أعناقهم أنشوطةُ الصهد
أمدُّ يديّ أحجب عنهم الشمس الجليديّة
وأطعمهم ثمار الصيف كي يستريحوا الأمطار أو
يستمطروا الرحمة
أراقصهم إذا جاءوا مع الظلمة
وأذهلهم .. فيستسقون عصر النار ..

* * *

أرى الغرباء ينزلقون في الطرق
بأعينهم فجائعُ عالمٍ زلقِ

يطاردهم غوابُ الأرض حتى يركعوا تعباً بمفترق
فينحدرون من رعبٍ الى رعبٍ الى رعبٍ
وينفجرون في دوامة الضحك الغريب الطعم والهربِ
وينطفئون فوق أسرّة الأفخاذ والعرقِ
ويقتتلون من شبقِ
ألاطفهم فيكتئبونْ
ويشتعلون تحت صواعق التعبِ
أمد يديَّ أحجب عنهم الشمس الجليديّةْ
فتأكل ساعديَ الريحُ
يدحرجني غواب الأرض في جبانة الطفلِ
فأبدأ هجرتي في الطين منكفئاً على ظلي ..

— ٥ —

بقلب الأرض أسمع أميَ الحبلى
تقول : صغيرنا قد كان مهر الزيجة الأولى
فكم ضمته بين مراشف التفاح حواءُ
تقول : صغيرنا قد كان نصلاً في يديْ قابيلْ
وآنية يسيل بها الدم المغدورْ
تقول : صغيرنا قد كان باباً سال من أعتابه الطوفانْ
وكان القبرَ والغيطان والانسانْ
تغرّبَ ساعةً فأضاع في الأحقاب سرَّ الصمتْ ..

* * *

أنا إبريق هذا العالم السفلي .. ينهشني غرابُ المقتِ
أنا أنشقُّ عن أهلي
وأهوب في هجيرٍ حطَّ في عقلي
أغامر في فجاج اليأس مُنسلخاً من الظلِّ
أفتِّتُ صورتي ، وأهد كل ملامحي وأغوصُ
في الاعصار أبحث عن براءة قلبي الأولى
وأسقي جيلي المتسوِّلَ العريانْ
فينُشب في عقولهم الجنونُ أظافرَ الاعصارْ
أراقصهم فيتهاوون لليأس
وأغرس خنجراً من رمزيَ المعجون من ثلجٍ ومن شمس
بطينتهم ، فيقتتلون من طرب ..

٦

سأبدأ رحلتي محمرَّةَ العينين منطفئاً وظمآنا
أنا إبريق هذا العالم السفلي قد أصغيْتُ للريحِ
تغمغم في صحائفها التي انطمستْ فجيعةُ صمتيَ المشنوقِ
في أرض التباريحِ
أواري عورتي وفضيحة الأبوين فوق مضاجع الطمثِ
أقوم الآن بين فضائحي وأسير عريانا ..

* * *

رأيتُ الأرض .. ماطابت بها أثار

ولا غنّتْ على تابوتها اطيارْ
أنا إبريق هذا العالم السفلي قد اصغيتُ للريح
تغني نفس غنوتها
تغني نفس غنوتها
فما أسرار أني قد وُهبتُ السمعْ ؟!!

* * *

أرى ولداً غريب العين شابتْ رأسهُ وانداسْ في الظلمة
أتى .. خطواتُه شبحيّةٌ .. يتأمّلُ الطرقاتْ
يخالس وجهي النظراتْ
يجيء إليّ .. يسرقني
ويحضنُ وجهي المطموس بين يديه ، يخطفني
ويسرع بي من الظلمات للظلمات
فأسمع قلبه المذعور يبكيني [illegible]
وفي أنفاسه الملويّة الأعناق يرثيني [illegible]
كأنه ثلج وسفينة [illegible]
وأنظر أين عينيه
و [illegible] في طينتنا المجهولة يدعوني [illegible]
[illegible] ..

* * *

كتب إلي تحرير « المعرفة » ، طالباً أن أقوم بتناول قصيدتي هذه بما يشبه الدلكة التحليلية والنقدية ، بياناً لمسوغات الشعر الحديث وشرعيته كما يمكن استقراؤها من هذه القصيدة بالذات .

والحق ان قصيدة واحدة وشاعراً واحداً لايمكن ان يكون بياناً نظرياً متكاملاً وكاملاً على حركة شعرية واسعة تعتبر هذه القصيدة ويعتبر كاتبها قطرة من بحرها الطامي العميق .

ووفاء بهذه المحاولة الشخصية الاستبطانية في جوهرها فانني سأعمد الى تقسيم كلمتي هذه الى شطرين ، في احدهما خواطر سريعة حول الشعر الحديث كما أجده في نفسي ، وفي ثانيها إسقاط على القصيدة ، لتقريبها وتنويرها .

— ١ —

لتبرير حركة الشعر الحديث ، يمكن ان نتقافز عبر عصور الشعر العربي ونترصد في مساره الطويل لكل حركات التجديد الجزئية التي قام بها شعراء كثيرون على اختلاف ازمانهم ومواقفهم الشعرية ، وعلى اختلاف مدى هذا التجديد فنأخذ في بيان الاطوار المختلفة لمصطلح « العمود الشعري » ونتذكر ما حدث حول الخروج على المقدمة التقليدية للقصيدة بالبكاء على الدمن والاطلال والمرابع الدارسة المهجورة ، وتصفية القصيدة من توزعها على ما كان يسمى « بالاغراض الشعرية » وسيرها نحو التكامل والوحدة العضوية الحية . كما يمكننا أن نأخذ في تجميع الدلالات التي يتكشف عنها تجديد الشعر العربي كما حدث احتكاك او تصادم حضاري بين العرب وبين غيرهم من شعوب العالم ، وتفصيل مدى ما أحدثته حركة التجديد في الأندلس في اطار الشكل الموسيقي والأنماط الشعرية المختلفة من تطوير وابتكار ، وان نصل الى مظاهر الضيق من القواعد الشعرية التي تحجرت وكيف أنها اخذت تتفتت وتتحلل في أشكال كثيرة من المسمطات ، الرباعيات والخماسيات ، الدوبيت الفارسي والمقطعات الصغيرة ، مجمع البحور والشعر المرسل .. الخ ..

كل ذلك يمكن احصاؤه بدقة وعناية منهجية بالتفاصيل والمنعرجات الجزئية حتى نصل الى هدف واحد هو :

التجديد الذي نحاوله ، أو الجدة التي ندعيها ، يمكن ان تكتسب الشرعية والامكانية المبررة بما سقناه من براهين نستمدها من صميم تراثنا .

وكرد فعل على هجوم الكهنوت الذي يدعي لنفسه حق الولاية والوصاية على التراث وانساقت حركة الشعر الحديث في الدفاع عن نفسها الى هذا المنعطف المسدود ، ولذلك فانني لن ألجأ الى هذا المنهج الذي يعطي الوصاية والكهنة حق السؤال ولايضعهم موضع المساءلة ، فأبدأ بهذه الاسئلة السريعة :

ماهو المبرر الذي يمكن أن نستخرجه من التراث لنضمن شرعية التجديد والثورة بل والوجود في مجالات الفنون والآداب والعلوم الطارئة كالمسرحية بأشكالها والقصة القصيرة بمدارسها واتجاهاتها والرواية بروادها ودخولها في مرحلة التجريب والتفلسف والطليعية ؟!

وما المبرر الذي يقدمه لنا التراث ضماناً لشرعية فن العمارة والنحت والتصوير والموسيقى بما تحقق في مجالاتها من ثورات وطفرات وانقلابات ؟!

هل يوجد مبرر شرعي واحد يقدمه التراث دليلاً لنا في طقوس حياتنا اليومية من نظام عمل وطريقة عيش ومسالك علاقات وارتباطات وانتماءات ؟!

ان المبرر الوحيد والأم - في رأيي - الذي يقدمه لنا التراث فيما يختص بشرعية مانحاوله في الفن والعلم والأدب هو أن آباءنا وأجدادنا العظام ، بقدر ما كانوا يواجهون عصرهم وحياتهم بتعاطف ووعي وإيجابية خالقة ، بقدر ما كانوا ذوي حياة غنية عظيمة متحضرة ، لقد كانوا - مثلنا - رجالاً ، انفعلوا وفعلوا ، بقوة الحياة فيهم صارت الحضارات اليونانية والفارسية والهندية بكل جوانبها الفلسفية والعلمية جزءاً لاينفصل من عقولهم ونفوسهم ووقائع حياتهم اليومية. هذا الانفتاح العظيم على العطاء الحضاري العالمي هو الدرس العظيم الذي يجب علينا أن نحسن تلقيه عن آبائنا وأجدادنا . أما التشبث العقيم بالطواطم واستنزال اللعنة على كل فعل حر وكل حركة خالقة باسم التراث .. فهو جهل فاضح ولؤم جبان وخيانة لهذا التراث .

كانوا أحياء ، فاخضرت في أيديهم القوالب والقواعد ، ثم صنعوها ولم تصنعهم ، خلقوها ولم تخلقهم ، فهل الحفاظ على التراث وتمجيد أبوتهم لنا والاعتراف لهم بالمكانة العظيمة في تاريخ العالم بأن نكون نحن موتى فلا نفعل بل ننفعل دائماً وتتلقى العالم عاجزين بلا مغامرة تضيف الى الإرث الذي ورثناه ؟!

ان الحياة التي نحياها الآن في العالم الحديث وحضارته الحديثة لتواجهنا بسؤال ملح.. عاصف ودموي .. جوهري ونهائي .. هو :

ماذا تقدمون أنتم حتى لاتكونوا فجوة وهوة فـاصلة بين تراث الماضي وبين الأجيال الآتية في رحم الزمان ؟!

ان الحفاظ على تراث الآباء هو أن نصبح نحن أيضاً تراثاً .. بأن نحيا حياتنا وان نترك للقادمين احتراقنا وتوهجنا وهزائمنا وانتصاراتنا .

فهل قمنا حقاً بنسف الجسور الواصلة بين الشعر العربي الذي ورثناه وبين هـذا الشعر الذي نحاول أن نحمله أخص خصائصنا وملامحنا وأصفى طاقات الحياة فينا والذي اصطلح على تسميته بالشعر الحديث أو الشعر الحر ؟!

كلا بالطبع ، فانها مازالا رافدين في نهر واحد ، وجزأين في أرض واحدة. فالشعر الحديث شعر عربي ، اللغة هي هي العربية ، بما لحقها من افاعيل الزمان وبما مرت فيـه من أدوار حياتها العبقرية الطويلة ، بارتفاعاتها وانخفاضاتها وقوانين الحياة التي تجري عليها كأي كائن حي .

والهدف هو هو .. الحضارة ، فالتراث العربي في أزهى عصوره واكثرها انسانية انما هو مناخ حضاري وانفتاح على العالم والانسان ، والشعر الحديث هو أول الحركات التي تستهدف خلق هذا المناخ الحضاري وخلق الشروط الانسانية لعالم اكثر انسانية، وهو حديث بانفتاحه أيضاً على الحصيلة الحضارية التي تشكل صورة الانسان والعالم الحديثين.. بغض النظر عما تستدعيه كلمة « الهدف » من مناقشات أخلاقية وجمالية ومذهبية لاشأن لنا بها الآن .. الشعر الحديث غزوة من غزوات الانسان العربي في أرض المأساة الحضارية التي تعفنا وتعفنت الحياة منها قروناً طويلة عديدة .. قرون النوم على القهر وغفلة الضمير الأبكم والتجويع والتطويع ..

ولكن نقطة الخلاف التي اكتسبت جوهريتها واهميتها من طول الالحاح عليها ودوام اثارتها من جانب أعداء الشعر وأعداء كل شيء يخطو بالانسان العربي خطوة على طريق الحرية والانسانية .. نقطة الخلاف هذه هي الموسيقى . فكثيراً ما صور الشعر الحديث في صورة الكائن الهجين اللقيط الذي يخلو من عنصر الموسيقى، ويتعمدون دائماً ان يطلقوا عليه اسم الشعر المنثور أو النثر المشعور أو الشعر « السايب » زيادة في طمس معالمه وتشويهه والحقيقة التي يجب ان تقال وألا يمل تكرارها ، هي أن هناك أساساً موسيقياً مشتركاً يتعارف عليه الشاعر والقارىء والناقد فيما بينهم ، هذا الاساس الموسيقي المشترك

هو « التفعيلة » . فالشعر العربي الذي يتبع النسق الموسيقي كما استقرأه وسجله الخليل ابن احمد الفراهيدي يقوم على البيت ذي الشطرين والذي يتكون من عدد ثابت عدده من هذه الوحدات الموسيقية ، التفعيلات ، وهذا الشكل ثابت مهما طالت القصيدة ، هذا النسق الموسيقي الهندسي الذي تحكمه قواعد وضرورات وجوازات محددة ، نسقطه نحن الشعراء المحدثين — التزاما واحدا هو الالتزام بعدد التفعيلات . فالشعر الحديث مايزال — حتى الآن — يقوم في بنائه الموسيقى على التفعيلة .. الواحدة التي تتكرر من سطر الى سطر تكرارا حرا لا يخضع الا للايقاع الداخلي العميق الذي يشكل جوهر وماهية التجربة الشعرية الحديثة .

وانني أعتقد ان الخليل بن احمد لو لم يسجل القواعد التي قامت عليها القصائد العربية ، لما اكتسبت هذه القواعد قداستها وثباتها الدهري ولظل الشعراء يخلقون من الأنساق والأشكال الموسيقية مايفوق الحصر ، ولكن الحرية خطرة ومهلكة ، واللجوء الى الطرق المأمونة والدروب المطروقة المعبدة أيسر وأكثر أمانا ، وبعض التدريبات تجعل العاجزين المفتقرين الى موهبة الخلق الحقيقية قادرين على الرص والرصف والإغتراف من معين الذاكرة والحكم والتفاهات المحفوظة عن ظهر قلب .

وما أحفل تاريخ الشعر العربي بالطنطنة الفارغة والثرثرة البليدة والتهالك المزري على دينار الأمير والاغتراف من التشبيهات الملفقة والاستعارات المستهلكة والعواطف القميئة والأفكار التي بليت على أسنة الأقلام .. كل ذلك .. موزون .. وعلى قواعد الخليل .. ومع ذلك فهو لم يكن شعرا على الاطلاق . الشعر الحديث ليس هدما للموسيقى وخروجا على الاوزان الخليلية ، ولكنه الطريقة الحديثة والوحيدة لاعطاء الشاعر من الحرية مايكفل له صدق الكلمة وأصالة التعبير عن الحقائق الانسانية المعاصرة .. فكرا وعاطفة ، وجودا ومصيرا .

هذه الموسيقى المعتمدة على التفعيلة لا على النسق الهندسي الجاهز القبلي المفروضة على الشاعر ، جعلت موسيقية القصيدة عنصرا بنائيا داخلا في تركيب مضمونها ؛ أي أصبح الشكل والمضمون جوهرا واحدا لايمكن فصل أحدهما عن الآخر ، تصبح القصيدة كائنا حيا غير منضغط في قالب آخر غير قالبه هو . وهذا هو أصفى وأعمق مايمكن استخلاصه من موسيقى الشعر العربي .. أن تكون هذه الموسيقى دما يجري في عروق القصيدة لا إطارا خشبيا كالنعش لوضع الجثث ، ولو أتيح لموسيقى الشعر العربي موروثة وحديثة أن تدخل الى المعامل التجريبية لدراستها وتحليلها في أجهزة

الصوتيات الحديثة ، فسوف يدخل الشعر العربي مرحلة حياتية فاصلة ، باستنباط قواعده على أسس علمية جديدة وبفتح أبواب واسعة من الفهم والتجديد والتطوير ، وبدلا من هذا العمل الضروري الصعب ، فان النقـاد والدارسين يأكلون خبزهم بنبش القبور ونسج الأكفان .

نحن لاندرس الكيمياء الآن بحثا عن حجر الفلاسفة أولبن العصفور ، ولا ندرس الفلك بحثا عن الطوالع الشقية والسعيدة ، ولكن أحتطين يفعلون ذلك في مجال الشعر على وجه الخصوص .

نحن إذن لم نبتعد عن التراث في روحه الحقيقية ، بل هكذا نكون مخلصين لهذا التراث ، لانقدسه قداسة المومياء ، بل نحبه ونفهمه ونعتبره حيا فنضيف اليه ليزداد ثراء وشمولا ومعاصرة .

أما القافية ، بما تضعه من قيد باهظ على النفس الشاعرة ، فانها تنتقص من صدق الأداء الفني وتدخل الشعر في مجال الصناعة ذات النماذج الجاهزة والقوالب التي لاتعبر عن فردانية الشاعر وخصوصية التجربة الشعرية ، مما جعل الشعر العربي في الكثير من خصائصه ألهية الفارغين ودربة الحفاظ ، فنرى فيه اللجوء الى الذاكرة والى المحفوظ من العبارات التكميلية والصفات السلفية ، ولنضرب لذلك مثلا فكها مضحكا :

سنضع كلمة « أسد » في أواخر البيت ، وإلا فالبيت سيأتي بلفظة غالبـا ماتحددها القافية فنقول : أسد الشرى ، أسد العرين ، أسد الفلاة ، الى آخر الفضول العقيم ، دون أن تكون لهذه الألفاظ التكميلية دواع من أصالة أوضرورة من صدق أوعضوية من بناء .

وقد كانت ضرورة القافية نابعة من شكل العلاقة بين الشاعر والمتلقي ، كان الشعر يلقى في المحافل والمجالس وبين أيدي الممدوحين والمقصودين للجائزة والرفد والخلعة ، أما وقد تغيرت الحياة وتغيرت العلاقة بين الشاعر ومتلقي الشعر وأصبحت الصلة غير مباشرة ، الصحيفة والمجلة والديوان ، فقد أصبح الهمس والبوح والانكشاف السري الأليف والاعتراف الأخوي ، أبعد عن طريقة الخطابة والجلجلة النحاسية والفروسية العنترية الجوفاء . القافية في الشعر الحديث متراوحة وعفوية ، وهي عنصر من عناصر البناء الداخلي للقصيدة وليست قالبا جاهزا مسبقا ، أصبحت معبرة عن الصدق والأصالة وليست هزة رأس في ذكر أوصرخة غناء في محفل .

والآن ، فاني ازعم ان ما قدمته هو الاطار النظري الذي يبرر تكوين هذه القصيدة كمثال او مجرد نموذج اختير عشوائياً ، هذا الاطار النظري الذي قدمنا ملامحه العامة ببساطة وسرعة لاتتلبث عند التفصيلات ولاتدعمها الاستقصاءات والاحصاءات ، فهل يمكن ان نقول ان القصيدة قد التزمت هذا الاطار التزاماً قاطعاً صارماً ، فتكون المقدمة تخطيطاً نظرياً وتكون القصيدة تطبيقاً عملياً له ؟!

لا استطيع ان ازعم ذلك ، وعلى الأخص ان الشعر الحديث مايزال تجريبياً يتشكل ملامحه ويتشكل في تيار واسع يضم شعراء مختلفين واتجاهات متدابرة ونجاحات وهزائم تابعة من شكل المغامرة .

وأريد الآن ان أسقط على هذه القصيدة بعض الاسقاطات الشخصية التي لاتقوم بتحليلها ونقدها .. فهذا عمل الآخرين بالدرجة الأولى ، بل تقوم بمحاولة التنوير والاضاءة فقط .

ذات صيف ، وفي ليلة قرية صافية ، كنت أسير ومعي صديقان في دروب قريتنا النائمة ، ورأينا جداراً قصيراً كالسور أو الحاجز فوق طرفه الاعلى وضع ابريق أبيض كبير من الفخار تلمع جوانبه قطرات الماء المقمر ، فاستثار منظره عطشنا وذهبنا للشرب .

حينما جاء دوري لأشرب قلت معابثاً : مارأيكما لو ان في هذا الابريق ماء ممزوجاً بالسم ؟!

وتحت الحاح هذه البارقة العابثة رفضت أن أشرب ، وقلت لهما بعد مسيرنا : ترى .. لو كتب هذا الابريق مذكرات يرصد فيها مغامرة وجوده وأسرار محنته هذا الطويل .. فاذا هو قائل ؟!

هنا انفصل الابريق عن ابريقيته وتحلل من فخاريته وأخذ يتمدد في داخلي لابساً لحمي ممتلئاً بدمي لاهثاً بأفكاري مرتعشاً بخوفي ، وأخذ ينمو شيئاً فشيئاً حتى أثقلني ودار معي في انتساخات فكري وضميري وتلعثم واضطرب معي في بلبلتي العقلية والقلبية ، وحينما لم أعد قادراً على حله بين جوانحي ألقيت به على أرض القصيدة وجمعت بهذه القطع المتناثرة والرقاع الممزقة من وثائق مغامرته هذه ، فاذا نظرت — كقارىء — الى فقرات هذه القصيدة وأردت أن أتناولها بنظرة شبه كلية فانني أجد الفقرة الاولى

مفاجئنا بلمسات سريعة تكشف لنا هذا الابريق الكوني ، الخرافي ، المتحدث الينا من العالم السفلي بكل رشاقة وانتظار ، تقدمه لنا ممتلئاً بمائه الغريب الممزوج بأعنف مفاجأة..

الموت ، وبلمسات سريعة تقدم لنا الصورة المقابلة للفارس .. الانسان الأبدي الذي ينتصر دائماً لينهزم دائماً . وفي لحظة اللقاء بين الصورتين تحدث المفاجأة .. بلا انفعال .. بل بطفاوة خفيفة من سخرية مأساوية وشبه من تشف ولامبالاة . . هذا هو المدخل لمغامرة الابريق وكلمته الأولى . وكلما مضى في حديثه . ظهرت لنا التلوينات والتفريعات الموحدة والمتقابلة ، المتقاطعة والمعزولة ،هذه هي الإثارة الأولى والنبش الأليم للحس المأساوي المرتبط بكل الارتباط بمشكلة الموت ، وهو حس موروث له في التراث المحلي وفي تاريخنا العام — فردياً واسروياً واجتماعياً — روافد لاتحصى ، الموت الذي عشناه أطفالاً فقراء وشباناً مكبوتين مهزومين ومجتمعاً متخلفاً سادياً يطاردنا بالرعب والتجويع والشمس الجليدية . وارتباط الموت بالطفولة ، الحياة البريئة المتمثلة بعفاريت الصمت وبكل مظاهر التهديم اللا انساني ، ومكابدة الطيبين من أجل أن يذودوا عن الحياة الخلائق الحشرية الهامشية .. خلائق التآكل والشبق الهروبي والضحك المتهالك الأجوف ، ثم الهزيمة ولوامع الهجيرة في زلق الطين الواحد .. كلها عناصر تشكل الفقرة الرابعة .

مقولة أخرى تحدد إطار المغامرة الإبريقية ، فالوجود بين إمكانية التوالد — بكل مايحفها من رقص حي ومعرفة كيانية وحمى التواصل الأول — وبين الرعب وهواجس العتمة الهابطة من سماء الخارج ، بين العقم وتفتت الأصلاب وعشوائية البحث عن الجذور والأصول وحملة الميراث والتركة ، وبين الهرب الفجائي المأساوي من مسؤولية الخلق ، هــذا التمزيق يشف عن المغامرة الخائبة ... ان البغلة لا تلد ، وان الملح لايخضر بالعشب والشجر ، وان الخصوبة هي في الأساس خصوبة الداخل ، اما الخصوبة المعطاة والمبذولة من خارج فلا قيمة لها . ان السائل لايعطي ، والشحاذة لا ترضع ، إننا لانكون بارتداء أثواب الآخرين واستعارة وجوههم وحناجرهم ، بل نكون بمكابدة الخلق مكابدة حميمية [الفقرتان ٢ ، ٣] لقد كانت مغامرات الوصول والعودة على البدء ، والمرور من ثقب العالم والدوران في طاحونة القصة الأبدية ، والرغبة في ارتداء الأدوار الانسانية مكابدة للماضي واستيلاداً للحاضر وتشوفاً للمستقبل ، كان تشوف الابريق لتمثيل المشاهد التي تقمصها الأم — مع ملاحظة أنه يقف الآن على أعتاب الخلق جنيناً في رحم الأم — كان كل ذلك مجرد إسقاط لإحساس فادح أعانيه ، ورسماً لملامح طريق اليأس الذي أتخبط فيه ، وصورة من انشقاقاتي وهربي من الحريق العقلي الذي يأكلني [الفقرة الخامسة] .

في هذه الدوامة التي دارت فيها ومنها القصيدة، وفي العالم الذي فقد صمته كل سر ، وفي فجيعة الميلاد الذي يأتي قبل او بعد أوانه ، وفي الريح التي تردد أغنية واحـــدة قتلتني رتابتها .. أسأل : ماالسر في أنني قد وهبت سمعا مادامت قيثارة الأرض وحيدة الوتر وحيدة الصوت وحيدة المعزوفة ؟! انني لاأملك الا محاولة المغامرة ، أن أقـــذف نفسي فوق عجلة الليل والنهار وحصان البرق وسفن الظن والتخليط ، لاأملك إلا ان اغرس قدمي في طينة المجهول (الفقرة السادسة) المجهول الذي غرست قدمي فيه ذات ليلة صيفية مقمرة ، وقدمت لكم تقريرا اول ، كروكيا ومبسطا ، بعنوان « مذكرات إبريق » .

وتبقى القصيدة بعد ذلك بمعزل عن هذه الثرثرة التي قدمتها كقارىء ، وحيـــدة ومنفصلة ، هاربة ومعتصمة بالصمت .



الفارس الضائع

لسليمان العيسى

— ٢ —

« بيت صغير في شمال المدينة .. فيه ثلاث او أربع حجرات تنفتح على بهو أنيق . أثاث فاخر قديم منتثر هنا وهناك ، في شيء من الفوضى .

مصابيح مطعّمة بالفضة والذهب تملأ جنبات البهو . آلات موسيقى وطرب من شتى الالوان . ابو محجن منطرح على اريكة لينة يتعتعه السكر . تجلس الى جواره امرأة في زهاء الاربعين ، تحترف اللهو والغناء . في ابتسامتها الحزينة اطلال ماض خصب عنيف ، الليل والسكون يلفان كل شيء . »

المرأة : « بعد لحظات من الصمت »

وهكذا يا أبا الأوتار تتركنا [1]

ويَصمتُ النايُ بعدِ اليوم والوترُ

ابو محجن : « مشيراً الى محيّاها الأسمر »

لاتوقظي الجمَرات السمرَ في كبدي

لاتُوقظيني .. سأمضي ..

إِنه القَدرُ

صُبيِّ على رَهَقي لحنَ الوداعِ

المرأة : « بأسى »

مضَى

ياشاعرَ البيدِ ..

نامَ الموسِمُ العَطِرُ

كانَ المسَاءُ فراشاتٍ واجنحَة

والليلُ أشربُ عنقُودي وأَعتَصِرُ [2]

منْ حولنا السُّورُ يعلوُ في حديقته

شيءٌ جديدٌ ، ويَقظانُ اسمُهُ عُمرُ

هذي دنُوقي ، وهذا مِزهَري [3] جمَدَتْ

فيه العصافيرُ ، واستَعفىَ به الزهرُ

---

(١) كان الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر بنفي أبي محجن الى جزيرة حضوضى .

(٢) في الأغاني : أن أشراف قريش كانوا قبل الاسلام يجتمعون في دار هذه المرأة للسماع حتى تغَصّ بهم حجراتها .. وتزدحم ساحاتها .

(٣) المزهر : العود .

القيتُ للقبرِ ألحاني ، فما عبثت
بالعودِ كفٌ ، ولا غنّى هنا سَمَرُ

وحدي .. أجرُّ الطيوفَ البيضَ صامتةً
– كما ترى – ورفيقي الصامتُ الضَجِرُ

الجاهليةُ .. أحلامٌ مُعطّرةٌ
ماتت ، وأُطفىءَ في قنديلي السّهَرُ

كنا ، أبا محجن ، كانت قصائدُنا
خضراً ، يغودُ في أضلاعها الشررُ

أخشى أُداعبُ عودي ..
حولَ نزوتنا
سورٌ جديدٌ ..
ويقظانٌ اسمهُ : عُمر

ابو محجن : إليَّ ، ويحك ، لحناً قبل فُرقتنا
لاتجزعي !

« يضحك »

لنْ يُفيقَ الليلةَ القمرُ

مازالَ صوتُك ملءَ الليلِ ، ما شبعتْ
منه الرمالُ ، ولما ينضبِ المطرُ

إليَّ لحناً تمزّقنا به زمناً

المرأة : « لنفسها »

ماذا أُنادي من الماضي ؟

وما أَذرُ ؟

ابومحجن : اليَّ « بالوتر المجنون » أعشقهُ

هذا الشريدُ ، الطريدُ ، الظامىء ، الأشِرُ

هذا « الشهابُ » الذي ماكاد يلسعُنا

بالضوء حتى توارى .. لمّهُ سَفَرُ

اليَّ باللّحنِ

المرأة : « تأخذ العود »

خذهُ صافياً عطراً

ياشاعر البيدِ ..

خُذْهُ

عمرُنا خبر ..

تنطلق في غناء مسكر من شعر طرفة بن العبد الذي قصده أبومحجن بالوتر المجنون ، والشهاب ، تصل الى هذه الأبيات الرائعة من معلقة طرفة .. »

« انا الرجل الضّرب [1] الذي تعرفونه

خشاشٌ [2] كرأس الحيةِ المتوقدِ

كريم .. يروي نفسه في حياته

ستعلم – إن متناغداً – أيُّنا الصدي [3] !

(١) الرجل الضرب : الخفيف اللحم ، النشيط .

(٢) خشاش : دخال في الخاطر .

(٣) الصدي : العطشان . والصّدى : أشد العطش .

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ
وما تنقصِ الأيامُ والدهرُ ينفدِ »

ابومحجن : « يترنح طرباً »

العيش كنز .. فاشربي
— صدق الشهاب — وناوليني
العيش كنز .. صادها
هذا الشريد .؟ فأسمعيني
صبّيه في رهقي ..
أعيديه علي ..
تجدديني ..
تلقي بوحشتي السنا
تهدي الشراع الى سفيني
لاتصمتي .. ردي الحزين
العبقري الى الحزين
نايان نحن .. تمزقا
لتكون ملحمة الجنون

المرأة : « تواصل الغناء من شعر طرفة (١) »

« نداماي بيضٌ كالنجوم ، وقينةٌ(٢)

---

(١) طرفة بن العبد البكري : من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية . مات مقتولاً وهو في سن العشرين . « شرح المعلقات السبع للزوزني »

(٢) القينة : المغنية .

تروحُ علينـــا بينَ بُرْدٍ ومُجسَدِ[1]
متى تأتني أصبَحْكَ[2] كأساً رويّةً
وانْ كنتَ عنها ذا غنىً فاغْنَ وازْدَدِ
ستبدي لكَ الأيام ما كنتَ جاهــلاً
ويأتيكَ بالأخبــارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ »

ابو محجن : « في شرود »

أشاح كالمنامْ
عن هذه الدنيا . .
وولّى ومضَى حسامْ
وأبصر الأيامْ
أبصرها نهراً من الظلامْ
صحراء من قتامْ
لاهدأة – ثمّ – ولا سلام

حتى ذوي القربى[3] . . يدٌ راعفةٌ ، وناب
يُمعن في التنكيل ، في العذاب
ياللغلام !
أبصر في العشرين مالا تُبصرُ العيونْ
الوترُ الفذُّ الذي قطّعه الجنونْ

(١) المجسد : الثوب الذي يلي الجسد .
(٢) أصبحك : أسقيك الخمر عند الصباح
(٣) اشارة الى بيت طرفة المعروف :
« وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند »

أدركَ في العشرين مالا تُدرِكُ السنون

« يصحو من شروده .. يخاطب المغنية »

هاتِي .. فما أظنُني أعودْ

هاتِي الثُمَالتينْ ..

مِن كأسٍ ، ومِن وترْ

وليَلعقِ السُحَرْ

حافرَ مُهْري .. عندما اعودْ

الليلُ .. هذا الليلُ لِي وحدي .. وللظما

فأنشدِي ، يا حلوة النبرةِ والّلمى

يا كنزيَ الماضي ..

« يتعثر لسانه بالكلمات .. »

زِيديني .. بلا حدودْ

غنِي لِيَ الليلةَ

غنّيِنِي

بلا قيُودْ ..

غنّي .. الى الصباحِ

ماأظُنُنِي

أعوُ..دْ ..

فاجعة الصقيع

قصة للكاتب البرازيلي مونتيرو لوباتو

ترجمها عن البرتغالية نخلة ورد

— سان باولو



صبيحة ضباب من شهر حزيران .

الزرع يشله البرد . على الاوراق كلها ماسات ندية يعكس الضياء وهجها الفضي . يمر بنا عمال المزارع منكمشين يتدافع من افواههم اللهاث . برد ، برد حقيقي من هذا الذي يميت الطيور الصغيرة وتسري له في العظام قشعريرة .

خرجنا في بكرة الصبح نزور مزارع البن ، وقفنا في اعلى نقطة من الفازندا(١) وأحنى الماجور (٢) ركبته فوق جذع شجرة مقطوعة ، وأدار ظهره لبحر من اشجار البن تنبسط امامي . وقال ، ترافقه حركة واسعة من يده :

ـ كل هذا من صنعي . انظر !

ونظرت ، نظرت فملأ صدري الزهو ، ادركت باعث كبره . وشعرت نحو مواطني باحترام واجلال . انه لقوة عارمة خلاقة هذا الفاتح البطل ، مذلل المجاهل ، من الجبابرة الافذاذ الذين يشرفون الجنس البشري .

ـ عندما تملكت هـــذه الارض كانت غابة بكرا . قطعت واقتلعت وحرقت . فتحت طرقاً ، طمرت ودياناً ، اقمت اسيجة ، بنيت الجسور ، عمرت المساكن ، أمّنت المراعي ، وزرعت البن . صنعت كل شيء . اشتغلت كعبد مملوك سنوات اربعاً ، وقد انتصرت . هاك المزرعة . انظر .

---

(١) الفازندا في البرازيل (المزرعة) شيء ضخم له حرمته ككل القياسات في هذه القارة البرازيلية التي تبلغ مساحتها ١٧ مرة مساحة فرنسا مثلاً . في بعض الفازندات سكة حديد خاصة . وتحوي المزرعة عادة غابات ومراع لقطعان من الخيـــل والخنازير والبقر . وفي بعضها ملايين من اشجار البن . « المترجم »

(٢) الالقـــاب العسكرية شائعة بين المدنيين في البرازيل منـذ ثورة ١٩٣٢ الاهلية وقد تطوع فيها ابناء الريف دفاعاً عن الدستور . ان لقب « كابتاون » مثلاً يعطى لمن يملك مساحة معينة من الاراضي ، ثم يتلوه ـ صعداً ـ لقب « كوروئيل » وماجور .. واستعمال هذه الالقاب في الحديث يخلق في الغالب جواً من الانس والدعابة المستحبة . « المترجم »

وامعنت النظر ، رأيت بحراً من اشجار البن يتاوج على سطح الارض تنتظمه صفوف ممتدة في انسجام وتساوق مطلق . جيش على قدم الاستعداد للحرب . الا انه جيش بكر ، لم يدخل معركة . وموعده السنة القادمة . اما هذه الثمار المنتثرة في بعض الغصون فلا تعدو مناوشات قطاف .

ولمحت في عيني الماجور ، القائد الاعلى لهـــذا الجيش الاخضر الذي خلقه ونظمه وهيأه لمعركة القطاف الكبرى التي تحرر كاهله في اعباء الفتح وديون الإعداد ، لمحت معنى العزة والكبر ، كبر الوالد امام ابناء له لا تكذب سيماؤهم نبالة أصلهم وكرم محتدهم .

ان « الفازنديرو » في ولاية سان باولو لشيء جدي في العالم . كل مزرعة ملحمة انتصار على الطبيعة المجهولة وعناصرها الهوج ، تنبري ، متحالفة ، للدفاع عن البكارة المهانة . ان جهده الجبار الصامت لم يتغنّ به الشعراء . ولكن الكثير من ملاحم الشعر ينهار امام عظمة فتوحه . ان تخلق مزرعة ريانة تقتطعها من قلب الغابة ، ان تتغلب على الطبيعة فتغير نظامها وتفرض عليها ارادتنا ، فتسخر قواها وفق مخطط موضوع، وتروض جاهلية الغاب الخبيث المخرّب ومعها عقلية رجال الفوضى والاعتباط فتحطم قسوة العادات والقوى الملعونة التي تبعث على التخاذل والتثور : انها لبطولة هائلة . حرب بلا نهاية ، ولاتتخللها هدنة ، ولا لحظة من راحة . والاسوأ : انها حرب لاضمانة فيها لنصر. فلقد يظفر بهذا النصر ، في حالات كثيرة ، دائن في المدينة . المرابي الذي أسلف رأس المال بشروط باهظة ، وراح يتربع فوق صك الرهينة ، يتحين الفرصة لينقض على فريسته كالصقر .

ــ حقاً أيها الماجور . ان هذا ليمـــلأ الصدر اعتزازاً واني لأدرك الآن ، امام هذا المشهد ، حقارة هؤلاء الطفيليين الذين يستثمرون ، خارج المزرعة ، جهد الزراع .

ــ اصبت . لقد فعلت كل شيء . الا ان الحصة الأوفى من الربح لاتصيبني . لي شريك نهم يلتهم وحده ربع المحصول : الحكومة . ثم السكة الحديدية . وحيتان التجارة .. هذه القافلة من الوسطاء التي يبدأ طرفها من سانتوس[١]

(١) اكبر مرفأ برازيلي . ويشحن منه سنويا نحو عشرين مليون كيس من البن .

وينتهي عند محمص البن في نيويورك . ولكن هذا لايهم ! فالبن يعطي الجميع.

وأكمل ضاحكا :

— يعطي حتى الغبي الحيوان ، صاحب المزرعة ..

ولامست أيدينا ، مداعبة ، جباه الحيوانات وهي ترعى . ونواظرنا معلقة أبداً بأشجار البن في صفوفها المنظمة وأجسامها الممتلئة الرشيقة ترافق انثناءات الارض وتتحرك في تموجات خضراء تنصهر في كتلة واحدة متماثلة . لوحة فنية يرافق فيها الانسان عمل الطبيعة ويفرض عليها نظاما ونغما .

— على اني لم اكسب المعركة بعد . عقدت ديونا . المزرعة مرهونة عند يهود فرنسيين . فان لم تسعفني مواسم خصبة غلبتني الاقدار . ان الطبيعة مذللة ، تضحي ، ولكن الدائن جزار دائماً .

ورأينا ، هنا وهناك ، بعضاً من أشجار الغاب اغضت عنها معاول الفتح ، ضائعة في الموج الاخضر ، تطل فوق سوقها المتقلصة ألماً من لهب الحريق .

يا للاشجار المسكينة ! أي قدر حزين حرمها نعمة الحياة ، جماعة ، في الغاب ، وجعلها جزراً منعزلة في هذا الخضم ؟ إنها لأشبه بملكات سجينات جيء بهن زينة لعربة النصر . يتيمات الغابة البكر ! لشد ما يبكين حياة الأمس . انظروا الى هذه الاشجار . انها لاتملك رشاقة مواليد السهول المنبسطة ولاجمال التيجان الرحبة . انها لتبدو فظة منفرة بهذا التشابك في غصونها الكثيفة تتداخل في غير نظام . وقد تهيأت بها للحياة المزحومة في الغاب . إن هذا التناقض بين رهافة قدها وكثافة تاجها يثير الضحك . انها لتشبه نسوة عاريات فوجئن امام ملأ من الناس ، فجمدهن الحياء : أي جزء من اجسامهن يسترن ؟ ان شدة الريح تشقي هذه الاشجار المستوحشة ويؤذي عيونها فرط النور ، إذ اعتادت حياة البقاع المظلمة الضيقة تأنس فيها الى تمتمات وهمس .. وهي شبه مسحورة ، تسترسل في اغفاءة وجد سعيد .

ألا رفقاً ، أصحاب المزارع ، يا قساة القلب ، لاتتركوا هذه الأشجار في حقول البن . اقطعوها كلها . فليس أقسى من أن تُقسر شجرة على الظهور فظة بين الناس .

وقال الماجور :

— تلك السنديانة هناك بقيت علامة لبدء معركة الفتح . انها تدعى

سنديانة « لوجيرو » وهو باهي[1] شجاع مات على اقدامهـا في حادثة خصام .

وتراءت لي هذه الأرجاء صفحات من كتاب مفتوح يقرأ فيه الماجور ذكريات أمسه .

— كل شيء هنا يثير في صدرك ذكريات عزيزة أيها الماجور .

— أجل . كل شيء يثير حنيني وشجني . كل جذع شجرة . كل مقلع . كل طريق ومنعطف له قصة اعرفها : فاجعة حيناً ، ومضحكة حيناً ولكنهـا رائعة دائماً . هناك . . أترى ذلك الجـذع ، لقد اطاحت بشجرته زوبعة من زوابع شباط . ولجأت وجماعتي إلى خيمة من البردي ، ننتظر نهاية الطوفان . وانفجرت الصاعقة فوق رؤوسنا تقريباً . اذكر ان المرحوم « زي كيفارا » قال لي وعلى وجهه علائم الذعر : «انها نهاية العالم ياسيدي .. » وهكذا كانت تبدو . . . ولكنها كانت النهـاية فقط لشجرة جوز هندي بقي منها هذا الجذع المسكين . اذ رأيناها بعد ان انقطع المطر محطمة ، سلخت منها الغصون ، وكسر الساق .

وكانت الارض امامنا تنحدر في شفوق حمراء ظاهرة تنتهي عند الساقية . وأشار الينا الماجور :

— كانت تنورة امرأة مسرح الجريمة الاولى في المزرعة ! ففي المدن والريف ، قطرات من دموع او تنورة امرأة ، سبب الجرائم كلها . وتشابك الغريمان بالمدى . كانا عملاقين من ابنـاء « سيارا »وسقط احدهما في المكان نفسه . وصار الثاني الى السجن . والتنورة تستمتع الآن بمباهج الحياة مع ثالث . . القصة الدائمة .

ووصلنا على هذا بين إستثارة وذكرى ، بيت المزرعة حيث ينتظرنا طعـام

(١) نسبة الى ولاية باهيا .

الغداء . وتناولنا هذه الوجبة . ولا ادري ، ان كان لقابلية فيّ بعثتها نزهة الصباح ام لمزايا إستثنائية في الطباخة ، فقد ظل هذا الغداء محفوراً في ذاكرتي الى الأبد . لست شاعراً ، ولكني اقسم ، إن أضاء رأسي ابولون بشعلة الوحي الشعري ، ان تكون اول قصيدة انظمها ، في التغني بسحر القديد المشوي وثريد « الفوبا » الاحمر ، من الوان تلك المائدة الفريدة . والحنين الى وجبة مثلها سيرافقني حتى القبر . .

ورحت امشى في الساحة بينا أخذ المأجور يقرأ بريده،فتحدثت الىناظر المزرعة. عرفت منه خبر الرخينة التي تثقل كاهل الفازيندا ، واحتمال انتقالها الى ايدٍ غريبة عن المأجور تقطف ثمرة جهده الشاق . واوضح الرجل :

ـ ولكن هذا في حالة نحس شديد ، عاصفة بَرَد او صقيع ، من هذه التي لم تعد تأتي لحسن الحظ .

ـ لم تعد تأتي ، لماذا ؟

ـ لأن آخر صقيع كبير حدث سنة ١٨٩٥ . وتغير الحال بعد ذلك ، فقد شاخ العالم ، وهو كالناس يتغير مع الزمن . الصقيع مثلاً انتهى أمره . قديماً لم يكن من يزرع حيث نزرع اليوم ، كانوا يزرعون المرتفعات فقط من منتصف الهضبة فما فوق . أما الآن فلا . أترى تلك الحصة من البن في قلب المزرعة ؟ ارضها واطية ، مع ذلك إن اصابها الصقيع فهو دائماً شيء بسيط لايؤبه له . حرق خفيف . فان تيسر للمعلم موسم او موسمان صالحان، دفع دينه واضحى اكبر مزارع في المنطقة .

ـ أرجو هذا من صميمي ، انه ليستحقه .

وغادرته ، ورحت اتنزه هنا وهناك . زرت حديقة الفواكه وحظيرة الخنازير فرأيت صغارها تلعب ، ثم صعدت صوب البيت وتوقفت امام فتى اسود يدهن « اباجور » النوافذ بالوجه الاخير من الطلاء ، وتساءلت في سري ، ترى لماذا يصبغون النوافذ باللون الاخضر دائما ؟ ولم استطع حل اللغز ، فرأيت ان الجأ الى الاسود . واجابني لتوه ،بلا ارتباك، وهو يبتسم :

ـ النوافذ يجب ان تكون خضراء ، كما ان السماء زرقاء ، هذا من طبيعتها .

وقبلت النظرية ، ودخلت البيت .

ودار الحديث على المائدة حول الصقيع . قال الماجور :

ـ الخطر يهدد شهرنا الحالي . شهر الاحزان . والرجل ، مهما كان صلبا يرتجف رعبا في هذه الحقبة . ان الصقيع كابوس دائم . لحسن الحظ لم يعد الصقيع ما كانه في الماضي . صار يسمح لنا ان نستفيد من اراض كثيرة واطئة لم يكن يزرع فيها الاولون حتى ولا شجرة واحدة طلبا للظل . مع هذا فمن تفاءل واقتحم ، مثلي ، يظل وفي اذنه حكة دائمة .. يأتي ؟ لايأتي ؟ الله اعلم !..

وراحت انظاره خلال النافذة تجوس الافق وتتفحص بدقة جوانب السماء :

ـ يبدو ، اليوم مثلا ، انها تنوي .. هذا البرد القارس والهواء الراكد .

وظل يفكر حينا ، ثم قال ، وكأنه يريد ان يزيح عن رأسه هذه الغيوم القاتمة :

ـ التفكير في هذا لايجدي ، ان ماسيكون قد سطر في كتاب القدر .

واعترضت :

ـ دعك من هذه الوساوس ..

وأجاب مبتسماً :

ـ المشكل ان المسيح لم يكن خبيرا في الزراعة .

وجاء الصقيع !

ولم يكن بالصقيع السهل الرفيق الذي عودهم زيارته كل سنة . كان كارثة ، صقيعا دوريا تحمله موجات من الجنوب . كانت الشمس قد ارسلت ، بعد الظهر ، انوارا شاحبة لاحياة فيها ، أشعة بلا حرارة لشمس قطبية ترتعش بردا . وسقط الصقيع في الليل ، بلا مقدمات .

وكنت قد اويت الى فراشي في ساعة مبكرة وفكاي يصطكان بردا رغم تدثري

بغطائين . وظللت مقلصاً جسمي امدا طويلا قبل ان اغفو ، وايقظني جرس المزرعة في الفجر . شعرت من جديد ببرد جارح وألم في قدمي فنهضت لتمرين عنيف وخرجت الى الساحة .

كان صقيع الليل يحز في الاجسام ، ولكن اي مشهد !

البياض يشمل المرئيات كلها . فالارض، الاشجار ، المراعي ، لحاف ابيض متصل، والاشجار الجامدة من البرد تبدو اشبه باشباح غطست في احواض من الكلس . ياروعة اللوحة !

إن ما ألفناه من طبيعة أرضنا ومناظرها الثابتة لاتتغير مع الفصول ، يسحرنا منها هذا الانقلاب المفاجيء ترتدي فيه على حين غرة وشاح العروس البهي ، لعرس الموت هنا .

ورحت اتيه زمنا في جوانب هذه الدنيا العجيبة وقد اخذني جمالها . ولكن اللوحة السحرية لم تعمر طويلا . أخذت تذوب وتتلاشى، كالحلم تحت اسفنجة الشمس الذهبية، اذراحت أشعتها تمس المرتفعات والمشارف الشمالية لتبعث الخضرة من جديد. وها هي الجزر الخضر المغمورة تمتد وتتسع اذ ينحسر عنها الجمد الابيض ، إلا المنخفضات والمشارف الشمالية والاماكن المظللة بالشجر فقد ظل فيها البياض ليبرز وجه التضاد بين برودة ودفء الجزر المنبثقة . وبدا لي ان الحياة قد تغلبت بعد أن اخذت بيدها الشمس المنعشة . ولكن تدخل ابولون في مركبته النارية تستعجل الدفء والحركة في اوحال الاوراق الطرية ، حول صقيع تلك السنة الى فاجعة رهيبة ، كانت أفدح ماعرفته ولاية سان باولو من ويلات الصقيع ، وابعدها في التخريب أثراً . فعلائم البعث والحياة في الخضرة كانت ظاهرية . لقد مات الزرع . وانتشر على المنطقة كلها ، بعد ايام ، ثوب الحداد يمتزج فيه السواد بالحمرة القاتمة المحروقة .

عندما عدت ، والشمس قد ارتفعت في الأفق ، وجدت البيت حزيناً غارقاً في لجة من الأسى والذعر ، ذعر الكوارث الكبرى . وعندها فقط ادركت ان المشهد الذي تطلعت اليه حتى ذلك الحين خلال عدسة الجمال ، كان له وجه خلفي فاجع : خراب المزارع البطل . ورحت اتحرى عنه قلقاً ، كان قد اختفى .

قالت لي امرأته أنه لم ينم الليل. وما كاد الفجر ينبثق حتى هب الى النافذة . وظل هناك بلا حراك يتأمل السماء من خلال البلور. ثم خرج دون ان يطلب القهوة ، على عادته. لعله راح يفحص الزرع . يجب ان يكون هذا. ولكنه لما تأخر عن العودة – الحادية عشرة

ولا خبر – بدأ القلق يساور ذويه . نصف النهار . الواحدة بعد الظهر . الثانية . الثالثة ..
وبعثت امرأته بناظر المزرعة يتحرى عنه فعاد في المساء ، لاشيء .

– فتشت عنه كثيراً . لم اجد اثراً . اني اتوجس شراً .. سأوزع من يتحرى عنه في كل مكان .

ولم تكن دونا آنّا ، وبداها متشابكتان ، لتقول الا شيئاً واحداً : **رب ، أي مصير ينتظرنا ! قد يجن كنكس ..**

ورحت اتحرى عنه انا ايضاً برفقة الناظر . فتشنا الطرق ، نخرينا الخابيء . جسنا المغاور كلها ، بلا طائل .

وجاء المساء ، ثم هبط الليل . اظلم ليلة في حياتي ، ليلة حزن وشوم . ولم أنم . كان النوم مستحيلا في ذلك الجو من الألم يمزقه البكاء والعويل .

في فترة ما عوت الكلاب في الساحة . ثم ساد السكون . وطلع الصبح مجلداً كالأمس . وبدا كل شيء صقيعاً ، من جديد . واشرقت الشمس فتكور مشهد التشويه ، تبخر البياض ولف الاخضر الميت المزروعات كلها بجديل الحزن . في البيت تكرر صخب الامس ، الرواح والمجيء ، وهذا الـ « من يعلم ؟ » : التحريات ذاتها .

ووصل المزرعة احدهم ، بعد الظهر الساعة الثالثة ، وهو يلهث تعباً ، وصرخ من بعيد :

– لقيته . انه قرب الساقية .

وسأله الناظر :

– حي ؟

– حي ، نعم . ولكن ...

وظهرت دونا آنّا على الباب وأخذت تبكي وتبتسم للخبر :

– مبارك أيها الرب !

واتجهنا صوب الساقية فلمحنا على بعد مئة متر شخصاً يعالج اشجار البن المحروقة ودلونا فتبينا الماجور نفسه . ولكن في أية حال ! ثيابه ممزقة ، شعره ملطخ بالوحل . وانظاره تائهة مبهورة . وكان في يده علبة طلاء وفرشاة . فرشاة الطلاء التي كان يدهن بها الفتى الاسود الاباجور . وعرفنا سبب عواء الكلاب في الليل .

لم يشعر الماجور بوجودنا . ولم ينقطع عن عمله . استمر يطلي ، بلون الاباجور الاخضر الزمردي ، الاوراق المحروقة في اشجار البن الميتة ..

ووقفت دونا آنّا مذهولة .

ثم ادركت الفاجعة فأخذت تبكي بكاء متشنجاً مراً .

الفنون



الكتاب والموضوعات

- من اعلام الموسيقى في العالم
بيلا بارتوك
بقلم سمير عبده

- الفنان الالماني بيتر بول روبنز
للناقد الامريكي جورج كنت
ترجمه عن الفرنسية صبحي زخور

من أعلام الموسيقى في العالم :

بيلا بارتوك

Bela Barto'ks

بقلم سمير عبده

اذا قارنا بين فكرة شاعر انكليزي : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، وبين فكرة التقاء الشرق بالغرب التي كانت تجري كالدماء في شعاب الاعمال والروائع التي انتجتها قريحة الفنان المجري « بيلا بارتوك » ، لوجدنا مؤلفات هذا العبقري من اعظم الثار التي انتجتها الثقافة البشرية في القرن العشرين ، بينما عتقت مؤلفات الشاعر وكادت ان تنسى .

ولم تكن الفكرة في حد ذاتها بالنسبة لبارتوك ومعاصريه مجرد رأي عارض قفز فجأة من حيث لايعلم أحد ، بل لقد كان الفنان



بيلا بارتوك

والشاعر والموسيقي يجدون أنفسهم اينما ساروا يصطدمون بها من وقت لآخر مضطربين . وفي تلك الأيام كان الرأي العام المجري قد تعود على ان ينظر الى المجر بوصفها (المخفر الامامي للغرب) أو (القنطرة التي تربط الغرب بالشرق) الا انه عندما حان الوقت لزيادة التحقق من صدق ذلك القول والمسئوليات التي يلزم المجريين بها ، وجد المفكرون والشعراء والفنانون المجريون انفسهم يواجهون حاجزاً عظيماً من التعصب الذي تمتـــد جذوره في اعماق ذلك الرأي العام نفسه . وكان لفظ (الغرب) مازال في حاجة الى تعريف واضح ، بقدر ما كان (الشرق) محتاجاً الى نفس الشيء ، فلا أحد يدري ان كان الشيء المعني (غربياً) بصفة مؤكدة ، ام انه ربما كان (شرقياً) . . !

وكان من اصعب العمليات وابطئها ان يقنع الرأي العام بأن (الغرب) هو شيء يبعد كثيراً عن مجرد (مدينة فيينا) او (الثقافة الالمانية) . ومن ثم فقد جاءت بطيئة ومتعسرة وعلى مراحل ، عملية تطلع المجريين الى مقاسمة الشعوب المجاورة مصائرها . وقد حدث نفس التفكير للفنان الكبير فرانز ليست ، السابق لبارتوك مباشرة ، عندما عاد الى المجر من باريس في اوائل العقد الخامس من القرن الماضي ، وربما كان تفكيره هذا هو السبب في سعيه الى البحث عن أفق ثقافي أوربي اوسع ، حتى انه كان يولي وجهه بدرجات متساوية من الاهتمام نحو الموسيقى الشعبية المجرية والرومانية والبولندية والتركية ، ولعله كان السبب ايضاً في انبرهن على براعته كدارس للموسيقى الغجرية في المجر ورومانيا على السواء .

وقد مرت فترة من الزمن كان فيها بارتوك — كما كان الحال مع فرانز ليست ايضاً — طالبـــاً صغيراً يجمع الموسيقى الشعبية من كل مكان ، وينظر الى الكنوز المخبوءة لاغاني الشعب ، من مجرية ورومانية وسلوفاكية ، بمجرد مادة خام

لمؤلفات موسيقية عظيمة ، ولكن في عام ١٩١٢ (عندما بدأ مراسلاته مع احد اصدقائه الرومانيين حول موضوع اشعار اندريه آدي التي ينادي ذلك الشاعر فيها بضرورة وحدة شعوب حوض الكاربات) اصبحت الموسيقى الشعبيـــة لشرق اوروبا بالنسبة له تعني اكثر من مجرد شيء جاز اجمـــابه كفنـــان ومؤلف موسيقي ، واكثر من مجرد مادة خام يرغب في صقلهـــا وتقديمها على الآلات الموسيقية الاوربية العصرية في قالب براق . فازدياد وعيه استطاع ان يتعرف في ظلمات التباين العظيم على ملامح الوحدة العظيمة ، وان يتحسس في الصعوبات مصادر القوة ، وان يجد في الهوة التي تفصل بين الشرق والغرب رابطة فكرية انسانية عالية القيمة ، لا انفصام لها ، وجد في الفرقة والجفوة القائمة بينهما بريقاً ساطعاً لاتحاد مرتقب واخاء عتيد .

ان التعريف الذي اوضح به بارتوك هذا المثل الاعلى كان بيناً وجلياً ، ساطع المعنى كشمس النهار ، وان كان من الصعب ترجمته ترجمة امينة ، فاستمع اليه بخطه بيده في رسالة ارسلها الى او كتافيان بيو عام ١٩٣١ يقول :

« إن المثل الاعلى الذي اترسمه ، هو الاخاء بين الامم .. اخاء يهزأ من جميع المعوقات والمشاحنات التي تفرض بينهما . هذا هو المثل الاعلى الذي اسعى الى تحقيقه ، طالما كان ذلك في مقـدوري ، سأدفعه الى الامـام نحو التحقيق .. بموسيقاي »..

هنا نرى انه لم يعد هناك (شرق وغرب) : لم يعـــد هناك الا شعوب واخاء ، (حرية العالم المقدسة) التي تغنى بها في قصائده شاندور بيتوفي ، الشاعر المجري الكبير . لقد كان الطريق الذي سار فيه شاندور بيتوفي، هو نفس الطريق الذي بسط ملء ذراعيـــه لبارتوك يناشده ان يكرس هو ايضاً عبقريته للعمل

الدائب لتحقيق هذا الهدف الذي لامناص منه ، تماماً كما حدث لسلفه العظيم قبل ثمانين عاماً منه ، واعني به شاعر الثورة ورائد الحرية شاندور بيتوفي .

ما كان اوعره من طريق بالنسبة لبارتوك ، ولعل وعورته تبدو اكثر صعوبة اذا ادركنا المعاني التي تدل عليها كلمات (الامم، الشعب ، المدينة) من وجهة نظره الذاتية في عالمه الذي عاش فيه .

ان نظرة بارتوك الى العالم - كما يبدو لنا واضحاً الآن - كانت مزيجاً من رومانسية روسو والواقعية العلمية للقرن العشرين،مع حبه الذي بلغ حد التعصب للحقيقة . لقد كان « رجل الشعب » في نظر هذا الموسيقي ، هو اكثر الناس بساطة واصالة ، اكثر الرجال الذين تنطوي نفوسهم على صفحات من يسمى بالرجل الحقيقي . انه اكثر الرجال (حقيقة) لا لأنه اقربهم الى مرحلة تاريخية معينة ، بل انه اقربهم الى (الطبيعة) ، الى (الحقيقة) ، الى القانون الكوني .

ودعنا نلاحظ هنا ان بارتوك - كما تدل عليه رسائله - قد مر في مطلع الربيع الثالث من حياته بمرحلة تربية دينية صارمة بدأت منذ طفولته واستمرت في يفاعته سنوات وسنوات ، حتى صادفت حياته الفكرية (الالحاد) و (المادية) . والواقع انه لم يصبح هذا ولا ذاك ، ولكن مجاد لانه الشخصية هي التي ادت به الى اعتناق (وحدة الوجود) وهو المذهب القائل بوحدة الكون والله . ولعل في تلك العبارة التي بدأ بها احدى رسائله التي كتبها عام ١٩٠٧ تاريخاً للوقت الذي بدأ فيه يعلن مذهبه ذاك ، اذ كتب يقول (باسم الطبيعة والفن والعلم ..) .

وربما لم يلحظ بارتوك نفسه كيف كان قلبه يخفق كثيراً في تجاوب مع افكار معاصريه من ممثلي الطبقة المثقفة وقتئذ ، وربما ايضاً لم يكن قد القى بالاً لما كان ينتابه من تغيير وما يطرأ على عالمه الذي يحيط به من تحول ، على مر السنين .

اذ كان يمور بالاعجاب بالطبيعة وقد غمره مرح كمرح الاطفال ، واتسعت عيناه في براءة عندما كان يتحدث عنها ، وهو الشيء الذي لازمه حتى النهاية . ومنذ ان بدأ يعمل تحت تأثير فكرة البحث عن الروابط ، وعن مؤازرة المجموع ، وعن جذور او حتى تربة تصلح لانبات فنه ، وعن القرب من الطبيعة ، وجد كل هذا في الغابات ، وفي سهول الاراضي المنخفضة ، في اكواخ سكان الغابات وفي المساكن القائمة على الشاطىء . ان الطبيعة البدائية مازال منها قدر كبير في حياة الرجل البدائي في الريف ، وفي حياة الرجل البدائي اينما وجد . كان مثل هذا العالم يبدو لعيني المؤلف الموسيقي الكبير لا لمجرد مشاعره العاطفية التواقة الى الانطلاق الناتجة عن احساساته المرهفة التي تهزه بوقع موسيقي رتيب فحسب ، بل ان هذا العالم كان يبدو ايضاً لدوافع حقيقة واقعية .

الم يكن ذلك في العقدين الثالث والرابع من القرن الحالي ، وهي فترة خداع بارتوك لنفسه ..؟ الم يكن هذا التعبير عن العالم يجري على شفتي ذلك الفنان الذي كان طفلا مقدسا من اطفال القرن العشرين وعدواً من عدو المدينة ، والذي عاش حياة ترتعد بالخوف ، حياة الرجل العصري الذي يعيش بأعصابه والذي كان – فوق كل هذا – يعيش حياة مكافح يقاتل في سبيل الجديد ، بل في سبيل مابعد الجديد ، حياة نصير من انصار (ماسوف يكون) ؟

لم يساور الشك بارتوك حول مبادئه تلك ، ولاحول طبيعة حياته ، لأنه كان يحس دائماً بأن قطبين هائلين يتحدان في كيانه : القديم البالغ القدم ، والجديد الفائق الجدة .. الطبيعي البدائي ، والمتحضر العصري .. الشعب العبقرية الخلاقة .

لعل في هذا وحده مايفسر السبب في سعيه وانتقاله من مهجر الى مهجر ويبين لماذا انطلق الى مولدافيا عندما كان مهاجراً مستقراً في فرنسا ، ولماذا انتقل

من تجواله بين القرى المجرية في السهل الكبير الى برلين لؤلؤة الراين، ثم الى باريس المتاجحة، فلندن الباردة. لعل في هذا ايضاً مايفسر، لماذا انطلقت خبراته التي اكتسبها من واحات البدو العربية، ومن قرى تركيا تعبر عن نفسها من فوق خشبات مسارح الكونسيرت في عواصم اوروبا الغربية، نعم، لماذا كان المسرح الصيني يجتذبه وهو في مدن امريكا الصاخبة، واخيراً، لماذا عندما اوهنه المرض فرقد على فراشه خائراً في نيويورك، عاد الى مجموعاته القديمة من الموسيقى الرومانية الشعبية يستعيدها لكي ترد عليه روحه التي اخذت تتسلل من بين جنبيه.

الشرق والغرب.. عنصران كانا يمتزجان في حياته البطولية العجيبة كجزئين متكاملين في كل واحد، او كالانغام الموسيقية المتجانسة في سيمفونية خالدة للاوركسترا. وهنا بالذات يتضح السر في ان بارتوك كان دائماً يستعيد ذكريات تلك الايام التي كان يقضيها بين الفلاحين يجمع الاغاني الشعبية، بوصفها اسعد ايام حياته على الاطلاق. وقد كتب ذات مرة يقول:

«.. ان الاوقات التي قضيتها في تلك الاعمال، كانت اجمل اوقات حياتي.. ولست افرط فيها ولواعطيت الدنيا بأسرها.. لقد كانت اجمل شيء في حياتي، بكل مايحمل هذه الصفة من نبل، لاني كنت وقتئذ في مركز اتاح لي ان اشهد بطريقة مباشرة التعبير الفني الذاتي الذي يعبر به عن نفسه نسيج اجتماعي مازال متكاملا، رغم انه كان في طريقه الى التبور والضياع، وقد كنت اشهد هذه العملية التي اعاصر حدوثها. لقد كان هذا الجمال متعة لاذني وعيني معاً.. واعتقد ان الغرب يجهل ان البيوت في مساحات كبيرة من اوربة تضم المئات من الادوات المنزلية، وقطع الملابس والاثاث التي تصنعها يدوياً، والتي لما تصل اليها لمسات الصناعة الآلية، ان اشكال وطرز تلك الادوات والامتعة اليدوية تتباين تبايناً كبيراً بين القرى. لقد رأيت هذا كله وخبرته بنفسي وهي خبرة لن انساها ماحييت..»

ودعنا نقرأ ايضاً هذا الاعتراف الاخير الذي كتبه بارتوك عما يعتقده :

« والآن ، اني أرى شعوب أوربا الشرقية يقتل بعضها بعضاً طبقاً لنظام علوي ، حتى ليبدو ذلك الجزء من العالم وكأن القوميات المختلفة التي تعيش فيه لاهدف لها الا ان يبيد بعضها بعضاً ابادة كاملة . ولعلي محق في قولي الآن انه لايوجد ، ولم يوجد ، ولن توجد ادنى علامة لاي نوع من انواع الحقد الأعمى ضد الشعوب الاخرى في قلوب الفلاحين .. اما الحقد والكراهية ضد الاجناس والقوميات الاخرى فليست الا عواطف مفتعلة اخترعتها اطماع جهات عليا » .

هل هذه مثالية متعالية من بارتوك ..؟ هل هذا مثل لرومانسية بارتوك الروسوية (نسبة الى جان جاك روسو) التي أبداها عام ١٩٤٣ في وقت كانت الحرب العالمية الثانية تقترب من نهايتها ؟ هل هذا هو بارتوك الذي تمثل فيه وامتزج به الوقع الرتيب النابض ، والمجد المشتعل بالنور ، وآلام الثقافة الغربية المعاصرة ، وكل شيء منذ شتراوس وديليوس حتى شونبرغ ورافيل ، من روما الى سان فرانسيسكو ، ومن مدريد الى لندن ؟؟ الرجل الذي اختبر كل شيء وتشرب به وارتفع في النهاية على اكف البشرية ليتسنم قمة المجد في عالم الموسيقى هل كان يبني نفسه هكذا ، ام انه فشل في ادراك حقيقة الفقر الغاشم المكبوت ، والتناقضات الكامنة ، والكدح الذليل الاعمى ، وهي الاشياء التي كانت تتكون منها مجتمعة العناصر الاساسية التي تقوم عليها حياة الفلاحين في اوربا الشرقية ؟

كلا .... لقد تطوع بارتوك بنفسه للاجابة على تلك الاسئلة ، لقد كان هدفه العمل على تحقيق الاخاء بين الامم ، كما جاء في رسالته الشهيرة ، وقد عاد ثانية ليؤكد هذا في اعترافه الاخير حول معتقداته : « ان الشعوب تتطلع الى الاخاء ، وانها لسوف تحقق فيما بينها الاخاء ذات يوم ! وانه لأنبل واجب

للفنان ان يمهد الطريق لهذا الآخاء العظيم .. وان ينفخ في النفير معلنا مقدم ايام السلام ، حتى ولو كان هذا سيعني بالنسبة له شخصيا عناء ونصبا وعزلة وعدم فهم ازاءه » . لقد قال الشاعر المجري الكبير (فوروشمارتي وهو الذي كان طفلا يحبو في فلسفة القدر والحياة) : «ان يوم احتفالنا بالعيد العظيم آت لاريب فيه .. » ، اما بارتوك ، الذي خلف فوروشمارتي بعد قرن من الزمان ، فقد اعلن وهو على عتبة قبره في – موسيقاه وفي كتاباته – مقدم يوم الاحتفال بالعيد العظيم ، ذلك اليوم الذي ستلقى الشعوب فيه بنفسها في احضان بعضها ، ذلك اليوم الذي يبدد فيه ذلك الانقسام المحزن الذي فرق بين الشرق والغرب ، يوم يذوب هذا النزاع – الذي كان أبديا – في انغام اغنية سعيدة تسمى انشودة السلام .



بارتوك في (أضنة) أثناء المسح الفولكلوري

الفنّان

بيتر بول روبنز

Peter Paul Rubens

للناقد الأمريكي جورج كنت

George Kent

ترجمه عن الفرنسية صبحي زخور

ان انتاج الرسام الفلمنكي الكبير قد ساد القرن السابع عشر ولم يتوقف عن اشعاع الجمال والبهجة في العالم



روبنز بريشته
(متحف تاريخ الفن)
Kunsthistorisches Museum

كن ثلاث فتيات جميلات يغزلن بمغازلهن قرب نافذة في الطابق الاسفل عندما توقف شاب طويل جميل أشقر تبدو عليه امارات الغبطة من تحت قبعته المريشة واغرق في الداخل نظرة فاحصة . ان هذه النظرة كانت هادئة ورزينة ثم دخل الرجل الى المنزل بدون تردد فألقى عليهن التحية ثم قال بشكل طبيعي جداً :



سوزان فورمانت Suzanne Fourment الأخت الكبرى لزوجة روبنز الثانية
(الرواق القومي بلندن)

هل تتلطفن بخلع ثيابكن ؟

فصرخت احداهن صرخة حادة ولكن كبرى رفيقتيها هدأت من مخاوفها وقالت لها :

— لايبدو هذا السيد من تظنين ..

فأجابها : لا ، بكل تأكيد ، انني فنان رسام . اذا كانت اجسامكن هي ، كما اتخيل ، فانكن ستكسبن بالوقوف امامي اكثر بكثير من الغزل بمغازلكن .

جرى هذا المشهد في باريس عام ١٦٢٢ حسب رواية يشوبها الشك ولا يتفق الجبراء على صحتهـا . فالشاب كان بيتر بول روبنز معلم المدرسة الفلمنكية وأحد الاشخاص اللامعين في الفن وكانت الملكة الأم ماري دي مديتشي قد اوصته بصنع ٢١ لوحة من القياس الكبير خصصاً لتزين بها جدران قصر اللوكسمبورغ .

لم يصور احد ، غالباً ، الاشكال النسوية ، اكثر من روبنز . ولم يجعلها احد تنبض بالحياة ، الى حد الاعجاز ، اكثر منه ، اللهم إلا تيتيان او رينوار . فلوحاته العارية التي تمثل ـ نساء مستلقيات على العشب او متجولات في الغابة او خارجات من الحمام ـ معلقة في اعلى نقوش جميع متاحف العالم . ان هذه النساء ذات الارداف العامرة ـ وأغلبها حية ـ هي رموز للخصب وهي ليست بأكثر فتنة من صور الثمار تتصب من ثنايا الخيرات .

واللوحات العارية ، مع ذلك ، ليست الا جزءاً من نتاج روبنز الذي يفيض بالخصب والثراء . لقد رسم ايضاً مئات من اللوحات التي تمثل مناظر طبيعية ومشاهد عن الصيد والحياة العائلية الهادئة ولكن تأليفاته الدينية هي اجمل من

هذه اللوحات كلها . ان فنانين قلائل قد رسموا المسيح بكثير من الحنان : (المسيح على الصليب) ، (نزوله عن الصليب) ، (المسيح المطعون جنبه بحربة الروماني) . يرتسم العذاب في هيكله اللحمي وفي عينيه وشفتيه ووضع رأسه وارتقاء جسمه . ولكن سر الانفعال الذي توقظه فينا هذه اللوحات يكمن في الحركة وفي مداد الكتل والالوان ، مداد حمية دينية .

لم يعمل احد بمثل هذا الدأب لتحسين فنه . ورغم ان رابطة فناني انفرس اطلقت عليه رسمياً لقب (معلم) في الحادية والعشرين من عمره فان روبنز استمر في الدراسة والتعلم حتى آخر ايامه . لقد كان ينقل في الخمسين من عمره لوحات تيتان وغيره من الرسامين لتحسين اسلوبه الفني . ان هذا الفنان العبقري الصرف قد رسم دائماً بسرعة خارقة . لم يكن يتردد ابداً ولم يكن يصحح ابداً مايرسمه . فاشتهرت لوحته (تعبد المجوس) لانه صنعها في ستة ايام .

عدا صفات الفنان الممتازة فان روبنز كان يبدع ايضاً في فن رفيع هو فن الحياة . لقد بلغ غاية السعادة في زواجه فكان وفياً كل الوفاء لزوجته في زمن تفشت فيه الاباحية تفشياً عظيماً . كان اولاده يحترمونه ويقدرونه . وعندما توفي في الثالثة والستين من عمره جرى له مأتم عظيم حضره جميع اعيان انفرس .

لم تعرف عن روبنز أية نزوة من النزوات التي غالباً ماترافق العبقري الفذ . ولم يفسده النجاح قط ، وكانت عاداته اكثر انتظاماً من عادات امين محفوظات .

كان فائض الحيوية يستيقظ كل يوم في الساعة الرابعة صباحاً فيحضر صلاة القداس الاول ثم يعكف على العمل . وعندما كان يرسم يتلو عليه شاب من مؤلفات تاسيت او بلوتارك ويتوقف عن العمل عند الظهر ليتناول طعاما خفيفاً

من الخضراوات فقط لانه كان يعتبر اللحم ضاراً لفنان مبدع . وفي الساعة السابعة عشرة يترك عمله فيمتطي حصانا ويتجول في ضواحي انفيرس .

وفي المساء يجتمع اصدقاؤه وعائلته حول مائدته الكريمة ليقاسموه طعامه ويتمتعوا بحديثه .

ولد بيتر بول روبنز عام ١٥٧٧ في سيغن بألمانيا حيث كان يعيش ابوه منفياً . فلم تكن العائلة سعيدة لان والد الفنان من مواليد انفيرس التي تعتبر وقتئذ جزءاً من الأراضي المنخفضة . كان قد حوكم بجرم الزنى وحكم عليه بالاعدام . فلم تأل زوجته جهداً لانقاذه حتى اطلق سراحه اخيراً . وربما كانت تجربة ابيه المريرة سبباً في كراهية روبنز للفجور .

بعد موت ابيه ، عادت العائلة كلها الى انفيرس حيث اصبح الشاب في خدمة عائلة نبيلة فبدأ يتعلم آداب المجتمع والعادات الجميلة التي تميزت بها حياته فيما بعد . وكان الرسم هواه فتتلمذ على ايدي رسامين من الدرجة الثانية واكتسب بسرعة شهرة شخصية . وفي الثالثة والعشرين من عمره جمعت امه مالا كافيا اشترت له به حصانا فامتطاه وسافر الى ايطاليا .

بعد بضعة اشهر ـ بينما كان جالساً في باحة فندق في البندقية ـ أبدع في رسم لوحة مشهورة ابتكرها من ذاكرته فأثارت الوجد في نفس رجل غريب كان وراءه فصاح به قائلا: « انها بديعة . انها اجمل من الاصل . سأذهب بك الى مانتو عند صديقي الدوق فنسان دي كونزاج فتصبح غنيا » .

وفي مانتو ، اصبح روبنز الرسام الرسمي للبلاط فرسم نسخا عن صور شهيرة كما رسم صورة افراد عائلة الدوق .

مكث ثماني سنوات في ايطاليا حتى علم بمرض امه الشديد فعاد فوراً الى

انفيرس التي وصلها متأخراً جداً ولكنه كسب عطف الارشيدوق البر وشقيقته ازابيل وريثي تاج الاراضي المنخفضة (الخاضعة وقتئذ للنفوذ الاسباني) فسمياه رسام القصر . فانجز حينئذ للبلدية لوحته المؤثرة (تعبد المجوس) التي تضم ۲۸ شخصاً من القياس الطبيعي ، ثم رسم بعدها بقليل لكاتدرائية انفيرس لوحة (النزول عن الصليب) التي تعتبر بصورة عامة تحفته الرائعة .

في الثانية والثلاثين من عمره ، تزوج ازابيل برانت الابنة البكر لاحد نبلاء المدينة وعمرها ١٤ سنة فأنجبت ثلاثة اولاد ، وبعد سبعة عشر عاماً طافحة بالسعادة الزوجية الصافية توفيت زوجته فجأة فبحث روبنز عما ينسيه حزنه عليها فانتمى الى سلك لا يصيب النجاح فيه الا نفر قليل جداً من الرسامين ، ألا وهو السلك السياسي . وقد اصبح بفضل حنكته وثقافته وقوة حجته واحداً من المع سفراء عصره حتى ضاهى رجل دولة عظيم كالكاردينال دي ريشليو .

وخلال أسفاره العديدة التي يفرضها عليه منصبه لم ينقطع عن الرسم أبداً وقد ساعدته محبته للرسم على انجاز المهام التي يكلف بها . فالوقوف امام الرسام شيء ممل بنظر الكوامن ، كان يرسم يوماً صورة الدوق دي بوكنغهام فطرق سمعه ان انكلترا لاتنفر من عقد الصلح مع اسبانيا . وما كاد يعي هذا التلميح حتى راح يتنقل كالمكوك بين بلاط فيليب الرابع ملك اسبانيا وبلاط شارل الاول ملك انكلترا وبعد جهود استمرت شهوراً طويلة ظفر بتوقيع الملكين على معاهدة تضع حداً للقتال بين البلدين وقد سر الطرفان من خدماته الى درجة انهما منحاه ألقاب الشرف .

بقي روبنز أرملاً مدة اربع سنوات ثم علق بحب فتاة في السادسة عشرة من عمرها تدعى هيلين فورمانت وتزوجها .

ولم يكل قط عن رسم زوجته الشابة فرسم لها اكثر من خمس عشرة صورة وفضلا عن ذلك فقد رسمها في بعض لوحاته العديدة الدينية والاسطورية.

وقد وافته البرهة التي تعذر فيها عليه ماديا ان ينفذ لوحده الطلبات التي اخذت تنهال عليه فاتبع في بعض نتاجه طريقة العمل المتسلسل يخطط التأليف ويختار الوانه ثم يرسم هو نفسه الخطوط الاولية للوحة ، وبعد ذلك يضيف اليها احد مساعديه المنظر الطبيعي وآخر الخيول وثالث الحيوانات البرية ورابع يرسم الاشخاص وخامس اقساما من الطبيعة الصامتة . واللمسات الاخيرة التي كان يضعها المعلم تطبع شخصيته على مجمل اللوحة . وكان مساعدوه فنانين موهوبين من بينهم فانديك وجان بروغيل وفرانز سنايدرس . وهم يعملون بسرور لروبنز لانه يدفع لهم بسخاء .

لم يكن المعلم يتوخى قط ان يغش زبائنه وقد اوضح في مذكرته التي ارسلها الى لورد انكليزي كيف رسم كل لوحة فقال : « النسخة الاصلية للوحة (بروميتي المكبل بالاصفاد) هي من صنع يدي ، رسم فرانز سنايدرس صورة النسر فيها بـ ٥٠٠ فلورن . النسخة الاصلية للوحة (الفهود) هي من صنع يدي ايضاً باستثناء منظر طبيعي جميل رسمه فنان بارع في هذا النوع بـ ٦٠٠ فلورن » .

ادعى مشتر بان النتاج لم يكن من صنع المعلم فامتنع عن دفع قيمته .

فرد عليه روبنز قائلا :

— لو رسمته كاملا لتضاعف سعره .

وقد اصيب الفنان بداء النقرس فعكر صفو ايامه الاخيرة وشل يديه اذ غالباً ما كانت ريشاته تتساقط من بين اصابعه المتصلبة ولكن الوان لوحاته القماشية واضواءها لم يسبق لها ابدا ان كانت اكثر بهجة ولا اكثر صخبا .

ويملأ روبنز اليوم ايضا جو مدينة انفيرس . فيستقبلك تمثاله امام الكاتدرائية واذا تجولت في الشوارع تقرأ اسمه في كل مكان ، وعلى كل الوجوه تظل هذه المدينة ابدا مدينته . ولكن عبقريته هي اعظم من ان يحدها مكان واحد اوبلد واحد . ان الجمال الذي ابتدعه هذا الفنان قد اتحف العالم كله بروعة وحيوية خالدتين .



مطبوعات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي
التي تقوم بتوزيعها دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

قصة الارض في سورية	لمنير الشريف
المحكم في نقط المصاحف	لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني تحقيق الدكتور عزة حسن
برنامج شيوخ الرعيني	لأبي الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الاشبيلي تحقيق ابراهيم شبوح
ديوان ابن مقبل	تحقيق الدكتور عزة حسن
مقدمة في النحو	لخلف الاحمر تحقيق عز الدين التنوخي
تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب	لابن الفوطي تحقيق الدكتور مصطفى جواد (الجزء الرابع الأقسام ١-٢-٣)
إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى	لمحمد بن طولون الصالحي الدمشقي تحقيق محمد احمد الدهمان
الأزمنة والانواء	لابن الاجدابي تحقيق الدكتور عزة حسن
قصة الجلاء عن سورية	
روضة الورد	لسعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
روائع من الشعر الفارسي	لسعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
دورة الربيع	لسعدي الشيرازي ترجمة محمد الفراتي
محافظة السويداء	لشبلي العيسمي وحمود الشوفي وداوود غر
تاريخ المعرة	(جزءان) لسليم الجندي تحقيق عمر رضا كحالة
محافظة حماه	لمؤيد الكيلاني
حكاية جوقة التماثيل	لسعد الله ونوس
تحت سماء الاندلس	لزكي قنصل

الفن والأدب	للويس هورتيك
	ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم الرفاعي
أحاديث العشيات	للدكتور عبد السلام العجيلي
اتجاهات الفنون التشكيلية	لعفيف بهنسي
فن العرائس وتحريكها	لبوجوكوكوليا ترجمة نجاة قصاب حسن
الفولكلور الغنائي عند العرب	لنسيب الاختيار
محاضرات الموسم الثقافي	(الاجزاء ٤ - ٥ - ٦ - ٧)
الشمس الغاربة	لأسامو دازاي ترجمة فائز بشور
قال الراوي	لالياس فرحات
زهرة النار	لعبد الكريم الناعم
الموقع الستراتيجي العربي	لهيثم الكيلاني
شرح ديوان عروة بن الورد	تحقيق عبد المعين الملوحي
الاشتراكية في البلدان المتخلفة	لمحمد الجندي
مسرحية الحياة حلم	لكالدرون ترجمة نجاة قصاب حسن
اللاميتان	للشنفري والطغرائي
الأسطورة اليونانية	لفؤاد جورجي بربارة
حبات زمرد	لشفيق المعلوف
مسرحية البقة	لفلاديمير ماياكوفسكي ترجمة عماد حاتم
مئة قصيدة من روائع الشعر الحديث	ترجمة سليمان العيسى ونادية الياس
مسرحية سيدة الفجر	لاظاندروكاسونا ترجمة علي الاشقر
غوطة دمشق	لصفوح خير
العلم البارحة واليوم وغداً	اقتباس مارسيل داغر
كيف نكتب تاريخنا القومي	تحقيق مجلة «المعرفة»
الحمامات الدمشقية	لمنير كيال
ديوان الشاعر المدني	قيصر سليم الخوري

السيدة منور موره لي

اللوحة :

لوحة من الاسلوب الانطباعي نفذت من خلال نظرة واقعية .

اهتمت بالناحية المعمارية، واعطتها شاعرية في اللون بحيث لم تكن لمساتها محددة وصريحة .

لم تعط اهمية للابعاد او المنظور بقدر اهتمامها باللون . اللون الذي اكد طابع البيئة المحلية في بلادنا .



الفنانة : منور مورلي — صيدنايا

جائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٦٥

للأستاذ مصطفى الشهابي



دعا المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في اوائل عام ١٩٦٥ الى منح جائزة الدولة التقديرية ، لأحد مشاهير الأدباء والفنانين والباحثين في العلوم الاجتماعية .

وكان المجلس طوال مدة وجوده ، منذ عام ١٩٥٨ ومن بعد حتى عام ١٩٦٥ لم يمنح الجائزة التقديرية - المقرر بحسب نظامه أن يمنحها سنوياً - إلا للمرحوم العلامة الاستاذ فارس الخوري ، اثناء انعقاد المجلس في القاهرة ، في عهد الوحدة . ثم ساد صمت على اعمال المجلس في هذه الناحية بحجج مختلفة ، كان اهمها القول بان ليس ثمة موشحون ، أو ليس من مخصصات مالية كافية .

وفي عام ١٩٦٥ دعا امين المجلس الاستاذ علي الخش الى منح هذه الجائزة لمن يستحقها ، وقام المجلس بالاجراءات الرسمية المتبعة عادة في اعلان الموضوع في الصحف والاذاعة ، وابلاغ طلب الترشيح جميع الهيئات العلمية في البلاد ، وفي مقدمها الجامعة السورية ، والمجمع العلمي العربي .

ولم تتقدم هيئة او افراد الى ترشيح أحد خلال المدة المقررة ، سوى ان المجمع العلمي العربي بدمشق قدم مذكرة الى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، يرشح فيها رئيسه ، الاستاذ مصطفى الشهابي لجائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٦٥ - وبهذا أصبح من حق المجلس ان ينظر في هذا الترشيح بالذات ، أو يقدم ترشيحاً آخر ينعقد حوله رأي المجلس . وكان لابد من تأليف لجنة من اعضاء المجلس الأعلى لدراسة الترشيح ، الصادر عن المجمع العلمي ، والنظر في موضوع الترشيح عامة .

وقد أصدر الاستاذ سليمان الخش وزير الثقافة والارشاد القومي آنئذ قراراً بتأليف لجنة برئاسته للنظر في استحقاق جائزة الدولة :

ان رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – وزير الثقافة والارشاد القومي –

بناء على احكام القانون رقم /٤/ المعدل بالقرار الجمهوري /١١٢٥/ لعام ١٩٥٨.

وعلى القرار الجمهوري / ١٥٣٦ / لسنة ١٩٥٨ المعدل بالمرسومين رقم / ١٠ / لعام ١٩٦١ و / ٧٤١ / لعام ١٩٦٣.

وبناء على المرسوم ٢١٢٩ الصادر بتاريخ ٢٢/٩/١٩٦٥.

وبناء على قرار المجلس الأعلى بتاريخ ٢٨/٨/١٩٦٥.

وعلى اقتراح الأمانة العامة للمجلس :

يقرر مايلي :

مادة ١ – تشكل لجنة للنظر في مستحقي جائزة الدولة التقديرية من بين الادباء والمفكرين والفنانين عن عام ١٩٦٥ ممن رشحتهم الهيئات العلمية عملا بالقانون رقم ٣٧ لعام ١٩٥٩.

مادة ٢ – تؤلف اللجنة الناظرة في الآثار الادبية برئاسة السيد رئيس المجلس ويسمى السيد الاستاذ فؤاد الشايب مقرراً لها ، ولعضويتها السادة : الدكتور بديع الكسم ، الدكتور جميل سلطان ، الدكتور عادل العوا ، الدكتور عزة مريدن ، الدكتور شوكة الشطي.

وقد عقدت اللجنة برئاسة السيد الوزير ، وحضور السيد الاستاذ علي الخش امين المجلس اجتماعاتها ، للقيام بالمهمة الموكولة اليها واستعرضت اسماء الاعلام في الفن والأدب والعلوم الاجتماعية ممن يستحقون جائزة الدولة ، ورأت انه كان من المتوجب ان تمنح هذه الجائزة سنويا ، لأن سورية العربية لايعوزها الرجال المثقفون في هذه الميادين ، وثمة عدد غير قليل ممن خدموا ثقافة امتهم وأدبيا وفنيا أجل الخدمات منذ مطلع القرن العشرين والى يومنا هذا . ورأت اللجنة ان مرشح المجمع العلمي العربي الاستاذ الشهابي مفخرة أجيال العلم والأدب في هذا القرن ، وان المجمع العلمي قال كلمة يجمع عليها الوسط الثقافي في البلاد . ولكي تتوافر للجنة جميع شروط البحث والنظر ألفت من اعضائها لجنة فرعية لدراسة موضوع الترشيح وتقديم تقرير الى اللجنة الرئيسية ، فتألفت اللجنة من الدكتور

شوكة الشطي والدكتور جميل سلطان والمقرر فؤاد الشايب . وانصرفت اللجنة الى دراسة حياة المرشح وآثاره ومؤلفاته . ثم وضعت تقريرها ورفعته الى اللجنة الرئيسية التي اقرته ثم أقرته هيئة المجلس الاعلى بكامل اعضائها مع تأكيد ان المرشح الاستاذ مصطفى الشهابي، انما استحق جائزة الدولة لعام ١٩٦٥ بصفتين اثنتين: انه اديب ، وباحث عالم معاً ، أي في الآداب والعلوم الاجتماعية للعام المذكور .

مذكرة لجنة التقدير

وفيما يلي ننشر نص مذكرة لجنة التقرير التي منحت جائزة الدولة بموجبها . فكان من حسن حظ المجلس الاعلى ، والمجمع العلمي والدولة معاً ، أن يكون الاستاذ مصطفى الشهابي ،موضوع الجائزة ،وموضع التكريم والتقدير:

ولد الأمير الأستاذ مصطفى الشهابي في بلدة حاصبيا في تشرين الثاني من عام ١٨٩٣ وكانت البلدة تابعة لولاية سورية وعاصمتها دمشق في العهد العثماني قبل ضمها الى لبنان في اول عهد الانتداب . وتلقى أول دروسه الابتدائية في مدرسة حاصبيا الرسمية ، ثم انتقل الى مدارس بعلبك – مدرسة المطران – فعلقة زحلة – مدرسة الموارنة – فالمدرسة البطريركية الكاثوليكية في دمشق ، بعد عام ١٩٠٥ ، وفي دمشق استقر وشقيقه المغفور له الشهيد عارف الشهابي ، أحد رواد القومية العربية في مطلع القرن العشرين ، الذي شرفه الله بالشهادة فوق مشانق السفاح التركي – وكان الشهيد أخاً ومعلماً ومثلاً أعلى لشقيقه ، في طلب العلم ، وفي ساحة النضال القومي ، وفي عام ١٩٠٧ سافر الاستاذ مصطفى وشقيقه عارف الى الاستانة حيث التحق الاول بمدرسة لتعليم اللغة الفرنسية ، والتحق الثاني بالمدرسة الملكية . وانهى كل منهما عام ١٩٠٩ دروسه في المدرستين المذكورتين ، وعاد الى دمشق ، حيث اشتهر الأخ الاكبر المغفور له عارف الشهابي كعالم في اللغة العربية وآدابها وفي تاريخ العرب والاسلام . والتحق الاستاذ الشهابي في دمشق بمدرسة

الحكومة الثانوية – مكتب عنبر – وكان قد ألم بالفرنسية واتقنها. وهو في حوالي الثامنة عشرة من عمره.

وفي عام ١٩١١ أوفد الى فرنسا من قبل (جمعية البعثات العلمية) التي كانت قد تألفت في دمشق، لانتقاء الشبان المتنورين، وارسالهم في بعثات الى الخارج. ووقع عليه الاختيار للدراسة في المدرسة المهنية في مدينة (شالون سورسون) التي حصل منها على شهادة زراعية أهلته لدخول مدرسة غرينيون للزراعة العالية وتخرج منها عام ١٩١٤ مهندساً زراعياً.

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى، وبين أعوام ١٩١٤ – ١٩١٨ دخل المدرسة الحربية في اسطنبول، فمدرسة البرق والهاتف الحربية، وبعد التخرج عمل في عدة وظائف فنية عسكرية. وعندما انهارت الامبراطورية العثمانية، بدأ حياته الحكومية مديراً للزراعة في أول حكومة عربية سورية مستقلة وذلك في أواخر عام ١٩١٨.

وقد اشترك الاستاذ مصطفى الشهابي مع اخوانه رواد القضية في الجمعيات العربية العاملة يومئذ، وفي رأسها (جمعية العربية الفتاة) و (جمعية العهد). وكان شقيقه المتقدم عليه سناً أحد قواد معركة الاستقلال العربي، كما أشرنا.

وامتلأت حياته كموظف فني واختصاصي، وكرجل مفكر مصلح، صاحب ثقافة وخبرة ورأي، بسجل حافل من الخدمات الجلى لبلاده في حقول الادارة والسياسة والتوجيه، فشغل مديريات الزراعة والاحراج واملاك الدولة، مدة من الزمن، واختير للوظائف الادارية العليا، محافظاً لحلب مرتين، ومحافظاً للاذقية مرتين، وعين وزيراً أربع مرات لوزارات المعارف، والزراعة، والمالية، والعدل. وكان عضواً في الوفد السوري الى باريس لبحث معاهدة الاستقلال السورية مع الحكومة الفرنسية عام ١٩٣٩، وانهى خدماته للدولة بوظائف السلك السياسي، فشغل منصب وزير مفوض وسفير. وكانت آخر وظائفه سفير الجمهورية السورية في مصر، من ١٩٥١ – ١٩٥٤.

أثناء ذلك، ومنذ عام ١٩٢٦، انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، ثم رئيساً له عام ١٩٥٩. وفي عام ١٩٤٨ انتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ثم عضواً عاملاً فيه عام ١٩٥٤، كما انتخب عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العراقي.

وعام ١٩٦٤ اختارته اللجنة التنفيذية لدائرة المعارف الاسلامية عضواً مشاركاً. كما عين عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، في القاهرة، ثم في دمشق، وكان فكراً وعملاً ونشاطاً ودأباً في كثير من الوفود والهيئات الرسمية والاهلية الادبية والعلمية والقومية.

آثاره وأعماله

العالم واللغوي

لم تتعرض دولة أو حضارة في العالم مثل ماتعرضت له الدولة العربية الاسلامية وحضارتها الرائعة من ضروب المحن والأهوال وغزوات التدمير والاحراق والابادة . فمن غارات التتر والمغول ، الى الغارات الصليبية الى ماعقب ذلك من زوال هيبة الدولة ثم ذهاب سلطانها ، تعرضت آثار التراث الحضاري العربي ، مما ابدعه الفكر وخطه وشاده وخلفه وراءه من كنوز وروائع وعمران ، الى معاول التهديم، ونيران الحريق وسلاح الحقد والابادة ، مما اوشك أن يطمس آثار حضارة نورت الوجود ، يوم كان في ظلام مقيم ، وكاد يوهم بأن العرب قد انحسروا في ظلام الامم البائدة .

وماكاد يطل القرن التاسع عشر ، حتى ظهرت من كل حدب وصوب تباشير اليقظة العربية ، وكان حسن حظ الأمة أن العلماء ورجال الفكر والادب والاصلاح الاجتماعي تقدموا مواكب الاشراق العربي . وكان احياء التاريخ العربي الاسلامي ، وبعث الروح في اللغة العربية بالذات سبيل العلماء والمؤرخين والباحثين والمصلحين الى تفجير تلك الطاقات الغنية الكامنة في ضمير الأمة .

كان النصف الاول من القرن العشرين حافلا باعمال الرواد الذي طفقت طاقات الأمة العربية تتفتح للنور على ايديهم ، فيحلو منظرها ، ويعطر الأجواء شذاها وكان العلامة والباحث اللغوي الاستاذ الشهابي أحد من فجروا الحياة وأجروا ينابيعها في عروق امته وبلاده ، وكان همه الاول أن يصل اللغة العربية بحياة العلم الجديد والشعوب الآخذة بتطبيق مستحدثات العلم اذ رأى – كما رأى من سبقوه وعاصروه – أن اكبر عقبة تقوم بوجه نقل المؤلفات العلمية من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية هي عقبة المصطلحات العلمية والفنية ، فرصد للعمل الشاق الجليل جهده ، وأعد له من صبره وعلمه ، وكاد احياء اللغة واغناؤها يستأثران بجميع سني حياته الحافلة بالمفاخر الادبية والعلمية .

كان أول ما اشتغل به العالم الباحث، تيسير نقل المصطلحات في علوم الزراعة والمواليد الثلاثة من نبات وحيوان وجماد فوضع فيها مصطلحات تعد بالألوف وردت في مقالاته الكثيرة التي نشرت في أمهات مجلات العصر ، كمجلات الهلال والمقتطف والمجامع اللغوية العلمية في القاهرة ودمشق والعراق .كما وردت في مؤلفاته المشهورة التي فيها سبق الرائد ، وفضل المتجلي على النطاق العربي الواسع ، وأهمها :

١ – معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية .

٢ – معجم المصطلحات الحراجية بالانكليزية والفرنسية والعربية . وقد اشتمل على الف مصطلح .

٣ – كتاب المصطلحات العلمية في اللغة العربية . وهو مجموعة بحوث عميقة في تفهيم أسرار اللغة وتطويرها ، يسرت السبل للعلماء والباحثين والنقلة والمترجمين .

يضاف الى هذه المؤلفات الجليلة اعمال علمية لغوية ، قدمها بصيغ اقتراحات في مجمع اللغة العربية في القاهرة ، اقترنت بالموافقة عليها وإقرارها . منها قرارات تجيز اشتقاق فعال وفعل للدلالة على الداء سواء اورد للاسم فعل أم لم يرد . ومنها قرار في رسم الألفاظ المعربة ، ومنها رد الكلمات الاعجمية المقتبسة من العربية الى اصولها العربية عند تعريبها . ومنها قواعد في الترجمة والتعريب والنحت في الفاظ تصنيف النبات والحيوان .

والخلاصة فان دور الرائد العلمي اللغوي الذي نهض به استاذنا الشهابي ، مرده الى عاملين اساسيين : إتقان اللغات الأجنبية – كالفرنسية والانكليزية – وتعمقه في فهم قواعد اللغة العربية وأسرارها .. وقد ساعدته هذه الثقافة الواسعة على أن يرتفع الى أفق الابداع والتجديد .

الكاتب والأديب

وفي الناحية الأدبية الخالصة ، والادبية اللغوية ، والادبية الاجتماعية والفلسفية تشهد اسهام الاستاذ الشهابي ، في النهضة الحديثة ، بما أمد به الفكر العربي من مقالات ومحاضرات نشرت وتناقلتها مجلات الوطن العربي . وقد تناولت تلك المقالات موضوعات ادبية خالصة ، ومباحث لغوية دقيقة ، واتجاهات فلسفية وقومية ، ومناحي اصلاحية اجتماعية . وكان فيها جميعا ، الاديب المفكر ، والباحث المدقق ، مع اسلوب ممتنع وفطرة ملهمة .

والشذرات – التي هي اليوم تحت الطبع في بيروت (*) – من آثاره المختارة خلال نصف قرن – مقالات ومحاضرات – في الادب الصرف ، والمباحث التي تتناول كيان اللغة وتجاوبها مع النهضة الحديثة ، والتأملات والمعالجات الفلسفية والعلمية ، تضع الاستاذ الشهابي في السابقين الاولين الى اغناء الفكر العربي ، ومن اجل ذلك كانت مقالاته في الادب واللغة ، مادة يرجع اليها في التدريس ، ويؤخذ بها عند التوثق .

الباحث القومي والاجتماعي

لقد اتصل الاستاذ مصطفى الشهابي ، عن طريق مؤلفاته وبحوثه القومية والتاريخية ذات المنحى العلمي والاجتماعي ، بحياة الجماهير الواسعة ، عندما طرح مؤلفيه الممتازين : (تاريخ الاستعمار) في مجلدين . (ومحاضرات عن القومية العربية – تأريخها وقوامها ومراميها) في مجلد واحد . وان يكن رجال مجامع اللغة ، واهل العلم والاختصاص في مجالسهم وندواتهم قد اعترفوا بفضله ، على نطاق الخاصة ، فقد تدوول اسمه في كتابيه الملمع اليهما بين جماهير القراء والشبان العرب عامة ، باحثا تاريخيا وموجها قوميا ومصلحا اجتماعيا ، ليتحدث عن الاستعمار

(*) صدر كتاب (القرارات) بعد وضع هذه المذكرة .

في كل ما أحق به على حياة الشعوب وفي كل ما انزل من شرور اقتصادية واجتماعية وسياسية، مؤكدا دائما صلة الترابط والتلازم بين الشعور القومي المثالي والايمان بوحدة الامة العربية من جهة ، وبين ارادة السعي لتحقيق اهدافها السياسية والاقتصادية والاجتماعية من جهة ثانية. وهي اهداف يشدها دائما ، إلى قمة معاني العدل والمساواة وصالح الجماعة .

والاستاذ الشهابي اذ يؤرخ للحركة القومية العربية ، في القرنين التاسع عشر والعشرين ويبحث العوامل المكونة للقومية العربية والاهداف التي ترمي اليها ، والفلسفة المثالية التي تحدو اغراضها وعلاقتها بالقوميات السائدة — وبالبشرية جميعا — لايقتصر في دروسه الموجهة الى شباب العرب ، على كونه مؤرخا يجمع الأحداث من كتبها ويؤلف بينها ، بل هو يتحدث عن تاريخ عاشه ومشى بجانبه . وان المعلومات التي اشتملت عليها محاضراته ، كما يقول في تقديم محاضراته القومية : « مقتبسة من مذكراتي او معتصرة من ذاكرتي » ، إلى ان يقول : « فقد شهدت في الشام مولد عقيدتنا القومية المنظمة في أوائل القرن الحاضر . واتصلت منذ ذلك الزمن الى يومنا هذا، بمعظم زعمائها من شهداء وأحياء ، فحق علي أن ادلي بدلوي بين الدلاء ، وان اطرح رأيي في جملة الآراء ». وكان كتابه (في القومية العربية) من اكثر الكتب المماثلة في الموضوع وضوحاً واشراقاً وبياناً ادبياً جميلا ، تفوق به وتميز بأن جمع عناية التحقيق ودقة العلم الى صفاء الديباجة النابعة من صفاء قلبه وصحة إيمانه .

واخيراً لا غنى عن الاشارة في ختام هذه المذكرة ، الى ان عصرنا الحاضر ، منذ مطلعه ، الى يومنا هذا ، قد لمعت فيه اسماء كريمة ، اسهم اصحابها في نهضة امتهم العربية ، وشاركوا في بناء كيانها القومي والادبي والفكري . وقد غبر منهم من غبر بعد طيب الأثر وحميد الصنع ، وظل من تتعلق به الأفكار، وتدعو له القلوب. وقد كان لزاما على الأمة التي تعرف اقدار رجالها ، وتكبر آثارهم ، ان تحلهم من التكريم المحل الأمثل، وان توليهم من التنويه المكان الأفضل ؛ لأن الأمم الحية الموقدة لشعلة الحياة ، انما تقاس فضائلها بقدر ماتعترف بفضل الذين احسنوا اليها ووضعوا عقولهم وارواحهم بين يديها فأعلوا مكانتها ومجدوا تاريخها .

وان لجنة التحكيم في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية اذ تعتز بترشيح الاستاذ مصطفى الشهابي ، رئيس المجمع العلمي ، لجائزة الدولة التقديرية عن عام ١٩٦٥ ، وترى في هذا الترشيح ، يصدر عن المجمع العلمي بالذات ، دليلاً جديداً على ماتؤدي هذه المؤسسة العلمية القومية من خدمات لتاريخ العروبة ولغتها وامجادها. إن اللجنة ليشرفها أن تتخير بكل طمأنينة وغبطة

الأديب العالم الاستاذ مصطفى الشهابي ، وان تقدمه لجائزة الدولة التقديرية .

واللجنة في تخيرها هذا ، انما تردد ماتشعر به حق الشعور ، مجتمعات الفكر والأدب والعلم في بلاد نعمت بما منحها الاستاذ الجليل فحق علينا أن تكرمه وترد له بعض منحه وعطاياه . وكان هذا التخير اجماعاً في الرأي، واستجابة للحق ، وتقديراً لكل عمل صادق مخلص يبذله الصادقون المخلصون لخدمة أمتهم واعلاء شأنها .



أسبوع العلم السابع

افتتح السيد رئيس الدولة الدكتور نور الدين الاتاسي أسبوع العلم السابع بكلمة قال فيها: «إن من حق العلم والوطن علينا أن نعترف بأن إنتاجنا العلمي اذا قيس بالتقدم العلمي في العالم هو أقرب الى ان يعتبر في حالة تخلف وان كان يمثل في تاريخنا المعاصر خطوة لابأس بها في مضمار التقدم. ونحن أبعد مانكون عن الوقوف موقف المستغربين أمام ظاهرة تخلفنا العلمي لأننا نعرف أن المجتمع المتخلف يكون متخلفاً في كل شيء ونعرف أن مؤسساتنا العلمية بطبيعة ارتباطها العضوي بالمجتمع لابد لها من أن تحمل الطوابع الرئيسية لمجتمعنا المنهمك في حرب حيوية شاملة ضد التخلف وضد الفوضى وضد التقاليد الجامدة وضد الجهل والخمول. ونعرف كذلك أن مثل هذا المجتمع يصعب أن يوفر للعالم من الوسائل

المادية والجو النفسي ما يعينه على تدقيق البحث وتعميق التحليل وشمول النظرة وصحة الربط بين النتائج، فضلاً عن الابتكار والابداع، ولكن معرفتنا لهذه الظواهر لايصح أن تتخذ عذراً وإنما يجب أن تكون حافزاً لنا على مواجهة التحدي بالارادة الصادقة والرؤية الواعية والتضحية الحقيقية». ثم ألقى كل من السيد وزير التعليم العالي الدكتور عبد الله واثق شهيد رئيس المجلس الأعلى للعلوم والدكتور عزة مريدن رئيس لجنة المقورين كلمته.

وقدم رئيس المجلس جائزة العلوم البيولوجية للدكتور محمد ابو حرب والدكتورة نجاح البيرقدار الأستاذين المساعدين في كلية علوم جامعة دمشق، وجائزة العلوم الجيولوجية للدكتور ميخائيل معطي المدرس في نفس الكلية، وجائزة العلوم الطبية للدكتور وجيه المعلم المدرس في كلية الطب، وجائزة العلوم الكيميائية للمحاضر في كلية الصيدلة حسن السقا. وفيما يلي أسماء الأساتذة الباحثين الذين ألقوا محاضراتهم القيمة في مدرجات جامعة دمشق:

روبير خنا (تحضير وخواص الفاديسيتون بولي سكليك)، صلاح احمد (العناصر العشوائية في الفراغات التوبولوجية)، هاني بطيخ (الاستطاعة التشكيلية للخلايا البينة في التيوبيلاريا)، روبو (منشأ الغرانيت وتراكيبه) و (اهمية الدراسات الجيولوجية في بناء السدود)، ميشيل خوري (تكتونيك سورية)، نور الدين الرفاعي (الري في سورية بين الري في مصر والري في العراق) و (نحو تخطيط مائي)، احمد يوسف الحسن (حول الذيل الذي يخلفه مرور الموائع فوق الاجسام المغمورة)، صبحي البكري (انضغاط الجزئيات في السوائل الهيدروليكية)، مأمون القوتلي (الشبكة الكهربائية العامة للارتباط في سورية وامكانية ربطها مع شبكات الدول العربية المجاورة)، زاكي

كف الغزال (الكارتوغرافيا الحديثة)، عادل بازرباشي (انتاج البذار المحسن في سورية) ، هيثم الصواف (تأثير بعض الهرمونات النباتية على النمو وعلى الخواص الفيزيولوجية والبيولوجية والأثمار في الكرمة) ، نزار حمد و كرم عودة (تأثير ظروف التخزين الحرارية على ماتحتويه درنات البطاطا من سكر) ، سعاد قطنا (أكاروس التفاح وأهميته الاقتصادية في سورية) ، كرم عودة (الأحماض الامينية والسكريات مصدراً مولداً للنكهة في الاغذية) ، محمود معتصم (البيئة السورية والابقار الاجنبية) ، عبد الجبار ابو الشامات (السياسة الزراعية في سورية) ، شفيق البابا (السلع الدرقية في سورية)، كنعان الجابي (دراسة مستحدثة للتبدلات المرضية في الصبغات الخلوية) ، وجيه المعلم (مشاكل التخدير عند المصابين بارتفاع التوتر الشرياني) ، اكرم عنبري (الكورتيزون والعين) ، محمود صالح خرنوب (خطوات سورية في مضمار أمراض وجراحة العين) ، أحمد شوكت الشطي (نظرية التحول الطفري في توليد السرطان) ، عبد الله عيسى (خبرتنا في سرطانات الرئة) ، موفق سقا أميني (الانتقالات البلغمية للأورام الفمية)، فيصل الصباغ (الأكياس المائية في الجملة العصبية في سورية) ، سري رستم (تطور معالجة عدم انبثاق الشرج في بلادنا) ، فوزت نشاوي (جراحة الكلية المحافظة في بلادنا) ، بول مليز (تشخيص ومعالجة الأورام الكظرية الرافعة للضغط) ، حسني سبح (إسهام في دراسة سبات فرط سكر الدم)، ادوار لحام (الفوائد العملية المنتظرة من معايرة الهرمونات الستيروئيدية في التشخيص والمعالجة) ، حنين سياج (خواطر حول عسر الاصطباغ) ، منذر الدقاق (دور الوراثة في القرحة المعدية الاثني عشرية)، عزة مريدن (أسباب التحسس ونوادره ومعالجته) .

كتاب المعرفة



عرض وتعليق : محيي الدين صبحي

الشعوب السامية هي من الجنس العربي

لسنا هنا في صدد كتاب ، وإنما بصدد نظرية ؛ بل لسنا بصدد نظرية بقدر مانحن في مجال بحث جادالكشف عن حقيقة تاريخية . أدى غيـــاب هذه الحقيقة الى تحمل افتراضات اخرى أساءت إلى الفكر والواقع العربيين . ومن أعجب العجب أن هذا الكشف في التاريخ الانساني ، باعتباره كشفاً يتعلق بالجنس العربي ، لم يتحقق إلا على يدي مفكر عربي . لم يحققه مفكرو الغرب أومؤرخوه أو بحاثوه اوفلاسفة الحضارة فيه ، سواء منهم المفكر الحر الذي لايهتم بسوى الحقيقـــة ، أو المفكرون الذين وضعوا انفسهم في خدمة المخططات الاستعمارية في هذه المنطقة . فكأن الحقيقة العربيـــة لايكشفها سوى عربي ، ولا يحميها سوى عربي .

آ – إن كل حقيقة تستمد قيمتها وذيوعها من الزمن الذي قررت فيه. فالزمان هو الاطار التاريخي الذي يحدد مقدار التطور الفكري والملابسات الواقعية والتطلعات المستقبلية لأمة من الامم . أي أن الزمان هو الذي يحدد حاجة الأمة الى نظرية من النظريات . ولقد ألهم المؤلف هذا الكشف العبقري في مرحلة غدت الأمة العربية فيها أشد ماتكون حاجة الى حقائق علمية موضوعية تقرر وحدة أرومتها وثبات حقوقها على الأرض الــتي تسكنها . فالأرض العربية مهددة بالاستلاب من محيطها الى خليجها . وبالرغم من أن هذا الاستلاب نتيجة مؤامرات استعمارية وضعف في القوة العربية ، إلا أنه مدعوم بنظريات متمحلة وأبحاث تاريخية مصطنعة ، وضعت خصيصاً لتبريره من جهـــة ، ولاستعداء الأقليات العرقية على الأكثرية العربيـــة من جهة اخرى . فهذه النظريات المفتعلة تنبه أذهان الأقليات الى ادعاء حقوق ليست لها؛ ثم تأتي المخططات الاستعمارية فتحرض هـــذه الاقليات وتساعدها : وتكون النتيجة ان تنفصل هذه الأقلية برقعة ارض عربية وتحرم العرب من خيراتها ومن موقعها الاستراتيجي. وتكاد لاتخلو دولة عربية من هذه المشكلة : فالجزائر تواجه دعوى البربر بالانفصـــال والسودان كذلك ؛ وقد واجهت ليبيا دعوى الطليان بأن ليبيا أرض طليانية ، وليست عربية ، وجاءت الدعوة الصهيونية بدعوى الحق التاريخي فطالبت بفلسطين وبشـــرقي الأردن وسيناء وبجنوبي سورية ولبنان ، فأسرعت تركيا الى الاعتراف باسرائيل لأن اسرائيل اعترفت للأتراك بلواء الاسكندرون وبحقهم المزعوم في شمالي سورية ، وكذلك

اعترفت إيران باسرائيل وبحقها المزعوم في شرقي الأردن وخليج العقبة، مقابل الاعتراف اليهودي للفرس بحقهم في جنوبي العراق وبمنطقة الخليج العربي، بما فيها البحرين والكويت وبقية المشيخات التي اصطنعتها بريطانيا لتستثمر البترول العربي... ولن نطنب في الحديث عن حركات أخرى تنتهز الفرص، وتتلمس مواطن الضعف.

ولا نهمل هذه الدعاوي، فالفكرة دائماً رهن التحقيق وقيد التنفيذ إذا لم تجد موانع فكرية وبشرية وعسكرية تحول دونها ودون التجسد. ولنا من نكبة فلسطين درس، مانزال نتعثر الى الآن في فهم مضمونه كاملاً فضلاً عن فشلنا الكامل في الرد عليه. ولابد أن العرب الذين سمعوا بمطالب الصهاينة عام ١٨٨٠ قد هزئوا منهم لأن فكرتهم خرافية ومطلبهم خيالي لأن فلسطين مأهولة بسكانها العرب!!

ومادمنا نخوض في الحديث عن الفكرة وتجسدها في مجال الواقع سأستبق القول وأطالب المفكرين والمسؤولين في سورية وفي البلاد العربية بسلسلة إجراءات تتعلق بهذه النظرية، حتى يمكن للواقع العربي أن يستفيد من الفكر العربي.

١ – يعمد المسؤولون في المجلس الأعلى للآداب، وبمعونة وزارتي الاعلام والثقافة الى عرض هذه النظرية في كتاب مختصر يوزع بسعر زهيد في جميع الوطن العربي.

٢ – تلفت وزارة التربية نظر مؤلفي الكتب المدرسية في حقل التاريخ القديم الى جعل هذه النظرية أساساً لمؤلفاتهم في المستقبل.

٣ – يرفع أمر هذه النظرية الى المؤسسات الثقافية في جامعة الدول العربية لتوصي الحكومات المشتركة فيها بجعل هذه النظرية أساساً في التأليف التاريخي والمدرسي.

٤ – من واجب المسؤولين في المجلس الأعلى للآداب أن يفوا هذا المؤلف حقه من التكريم المعنوي والمادي. فهو يحق من أعلام الفكر العربي، فضلاً عن أنه من القلة المختارة التي انقطعت للدراسة والبحث والتأليف، ولا نقول الكثير عن نضاله الدائم في سبيل قضية فلسطين وكونه من القيادة العربية التي ناضلت وجاهدت حق النضال والجهاد في سبيل الحفاظ على عروبة فلسطين.

* * *

ب – تستند هذه النظرية العظيمة الى حقيقتين تاريخيتين هما:

١ – هناك أقوام عمرت الشرق الأوسط منذ فجر التاريخ. وقد تعاقبت هذه الأقوام على المنطقة بصورة هجرات متقطعة تحت البابليين والكنعانيين والعبرانيين والفينيقيين والآراميين. وقد اصطلح المؤرخون الغربيون – وجاراهم مؤرخو العرب وبقية العالم – على تسمية هذه الموجات باسم الهجرات السامية.

٢ – قامت في مصر منذ فجر التاريخ

حضارة فرعونية انشأها قوم هم مزيج عرقي من العرقين السامي والحامي .

٣ – آخر موجة اجتاحت منطقة الشرق الاوسط هي هجرة العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي ، حيث طبعوا المنطقة بطابعهم العرقي والحضاري الى اليوم الذي قامت فيه « دولة اسرائيل » حيث بدأت هجرة عرقية جديدة مصدرها أوروبا ، وهدفها تغيير الخارطة السكانية في الشرق الاوسط ، بمحو العرق العربي واحلال غيره محله .

سادت هذه النظرية الابحاث التاريخية منذ سنة ١٧٨١ حين اطلق المستشرق النمساوي إيشهورن هذه التسمية على الأقوام التي عاشت في جزيرة العرب والأقطار المجاورة لهـا ، إستناداً الى ماورد في سفر التكوين من ان سكان هذه المنطقة هم من سلالة سام بن نوح . ثم استمرت هذه التسمية في الأبحاث التاريخية والحضارية والعرقيـة والسكانية والسياسية ، بالرغم من أنها تقوم على خطأ في الاستنتاج . وسبب استمرارها قد يعود الى غفـلة الباحثين أو الى تعمد الغربيين نشر الضلال والخطـأ في تفكير أبناء المنطقة ، اذ ان هذه النظرية تحقق أهدافا استعمارية عديدة :

١ – تنفي عن منطقة الشرق الاوسط طابع العروبة الخالد وتظهر العرب بمظهر الفاتحين الذين طرأوا على ارض غريبة وشعب غريب فأخضعوهما بقوة السلاح ، مثلما أخضع الانكليز ارض امريكا والعرق الأحمر لسيطرتهم مثلاً .

٢ – ينتج عن هذا ان اي ارض تم غزوها بشرياً غزواً كثيفاً فقد اصحابها الأصليون حقهم فيها . وعلى هذا الأساس يبقى الانكليز حقهم المزعوم في أراضي افريقيا الجنوبية : في روديسيا وجنوب أفريقيـا ، وفي نيوزيلندة واستراليا .

وعلى هذا الأساس يدعي مهاجرو الصهاينة حقهم في فلسطين ومهاجرو ايران حقهم في الجنوب العربي ومهاجروا الاتراك حقهم في لواء الاسكندرون : فكل من احتل أرضاً وسكنها أصبحت له ... فاذا تقادم به العهد صار هذا الحق تاريخياً ، وصار حق الأتراك بلواء الاسكندرون حقاً تاريخياً مثل حق العرب في دمشق مثلاً !!

٢ – مادام العرب طارئين على الشرق الاوسط ، في حين ان أصلهم من الجزيرة ، فمن حق سكان الشرق الاوسط باعتبارهم من أصـل سامي ان ينفصلوا عن العرب والعروبة ... بل ان من واجبهم ان يتحرروا من هذا الاستعمار البدوي ، كما يقول أحد المستشرقين : وهذا يؤدي في النهاية الى دفع سكان سورية الطبيعية نحو الاستقلال بأنفسهم والانعزال عن غيرهم ، وكذلك العراق ، وتبقى الجزيرة العربية وحدة منفصلة .

٣ – تخرج مصر من الدائرة العربيـة خروجا نهائيا ، فالمصريون – بحسب هذه النظرية – من اصل فرعوني وليس بينهم وبين العرب سوى صلات تاريخية ، وبالتالي

فليس من حق مصر ان تتدخل في شؤون العرب ، وكل تدخل منها هو محاولة من دولة غريبة لفرض نفوذها ..

٤ – هذه النظرية تترك دول المغرب العربي وحيدة عزلاء تتقاذفها رياح اوروبا كما تشاء ، وتجذبها تيارات أفريقيا بحسب مقتضيات الأحوال ... وفي كل الظروف تمنع هذه النظريات دول المغرب العربي من ان تلقي بثقلها في منطقة الشرق الأوسط ، كما انها تعزل الشرق الاوسط عن المغرب العربي .

٥ – بعد كل هذه التجزئات والعوازل ، يفقد العرب نفوذهم في افريقيا ، وقد طرح العميل تشومبي فكرة أفريقيا للافريقيين على اساس ان الوجود العربي في افريقيا وجود عدواني مصطنع ، مثل وجود الانكليز في أفريقيا ، وان كان العميل الذي تعرض للوجود العربي قد خرس عن الوجود الانكليزي هناك !!

وبناء على نتائج النظرية السامية ، فقد فرخت النظرية ونتائجها نظريات سياسية تبنتها أحزاب متعددة ، تعاونت كلها مع الغرب في محاولة للوصول الى السلطة ومنع الوجود العربي من أن يتحقق في وحدة عربية :

فقد استندت نظرية القوميين السوريين الى ان سكان سورية الطبيعية هم آراميون وقعوا تحت الاستعمار العربي !

واستندت نظرية انعزاليي العراق الى ان العراق بابلي آشوري وقع تحت الاستعمار العربي .

واستندت نظرية مصر الفرعونية الى أن سكان مصر فراعنة وقعوا تحت الاستعمار العربي ..

واستندت النظريات الانعزالية في المغرب العربي الى أن سكان شمال افريقيا هم خليط بربري سامي عربي أوروبي . وبالتالي فهم ليسوا عربا . لذلك وجد في الجزائر من ينادي بالقومية الجزائرية والكيان الجزائري ... وكذلك الأمر في المغرب ، ولا تتحدث عن تونس !

هذه النظرية المسمومة التي غذت الفكر السياسي داخل المنطقة وخارجها بتيارات مشبوهة ؛ هي نظرية خاطئة من أساسها ، كما ان كل ما بني عليها خاطىء . واذا كانت سنة ١٧٨١ هي تاريخ ميلاد النظرية السامية الخاطئة على يدي المستشرق ايشهورن فان عام ١٩٥٦ هو تاريخ سقوطها ، بكشف الحقيقة على يدي المؤرخ العربي محمد عزة دروزة .

تعتمد النظرية السامية في توحيدها للهجرات المتعاقبة نحو الشرق الأوسط ، قبل الفتح العربي ، على اساسين :

١ – وحدة المنشأ : فهذه الموجات جميعها جاءت من جنوب الجزيرة العربية ، أي من اليمن وما والاها . في حين أن موجة الفتح الاسلامي جاءت من شمالي الجزيرة .

٢ – وحدة اللغة : فقد اجمع الباحثون على قيام التشابه بين اللغات البابلية والكنعانية

والعبرانية والفينيقية والآرامية والعربية والنبطية واللهجات العربية الجنوبية اليمنية والسبئية والحضرمية .

هناك نظريات عديدة تختلف في المنشأ الأول للعرب « للساميين » . فمنها مايجعله جزيرة العرب ومنها مايجعله ارمينية او اثيوبية . . وذلك في بدء الخليقة الأولى . غيرانها مانكاد نقترب من العصور التاريخية وماقبلها حتى تكاد تتوحد الآراء وتتركز حول الحقيقتين المذكورتين ، وتتكاثر الأدلة والبراهين عليها.

فأما وحدة الأرومة فيستدل عليها من طريقتهم في التفكير : النظرة الجزئية ، ومن تأثرهم بالغيبيات : الاتيان بالسحر والخرافة والمعجزة ، ومن ميلهم الى البساطة في التفكير والوحدانية في الدين، فضلا عن التشابه الكبير في العادات وأساليب الحياة، مما يؤكد وحدة التفكير والخيال .

وأما وحدة اللغة ، فهناك خصائص تتميز بها مجموعة اللغات العربية « السامية » اوجزها العالم ولنغستون بمايلي :

١ – تعتمد اللغات السامية على الحروف الصامتة ولاتلتفت الى الاصوات .

٢ – أغلب الكلمات السامية يرجع اشتقاقه الى أصل ذي حرفين او ثلاثة .

٣ – ليس في اللغات السامية كلمات مركبة او معنى مركب نتيجة دمج كلمتين في واحدة .

* * *

وقد رأى العلامة محمد عزة دروزة انه مادام الاتفاق قائماً بين العلماء على وحدة الارومة ووحدة اللغة ، فهذا يعني وحدة الأمة . وعلى ذلك وجب أن نسمي الشعوب السامية بالجنس العربي .

ان النظرية السامية تفرق بين هجرات جنوب الجزيرة وبين شمالها ، فتسمي الاولى بالسامية والثانية بالعربية ، ومادام الجميع من موطن واحد فهم من أمة واحدة وأولى ان نطلق تسمية العرب على جميع هذه الهجرات.

كما أن النظرية السامية تفرق بين تاريخ جزيرة العرب وسكانها وبين تاريخ الموجات التي انساحت منه في القديم ، وتجعل تاريخ كل موجة بمثابة تاريخ أمة مستقلة قائمة بذاتها في حين ان هذه الموجات المتتالية انما صدرت عن أمة واحدة هي الأمة العربية ، وعن موطن واحد هو الجزيرة العربية ، من جنوبها اولا ومن شمالها بعد ذلك .

جـ – ان قيمة الكشف العلمي لاتقاس بمقدار الحاجة اليه فقط ، وانما تضاف الى الحاجة عوامل الاصالة والبساطة والوعي . وهذه النظرية تخضع لهذه الشروط جميعها : فهي تلبي مطلباً فكرياً أساسياً في المرحلة الحالية من التجزئة والضلالات الفكرية.

أما اصالتها فتكمن في عمق النظرة وشمولها لامتداد واسعة في الزمان والمكان. ان الاصالة لاتعني الحداثة . فالمؤلف يشير الى ان مؤلفين عديدين وصلوا الى نتيجة أن الشعوب السامية هي العرب ، ومنهم جواد علي وانور رفاعي وعطية الابراشي . غير ان هؤلاء اوردوها

كنتيجة جانبية او كخاطرة ، ولم يوردوها كنظرية أساسية يجب تقويم التاريخ والنظرة التاريخية على اساسها . اما المؤلف فانه أورد النظرية وجمع حولها الشواهد، وألف موسوعة تاريخية متصلة الحلقات ، سلك فيها تاريخ الاقوام الذين يمتون الى جزيرة العرب في سلك واحد ، سواء منهم الذين خرجوا من الجزيرة او بقوا فيها ، قبل دور العروبة الصريحة وبعدها .

أما بساطة النظرية فتكمن في أنها ترد الكثرة الى الوحدة، وترجع الفروع المتشعبة الى الاصل الواحد ، وتمكننا من القاء نظرة اكثر شمولاً وعمقاً على امكانيات الجنس العربي وحيويته وخصائصه ومعنى وجوده .

واما عمق النظرية فنعني به قدرة المفكر على الربط بين الأجزاء في سلك واحد، وردها الى عنصرها المشترك . فقد استطاع المؤلف أن يربط بين الحضارات اليمنية والفرعونية والبابلية والفينيقية والعربية برباط واحد ، ثم يعود بكل ذلك الى أصله الواحد ومنبعه الدائم من العروبة الخالدة .

واذا كانت النظرية التي تحقق تلك الشروط تعتبر فاشلة اذا لم تخلق من الاجزاء المتفرقة تركيباً عضوياً يختلف في صفاته عن صفات كل جزء على حدة ، فان نظرية مؤلفنا تحقق هذا الشرط الأساسي للابداع : فان اصطلاح « الجنس العربي » على ماقصد به المؤلف يشمل مفهوم الشعوب السامية ومصر الفرعونية والعرب الصرحاء . كما أنه يضطرنا الى تكوين نظرة شاملة لتاريخ المنطقة والحضارات المتعاقبة عليها ، ويدعونا الى اعادة تقييم تلك الحضارات بحسب صلات القربى المتواشجة بينها، والى اعادة النظر في مكانة الجنس العربي في تاريخ الانسانية على أساس فاعليته ومواهبه، دون أن يجرنا الى سخافات أصحاب النزعة العرقية لقياس طول الأنف او شكل الجمجمة.

البراهين التاريخية :

ماهي البراهين التي ساقها المؤلف ليوحد بين الفراعنة والهكسوس والكلدان والبابليين والآشوريين والفينيقيين والكنعانيين والآموريين والسبئيين والعرب ؟

هناك اولاً البرهان الجغرافي وهناك ثانياً البرهان الحضاري وهناك البرهان بالقياس ، اضافة الى براهين اللغة وسرعة التمثل ووحدة الثقافة

اما البرهانان الأولان فقد ساقها مؤرخ آخر بصيغة اقوى وتمثل اوضح . نجد ذلك في الجزء الاول من كتاب المؤرخ العظيم أرنولد تويني « دراسة في التاريخ » ؛حيث يقول :

١ - أنشأت الحياة البدائية نظمها في عقيدة الدورة الزراعية السنوية، والتوتمية ، والتابو، والتفريق بين الجنسين . وقد ظلت هذه التقاليد تسود المجتمعات البدائية اجيالاً طويلة، امتدت في بعض البيئات الى يومنا هذا . واما بعض البيئات الأخرى فقد فرض عليها تغير الطقس أن تغير حياتها : **ذلك أن صحارى**

البلاد العربية وأفريقيا كانت قبل ثلاثمائة قرن مراعي خصبة بهيجة، تقطنها مجتمعات بدائية تنتمي الى العصر الحجري المبكر وما أن حل الجفاف في هذه المراعي حتى تحولت الى صحارى، وواجه سكان الصحارى الأفريقية والآسيوية اعظم تحدٍ لوجودهم، وأعظم امتحان لملكاتهم . وقد قابل السكان هذا التحدي بردود فعل مختلفة .

أ – فكان منهم فئة ظلت محافظة على مكانها وطريقة معيشتها ، ولم تستجب للتغيير الطارئ، فكان الهلاك مصيرها .

ب – وكان منهم فئة بقيت في موطنها لكنها غيرت طريقة معيشتها فتحول أفرادها من صيادين الى بدو رعاة .

حـ – وثمة فئة ارتدت الى الجنوب ، تجنبا الجدب ، فوقعت تحت التأثير المنوم للمناخ المداري ، وبقيت على حالها الى اليوم .

د – والفئة الأخيرة استجابت لتحدي الجفاف بتغيير موطنها وطريقة معيشتها معاً . وكان هذا الرد المضاعف سبب ولادة الحضارتين المصرية والسومرية من أحشاء مجتمعاتها البدائية .

وهكذا كان بدء الحضارة حصيلة تفاعل بين الانسان وبيئته ...

وعلى كل الاحوال فقد اندفعت فئات من الشعوب البدائية الى الشمال ، باتجاه ما بين النهرين ومصر نحو مناخ معتدل وأرض سخية .

٢ – غير ان الطبيعة لم تجد عليهم بالأرض الموعودة ، وإنما واجهتهم بتحد آخر : فقد كانت اراضي مصر وما بين النهرين مغمورة بالمياه ، بحيث تشمل المستنقعات معظم مساحتها ، واستجاب هؤلاء المهاجرون لتحدي الطبيعة ، فعملوا على تجفيف مستنقعات ادغال النيل وما بين النهرين ، وبدلوا بها مجموعة منسقة من القنوات والمدرجات والحقول . وبذلك استطاع الانسان لأول مرة في التاريخ ان يخضع الطبيعة لارادته .

٣ – ولم يقتصر تحدي الطبيعة على اراضي مصر وما بين النهرين ، بل تعداها الى الصين وجزيرة كريت . ثم عند المايانيين والانديانيين في امريكا حين كان يقطنها الهنود الحمر . وتسمى هذه الحضارات الست الحضارات الاصلية لأنها نشأت بفعل تحدي الطبيعة للأقوام البدائية رأساً ودون أي عائق بشري.»

الى هنا تنتهي قصة الهجرة ونشوء الحضارات ، كما اوردها عمدة مؤرخي القرن العشرين آرنولد توينبي . ونلمح في الفقرة الثالثة من هذا المقتبس إن الجفاف عم المناطق الخصبة في الكرة الارضية بأكملها مما دفع الشعوب البدائية الى الهجرة . وفي الفقرة الثالثة نجده يرجع بالهجرة الى ماقبل ثلاثمائة

قرن. وبما ان الاحوال المناخية تتحول ببطء ، نرجح ان المناخ لم يستقر الا بعد حوالي مائتي القرن كانت الارض خلالهـا عرضة لهجرات بشرية متعددة لم تستقر إلا في بداية المائة قرن الاخيرة . وهذا التخمين يتناسب مع الابحاث الفلكية الحديثة التي تقرر ان البقع الشمسية تؤثر على الاحوال المناخية في كوكبنا الارضي ، وأن هذه البقع تتنقل خلال العصور غير عابئة بمصائر البشر .

وما يهمنا في هذا الصدد هو ان تقديرات الفلكيين تتفق مع تقديرات المؤرخين، من أن الأحوال المناخية حين استقرت استقرت معها احوال العروق البشرية بعد هذه التحولات العنيفة . وقد اصاب العرب في جزيرتهم ما اصاب غيرهم من العروق ، فاستجابوا لنداء الحياة وتحولوا عن موطنهم الجاف باتجاه الشمال والجنوب مما ادى الى نشوء الحضارتين المصرية اولا ثم الكلدانية على مابقوره توينبي وغيره .

ماهو أصل المصريين الفراعنة؟

سؤال حار المؤرخون – أو اصطنعوا الحيرة – في الاجابة عليه .مع ان نظرة الى الخارطة كفيلة بأن تدلنا على الاجابة الصحيحة. فأوروبا لاتتصل بمصر إلا عن طريق البحر . ولما كانت بقظة ابناء هيلاس لاتعود الى اكثر من ستمائة عام قبل الميلاد فان احتمال وجود العنصر الآري في دماء المصريين القدماء غير وارد .. حتى ولو عدنا القهقرى ألوف السنين لنقابل الحضارة المينوية التي نشأت في كريت فان احتمال استيطان الآريين في مصر يظل بعيداً .

وتبقى مصر معرضة للحاميين والعرب ، مع العلم بأن ليبيا كان يقطنها سكان من العرق الابيض ، وتدل مخلفاتهم على انهم عرب « ساميون » .

فالشعب المصري القـديم خليط من الافارقة والعرب . يأتي الأفارقة من افريقيا الوسطى عن طريق اثيوبيا والسودان متتبعين مجرى النيل ويأتي العرب عن طريق برزخ السويس وصحراء سيناء شمالا وعن طريق الجنوب : يعبرون مضيق المندب الى الصومال فالسودان فمصر .

فاذا عدنا الى مدونات الفراعنة ، وجدنا التاريخ الفرعوني بأكمله حافلا بمشاغل مصر في الشرق الاوسط وليس في افريقيا ، ووجدنا أيضاً ان مصر الفرعونية كانت موطنا للهجرات العربية . فأول فرعون مصري « مينا » قام برحلة الى سيناء لصد القبائل الغازية .. وفي هذا مافيه من الدلالة على اتصال الهجرات العربية الى مصر قبل تكوين الدولة بأجيال ودهور .

يضاف الى ذلك ان المصريين القدماء أنفسهم سجلوا في كتاباتهم اعتقادهم بأن اصلهم يعود الى بلاد « بونت » أو « بنت » وهي بلاد اليمن : لذلك كانوا يعتبرونها مقدسة ويسيرون اليها القوافل والاساطيل للتجارة والغزو . ونحن نميل الى الاقتناع بذاكرة الشعوب ،

خاصة وان هذا النص ورد في عهد الأسرة السادسة في الألف الثالثة ق . م . اي قبل ان تندرس من الذاكرة الشعبية اساطير الاسلاف . فضلا عن إن كثيراً من الدارسين يسلك الهيروغليفية في سلك اللغات العربية « السامية » ويقول أحمد كمال مؤلف « تاريخ السودان القديم » والمختص باللغة الهيروغليفية : « ان أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد . وان الاختلاف الظاهر بينها ليس إلا نتيجة إسقاط بعض الكلمات في الجزيرة العربية وبقائها في وادي النيل او العكس ، ثم نتيجة لما يعتري الكلمات من القلب والابدال ، وما يطرأ على اللغات من تغيير بمعاملة الاجانب ، وخاصة اثناء عملية الامتزاج بالجنس الحامي » .

أما فيليب حتي في كتابه « تاريخ العرب » فقد سلك اللغة المصرية القديمة في سلك اللغات الآشورية والبابلية والآرامية والكنعانية والعبرانية والسبئية والحبشية والعربية : وهذا يدل على أن المصريين القدماء عرب من عرب الجنوب امتزجوا بالحاميين وكونوا شعباً يتميز بعض التميز عن الشخصية العربية القديمة : بل إن موجات عربية لاشك في صدورها عن الجزيرة العربية ، كالفينيقيين والآشوريين ، كونوا شخصية تختلف عن شخصيتهم القومية الأصلية في اليمن . ذلك ان التفاعل بين الأرض والانسان قوي الى درجة كبيرة : فسكان السهول أرق لغة من سكان الجبال ، والشعب المنعزل أصفى لغة من الشعب المنفتح على العالم . ومالنا وللمماحكة وهذا هو الفرق واضح في يومنا هذا بين لغة سكان امريكا وبين لغة سكان استراليا وبين لغة سكان بريطانيا مع أن الجميع يعودون الى أرومة واحدة ، ولم تنقض خمسة قرون على مغادرتهم للوطن الأم !!

وقد قرر غوستاف لوبون في كتابه « الحضارة المصرية » أن كل جذور اللغة المصرية القديمة ومعظم قاموسها يتركب من عناصر سامية ، حتى قواعد نحوها فيما يتصل بالتذكير والتأنيث والجمع . والكلمات البعيدة عن الأصل السامي ترد الى الجنس الأسود الذي طرأ على مصر .

وأخيراً فان جبرائيل هانوتو مؤلف « الجنسية المصرية » يقول « إن مميزات العنصر السامي بارزة في سحن وصور ومحنطات ملوك مصر منذ أقدم أزمنة التاريخ المصري » .

وهكذا ، فان كان في مصر سكان قبل العرب فقد ذابوا في الكثرة العربية التي استمرت في اجتياح مصر عن طريق الهجرة بالسلم والحرب ، قبل التاريخ وبعده ، على اعتبارها من مهاجرهم الطبيعية شأنها في ذلك شأن الشام والعراق .

على أن عرب الجنوب لم يهاجروا الى مصر عالة عليها ولا على من كان فيها — اذا سبقهم احد اليها — بل هاجروا وحملوا معهم حضارتهم التي انشأوها في الجنوب . وقد جاء في الجزء الأول من تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ، نقلاً عن عبد

الله فيلبي صاحب الدراسات المسهبة لأحوال جزيرة العرب :

« ارسلت العربية الجنوبية موجات متعاقبة من البشر سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت الى المناطق التي إستقرت فيها ، وقد حلت معها كل ماتملكه من اشياء ثمينة : آلهتها وثقافتها وخطها الذي اشتقت منه سائر الأقلام ، ومنه القلم الفينيقي ، وطبعت تلك الأرضين الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع (السامي) الذي مازال باقياً الى اليوم » .

ادخل العرب معهم الى مصر معرفة المعادن وبخاصة النحاس ، ولم يكن الحاميون قد خرجوا من العصر الحجري بعد . كما أنهم ادخلوا دياناتهم وعبادة الأموات وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية . ويكاد يجمع المؤرخون على أن آخر موجة عربية « سامية » دخلت مصر قبل التاريخ ، تعود الى ستة آلاف سنة قبل المسيح . وقد دخلوا مصر من غير عنف عن طريق سيناء واستقروا فيها . وأهم الوثائق التي بقيت من عهد هجرتهم ألواح أردوازية منقوشة على اشكال مختلفة لم يتيسر حلها ، وهي التركة الوحيدة لهذا الفتح الطويل الذي انتهى بتوحيد وادي النيل تحت تاج الفرعون مينا وأعقابه الذين ألفوا الأسرة الأولى وهي من أصل عربي « سامي » . وقد حكمت ٣٢٠٠ ق . م . ومما يؤكد رقي الحضارة التي جلبها معهم المهاجرون العرب أن فراعنة الأسرة الأولى عمروا أول هرم في مصر ، وأسسوا حكومة متينة البنيان تعتمد على ادارات للتموين والمالية والجباية ومصروفات الموتى ، فضلاً عن الفنون الجميلة والهندسية والعلوم وفي طليعتها الطب .

واذا كان المرجح أن غالبية الموجة العربية التي وحدت مصر قد جاءت من اليمن عن طريق مضيق المندب الى الصومال فأثيوبيا ، فان من الثابت أن العرب وصلوا الى مصر ايضاً عن طريق سيناء ، لأنهم منحوا هذه الصحراء اسم الههم القديم « سين » أي القمر ، وكان عرب اليمن يعبدونه .

وقد جاءت الى مصر عن طريق سيناء موجة عربية اخرى بدأت في مطلع القرن التاسع عشر للميلاد واستولت على السلطة في حوالي ١٧٠٠ ق.م وعرفت باسم « الهكسوس » أي ملوك الرعاة . ومن الثابت أنهم من سكان الشام وما بين النهرين . ويورد درايتون ملاحظة ذكية وهي أنه يجب ربط هجرة الهكسوس بحركة هجرة سابقة لها : فقد تدفق الآريون « الحثيون » على الشرق الأدنى فدفعوا الساميين أمامهم واضطروهم الى الاتجاه نحو بلاد كنعان ثم الى مصر — وكانت مصر آنذاك قد تفككت وتحولت الى عهد اقطاعيين مستقلين — فاستولوا على الدلتا ثم على مصر الوسطى واكتفوا بالجزية من مصر الجنوبية . وتدل الآثار على أن الهكسوس ادخلوا الى مصر صناعة البرونز وجلبوا معهم الخيل والعربات ، وكان لهم ولع ببناء المدن وبالفنون . وقد دامت سيطرتهم حوالي قرنين ثم تغلبت المقاطعات الجنوبية فهاجر بعض الهكسوس الى سورية ، وهاجر معهم العبرانيون الذين دخلوا مصر معهم .

هذا ولا يفوتنا في ختام هذا السرد ان ننوه – دلالة على وحدة الثقافة – على التشابه بين عقيدة أوزيريس في مصر وأدونيس في الشام ، بما حمل آثاره الروحية على عقائد الفداء والقيامة التي جاءت بعدها ، مما جعل شعوب المنطقة تعتنق الديانة المسيحية بسهولة ويسر .

ان الوحدة الثقافيــة والوحدة اللغوية ووحدة الأرومة بين شعوب هذه المنطقة هي التي يسرت للعرب احلال لغتهم محل اللهجات السابقة ، واحلال شريعتهم محل الشرائع السابقـــة ، وليس سيوفهم فقط . وهذا مايفسر لنـــا اخيراً براهين سرعة التمثل والبرهان بالقياس .

فأما البرهان بالقياس فهو ما نشاهده ونعيه الآن ، وما دونه التاريخ المعروف – عند الفراعنة والآشوريين والعرب – من توالي الموجات العربية على هذه المنطقة .. مما يدل على توالي هجراتها قبل التاريخ .

أما برهان سرعة التمثل فنفضل ان نورده على لسان المؤرخ ، حيث قال في مقدمة الجزء الاول من كتابه ص ٩ مايلي :

١ – ... ولقد حكم اليونان والرومان مصر وبلاد الشام ألف سنة (٣٣١ق.م – ٦٤٠ب.م) وجاء منهم اليها – وخاصة من اليونانيين – الآلاف المؤلفة . واستقروا فيها ونشروا لغتهم وثقافتهم . وقد جمع بينهم وبين سكان البلاد دين واحد هو المسيحية ، قرابة اربعة قرون ، وترجمت الى اليونانية الكتب الدينية المقدسة ، وصارت لغة عبادة وطقوس لكثير من النصارى فيها ، ومع ذلك فانهم لم يستطيعوا ان يفرضوا على مصر وبلاد الشام طابعهم وصبغتهم ، بل لقد كان جمهرة أهلهـــا يرونهم غرباء عنهم وينقبضون عن معاشرتهم ويعتبرونهم أنجاساً .

« وكذلك شأن الفرس الذين كانت لهم السيـــادة على العراق اكثر من الف عام (٥٣٨ ق.م – ٦٤٠ ب.م) وكان لمدينتهم وثقافتهم انتشار واسع ، حتى لقد مجسوا كثيراً من أهل البلاد ولكنهم لم يستطيعوا ان يفرضوا عليها طابعهم وصبغتهم ، في حين ان الموجات العربية الصريحة العروبة التي جاءت الى بلاد الشام والعراق في حكمهم ورضخ ملوكها لسيادتهم العليا ، أخذت تفرض طابعها على البلاد وتمتزج بأهلهـــا بسهولة ويسر .

٢ – « ثم جاءت موجة الفتح الكبرى تحت راية الاسلام الى بلاد الشام والعراق ومصر ، فأخذ التمازج يشتد بينها وبين السكان السابقين . ولم يكد يمضي بضعة أجيال حتى توطدت السيادة في هذه البلاد للطابع العربي الصريح ، وغدا شاملا عاما .

« وليس هناك تعليل معقول لهذه الظاهرة الا صدق نظرية وحدة الأرومة والدم والروح التي كانت تجمع بين القادمين من جزيرة العرب في دور العروبة الصريحة قبل الاسلام وبعده وبين سكان بلاد الشام ومصر الذين يمتون في اصولهم الى جزيرة العرب والجنس العربي ؛

حيث سهلت تلك الوحدة ذلك التقارب والتآزج وسيادة الطابع العربي على هذه البلاد.

٣ – « واذا كان بدا شيء من المناوأة ضد موجة الفتح من بعض سكان مصر والشام والعراق ، أو تمرد على السلطان الاسلامي في اوائل عهده ، فرد ذلك الى الاعتبارات الدينية والتحركات الاجنبية ، وليس من شأنه اضعاف النظرية . ولقد كان من جملة المناوئين والمتضامنين مع الفرس والرومان في بلاد الشام والعراق قبائل عربية صريحة من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان في بلاد الشام ، وبكر بن وائل وبني عجل وتيم اللاة وضبيعة في العراق .

٤ – « واذا كان حقاً ان الذين ظلوا في جزيرة العرب قد احتفظوا بنقاوة سلالتهم وأصالة لغتهم اكثر من الذين انساحوا الى خارجها . وأن هؤلاء قد اختلطوا بعناصر وأمم اخرى ممن كان في الأرض الجديدة التي حلوا فيها وبمن جاء اليها بعد حلولهم واكتسبوا كثيراً من دمائهم ولغتهم وعاداتهم ، وبالتالي اكتسبوا شخصية خاصة نوعاً ما . فان هذا ليس من شأنه أن يخرجهم من جنسية العروبة ويجعلهم أمماً غريبة عنها ؛ ويبرر صدم سلك تاريخهم في سلك تاريخ الجنس العربي اسوة بمن ظلوا مستقرين فيها بالنسبة للزمن التاريخي الذي عاشوا جميعهم فيه ؛ لأن وجوه التشابك والتشارك بينهم وبين اولئك المستقرين وفيما بينهم أنفسهم على اختلاف الاقطار التي حلوا فيها وعلى اختلاف الادوار التي عاشوها كذلك ظلت بارزة » .

هذه هي أهم الدفوع التي يوردها المؤلف في صدد سرعة تمثل سكان العراق والشام ومصر وشمالي افريقيا للفتح العربي وتجاوبها معه . ويبين المؤلف في الفقرة الثالثة أسباب المقاومة التي ظهرت احياناً في وجه الفتح العربي . أما في الفقرة الرابعة فيبرر المؤلف موقفه من توحيد الموجات العربية التي خرجت من الجزيرة مع ابناء الجنس العربي الذين بقوا في جزيرتهم ، مادامت هذه الموجات قد طبعت البلاد المفتوحة بطابعها ، ولم تذب في السكان . بل ان عملية الدمج لم تنحرف كثيراً بشخصية المهاجرين ، بسبب وحدة الارومة بين السكان الأصليين والمهاجرين الجدد .

وعلى ذلك تكون الموجات المتتالية التي صدرت عن جنوب الجزيرة العربية مماثلة في الجنس واللغة مع الموجات التي صدرت عن شمال الجزيرة العربية : فالجزيرة العربية لا يسكنها الا جنس واحد هو الجنس العربي ، ولا فرق في ذلك بين عرب الشمال وبين عرب الجنوب . وبذلك أيضاً تكون مناطق العراق والشام ومصر وشمالي افريقيا هي الوطن التاريخي للأمة العربية لا ينازعها فيه منازع ، ولاحق لغير ابنائها بأرضها وثرواتها . كما ان وحدة الوطن ووحدة الأمة منذ عصور ما قبل التاريخ الى الآن لا يؤديان فقط الى وحدة اللغة والتفكير والثقافة ، بل يفرضان عليها السير في طريق الوحدة الفكرية والسياسية ، ويسقطان كل

دعوى للتجزئة بين أبناء هذا الوطن سواء على اساس تاريخي أو عرق او حضاري أو سياسي . وكل ادعاء بالتفريق بين العرب في مختلف اوطانهم ، انما هو ادعاء باطل لايستند على اساس علمي في اي حقل من حقول التاريخ والفكر والجنس . وإن الوفاء للأمة العربية ولوجودها عبر التاريخ والمستقبل يقضي على كل فرد من افرادها ، وعلى كل مؤمن بالحقيقة ، ان يسعى ليوحد أجزائها ويبرز كيانها على مسرح التاريخ من جديد. فلن يكون ظهورها ككل موحد إلا لخير الانسانية والتقدم الانساني ، لأن هذه الأمة لم تبرز على مسرح التاريخ مرة الا ودفعت عجلة التقدم البشري خطوات عديدة الى الأمام .

فقد ظهرت الأمة على مسرح التاريخ العالمي عبر حضارات الفراعنة والبابليين والفينيقيين والآشوريين والعرب ، فكان من ثمار ذلك تعلم الانسانية مفهوم الدولة والأبجدية وهندسة البناء وتحرير الانسان من الخرافات والاوهام ووصله بالروح الكلي الخلاق ، منبع القيم ومصدر الحياة .

وان امة لها مثل هذه المآثر لهي أمة جديرة بالخلود بل الوجود .

* * *

لن يتسع المجال في هذه العجالة — وهي عجالة بالنسبة لجهد المؤلف — لكي نبين مآثر بقية أجزاء تاريخه التي تناول فيها بالتفصيل مجريات التاريخ العربي الاسلامي في طور العروبة الصريحة .

غير ان ما نود ان نركز عليه الأفكار والأنظار هو ان المؤلف فقيه متبحر في امور الشريعة الاسلامية . وهذا ما كان يحتاج اليه التاريخ العربي الاسلامي العام ؛ لقد كان الدين الاسلامي هو المرشد الايديولوجي للمفكرين السياسيين في الحضارة العربية ، واذا اراد مؤرخ ان يفهم التيارات السياسية في الحضارة العربية فعليه ان يكون عميق الاطلاع على مفهومات الامامة ، والاجماع ، والشورى ، وأهل الحل والعقد والعلم والشأن ، والحرية الفردية ، وصلات المسلمين بغيرهم ، وموارد الدولة من الزكاة والفيء والجزية والغنائم والصدقات ، ومكانة القضاء والجهاد والدعوة الى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ان كون المؤلف متبحراً في قضايا الفقه الاسلامي يجعل تاريخه عمدة التواريخ العربية الحديثة ، في محاولة فهم الحياة السياسية العربية من الداخل أي من ضمن منطق الحضارة والدولة موضوع البحث . وهذا ما يجعلنا نحكم بأفضلية تاريخه ، ونرجح أنه يحتوي « الحقيقة التاريخية » كما حدثت وأسباب حدوثها بحسب منطق عصرها .

وفي يقيننا أنه بعد هذا التاريخ يمكن للمؤرخين أن يضعوا تفسيرات حديثة للأحداث القديمة . تفسيرات قومية أوطبقية او غير ذلك .. اما قبل وجود هذا التاريخ فمحاولاتهم لاتستند على أساس من « الحقيقة التاريخية » التي كشف عنها المؤرخ ، حين ربط بين الفكر السياسي الاسلامي والأحزاب السياسية التي انبثقت عنه ، حسب روح العصر ذاك ومفهوماته .

وسرنا بنعشك نحمل دينا ..

شعر: نصر سمعان
سان باولو — البرازيل

أتيتُ أعاتبُ عنك القدرْ (*) وفي الصدر حشرجةُ المحتضرْ
وجئتُكَ أنثرُ روحي رثاءً ونُورُ عيوني بدمعي انتثرْ
ولم تدرِ كيفَ تلظّت جفوني وكيف أذابت دموعي البصرْ
وكيف تأوّهَ قلبي عليكَ وكيف تأوّهَ مثلي الحجرْ
أخي يا أخا الرُّوحِ مالَ الزمانُ وأطيبُ ما في الزمانِ عبرْ
لقد كنتُ أعشقُ صفوَ الحياةِ فأصبحتُ بعدكَ أهوى الكدرْ
وياشؤمَ يومٍ رأيتكَ فيهِ أسيرَ المنايا رهينَ الحفرْ
فكنتُ لديكَ قتيلَ الأسى كما كنتَ انتَ قتيلَ القدرْ

(*) القى هذه القصيدة الشاعر المهجري نصر سمعان في الحفلة التأبينية التي اقيمت لفقيد الأدب المهجري جورج حسون المعلوف الذي ذهب ضحية صدمة سيارة كما حصل بحادث مماثل، المرحوم توفيق ضعون.

أُناجيكَ بالصمتِ آناً وآناً ... بما من دموعي عليكَ انهمَر
وواللهِ لو أسعفتني القوافي ... لأسمعتُكَ الرائعاتِ الغُرر
ومثلي في عجزهِ من أساءَ ... ومثلك في حلمهِ من عذر
لقد كان لي الشعرُ إلفاً وفياً ... فكيف جفاني وكيف غدر ؟
تحطّمَ بين ضلوعي الربابُ ... وقُطّع فوقَ الحنايا الوتَر
وماتَ الكلامُ على شفتيّ ... وضلّت هُداها اليّ الفِكَر
ولُذتُ بآهاتِ قلبيَ لمّا ... تطايرَ من زفراتي الشَرر
وتعلمُ كيف بكاك فؤادي ... بكلّ فؤادٍ عليك انفطَر
قضاءٌ قضى أن تشدّ الرِحالَ ... الى سفَرٍ لايليهِ سفَر
ولم يُجدِ أنّا حذرنا عليك ... وبعضُ المنايا بناتُ الحذر !
وهيهات هيهات تجري الأمورُ ... الى غير ما اللهُ فيه أمر
تحرّكَ ركبُكَ ركبُ المنايا ... وبرقُهُ المدلهمُ انتشَر
وسرنا بنعشِكَ نحملُ دُنيا ... من الأدبِ المعجزِ المبتكَر
نردّدُ آياتِكَ الخافلاتِ ... بأسمى خيالٍ وأزهى صُور
« أقاصيصَ » من سيَرٍ في الحياةِ ... تتيهُ وتزهو بهنّ السيَر[1]
تجلّت من الوصفِ آياتِ سحرٍ ... ومن مُعجزاتِ البيانِ سُور
وللبَدوِ منها حديثُ الندامى ... ومنها غذاءُ النُهى للحضَر
سَهِرتَ الليالي لنيلَ المعالي ... فنلت أعالي العُلى بالسهَر
أنيسُك في الخلواتِ اليراعُ ... المبيدُ الملالَ المُزيلُ الضجَر
يَراعٌ نذرتَ الوفاء لهُ ... فكنتَ أبرَّ وفيّ نذر

(١) « الأقاصيص » سفر نفيس من مؤلفات الفقيد .

أضافَ الغواليَ الى ماتُباهي ... به الضادُ في كنزِها المُدَّخَر
وبالسحرِ وشّى البيانَ العجيب ... وكم مِن بيانٍ عجيبٍ سَحَر
كأنَّ الربيعَ غفا في الطُروسِ ... وبين يديك ازدهى وازدهر
وقُلت الخلودُ لربِ اليراعِ ... وكم من عظيمٍ سواهُ اندثر
ويارب مُستَنصِرٍ بالحُسامِ ... لدى المِرقَمِ العبقريّ اندحر
ولا ظَفَرٌ في صَليلِ السيوفِ ... صَريرُ اليراعِ نشيدُ الظَفَر

* * *

أخي ارهقَتني العوادي الأوالِي ... فكيف تكون العوادي الأخَر
وكيف أصبر قلبي عليك ... الى يوميَ القادمِ المُنتظَر
ذكرتُكَ والداءُ ينهشُ قلبي ... ويشربُ من دَمِهِ ما اعتَصر (١)
زمان غطائي نسيج اللهيب ... وحشوُ فِراشي رؤوسُ الإبر
تؤُمُّ وسادي وتنفي اعتقادي ... بأني اخوضُ غمارَ الخَطر
وكنتُ اذا ماحضرتَ اليَّ ... أقولُ لنفسي الشِفاءُ حَضَر
تُمتّعُ رُوحي بعذبِ الحديثِ ... الرقيقِ الحواشي البليغ الأثر
فمنهُ أرقُ الدُعاباتِ لُطفاً ... ومنهُ العِظاتُ ومنهُ العِبرَ
ولله كم من عُقول سبى ... ولله كم مِن قلوبٍ أسَر
كشدوِ الطيورِ أطلّ عليها ... بأنوارِهِ الساحِراتِ السَحَر
أأقنِعُ نفسي وشخصُك مِلءُ ... العيونِ بأنك طيفٌ عَبرَ
ولما تواريتَ عن ناظرِيَّ ... وعَمْرُكَ التُربُ في ما غَمَر
لثمتُ الضريحَ وفي القلب جَمرٌ ... اذا مَسَّ صخرَ الضريحِ استَعر

(١) أَلمَّ بصاحب القصيدة داءٌ أرغمه على ملازمة الفِراش سنة كاملة كان الفقيد في أثنائها يعوده يومياً مؤاسياً ومسلياً ومخففاً عنه وطأة السآمة والملل .

ورُحتُ أطوفُ بين القبورِ ... طعينَ الفؤادِ حسيرَ النظر
وأستنطقُ الهامدينَ لعلّي ... أعودُ وفي السّمع عنك خبر
فكنتُ كباغي نضوب البحارِ ... ليجمع منها غوالي الدُرَر !!

* * *

هنيئاً لك اليومَ دنيا الهناءِ ... وهجرك دُنيا الأذى والضرر
نعيش على تربةٍ تستسيغُ ... دماءَ الورى وتعافُ المطر
تكاثرَ فيها عديد الرمالِ ... وأكثرُ منها ذنوبُ البشر
ذنوبٌ تشيب لها حالكاتُ ... الليالي ويسودُّ وجهُ القمر !
وما الموتُ ما الموتُ بالله اكشف ... ليَ اليومَ من سرّه ما استتر
تجلّى لعينيك نورُ اليقين ... وأضحى ما في الخفايا ظهر
فأينَ مقرُّ النفوس اللواتي ... خلعن على القبر ثوب المدر
وأين العباقرة النابغون ... وعن أيِّ دنيا النبوغ صدر
وأين أبو الطيّب المتنبي ... وأين عليٌّ وأين عُمر
ومَن ذِكرُهم في سجلّ الخلود ... خطيرُ الجلال جليلُ الخطر
ضنائنُ ربّكَ هذي الخفايا ... وهيهات تبلغُ منها الوطر

* * *

أعدْ لي بربّك عهدَ الوصالِ ... وزهوَ الليالي وطيبَ السمر
زمانَ البيانُ يغذّي النفوسَ ... بأعذب راحٍ وأشهى ثمر
تُديرُ علينا سُلافَ المعاني ... رحيقاً بأزكى الطيوب اختمر
وحاشا تبارحني الذكرياتُ ... وحاشا تغيّرُ قلبي الغِيَر

الأدب المهجري

معجزة العروبة في العصر الحديث

— ٤ —

عرض وتحقيق: فريد جحا

ننشر فيما يلي الحلقة الرابعة والأخيرة من التحقيق الذي نشرت (المعرفة) اجزاءه، حول موضوع (الأدب المهجري). وللاستاذ جحا، من اسرة التحرير، كل شكر وتقدير.

جواب الدكتور عبد الكريم الاشتر :

عن بلودان ٢٨/٨/١٩٦٦

اخي الاستاذ فريد

تحية عطرة

تلقيت كتابك، واسأل الله ان يعينك على بحثك .

فاما سؤالك عن تفرد المهاجرين العرب في اميركة بالكتابة، فاحسب انك انتهيت فيه من سؤال آخر ماأدري كيف نجيب عنه، وهو : هل تفرد المهاجرون العرب في اميركة بالكتابة حقا، مايدرينا ان يكون الصينيون — مثلا — قد كتبوا كما كتب بعض كتابنا في اميركة الشمالية ؟

فاذا صح ان كتابنا وحدهم في المهجر هم الذين كتبوا ، فينبغي اذن ان نتلمس لهذه الظاهرة أسبابها الذاتية من تكوين الادباء الذاتي والملابسات التي لابست هجرتهم في الوطن والمهجر معا ، وهي ملابسات خليقة ان تفجر النفس المرهفة الهاربة بآمالها ومطامحها وآلامها من وطنها الحزين .

تقبل تحياتي ايها الاخ العامل ، وخالص تقديري .

عبد الكريم الاشتر

جواب الاستاذ يعقوب العودات

عن عمان ١٩٦٦/٨/٢٤

سألني صديقي الاديب البحاثة الاستاذ فريد جحا رأيي في تفسير ظاهرة « كون المهاجرين العرب الى امريكا هم وحدهم — من دون سائر المهاجرين — الذين انتجوا ادبا بلغتهم القومية الام . »

ولو قدر لي ان القى الاستاذ جحا وهو في طريقه الى وضع هذا السؤال لاقنعته بان يكون على هذه الصورة « لماذا انتج المهاجرون العرب ادبا بلغتهم الاصلية دون سواهم ؟ »

في الامريكتين جوال من شتى الالسن والاقطار ، وفي البرازيل تلقى الياباني والصيني والايطالي والاسباني والامريكي والبريطاني وكلهم غالى بلغته الاصلية ونظم مشاعره شعرا وصور خواطره واخيلته نثرا بلغته القومية الام ، وقليل منهم من نظم بالبرتغالية لغة البرازيل .

ومن حق الاستاذ جحا ان يسأل : « ما السر في اقبال هؤلاء المغتربين على انتاج ادبهم بلغتهم القومية ؟ »

في رأيي المتواضع ان اقبال من عددنا وذكرنا كان بوحي من تعصبهم لقوميتهم واعتصامهم بحبل لغتهم الام .

والعرب الذين هاجروا واتيح لهم ان ينتجوا ادبا بلغتهم القومية نفر واع بارحوا بلادهم الاصلية وهم يقرأون ... ويكتبون ... ومنهم من انهى دراسته

الثانوية ، وبعضهم اصاب الكثير من دراسته الجامعية .

وبعد ان القى هؤلاء المهاجرون عصا الترحال في ديار الغربة اخذوا يتاجرون بـ « وزناتهم » . ومـا « وزناتهم » الا ما اكتسبوه من معرفة وعلم خلال دراستهم في مسقط رأسهم . وفي البلاد التي نزلوا ارهفوا اقلامهم وراحوا ينتجون ادبا بلغة الضاد التي فاخروا بروائعها وغالوا بصورها ... وكان « الكتاب المقدس » لاكثرهم ديوان المتنبي واللزوميات والعقد الفريد .

وما دام الوعي طابع اولئك العرب المهاجرين فلا شك في ان انتاجهم سيكون بلغة (الضاد) التي عشقوها ، لا بلغة البلاد التي القوا فيها عصا التسيار .

واذا لم يكن الريحاني وجبران وابو ماضي وايوب وعريضة وغيرهم (في الشمال) والشاعر القروي وفرحات وفوزي وشفيق معلوف وجورج صيدح ونصر سمعان وحسني غراب وميشال مغربي ويوسف فاخوري وتوفيق بربورغيرهم (في الجنوب) اوفياء (للضاد) ، فمن يكون الاوفياء لها والغيارى عليها والمغالون بهـا وهم منحدرون من الامة التي كانت لغتها ام اللغات ؟

البدوي الملثم

جواب الشاعر الاستـــاذ محمد عبـــد الغني حسن – القاهرة

اخي الاديب الفـاضل الاستاذ فريد جحا

حلت رسالتك المؤرخة ٢٠/٨/١٩٦٦ ، تحمل – على ايجازها – فضلاً واحسان ظن . فقد كتبت الي أيها الأخ الباحث تطالبني الرأي في تفسير ظاهرة (كون المهاجرين العرب الى امريكاهم وحدهم – من دون المهاجرين – الذين أنتجوا ادباً بلغتهم القومية الأم ؟ والحق ان سؤالك هذا قد اثار في النفس مسائل كثيرة ، وحملها على ان تذهب في تاريخ الهجرة الى العالم الجديد ابعد مما ذهبت اليه وهي

تتحدث عن هجرة العرب الى امريكا في كتابها — او كتابي — (الشعر العربي في المهجر) الذي تفضلت واحسنت الظن به وبوضعه من الانتاج في موضوع الادب المهجري. ولا أنسى أن اذكر لك هنا انني قرأت لك في (الحنين واللقاء في شعر المهجر) كلاماً جيـداً. ولا تحسبني هنا اقارضك الثناء، فكل يد تسدى الى ادب المهجر هي في الحق يد جديرة ان لا تنسى.

واذا كنت يا اخي تريد بامريكا هذا النصف الشمالي من العالم الجديد فانت على حق في استظهارك وتقريرك، والا فان المهاجرين من الاسبان والبرتغـال الى امريكا الجنوبية قد احتفظوا بلغتهم الام وانتجوا فيها ادباً ملحوظاً كما انتج العرب في الامريكتين: الشمالية والجنوبية. امـا تفرد العرب في امريكا الشمالية بالاحتفاظ بلغتهم القومية واصرارهم على الانتاج فيها او على بقائها ملازمة لكيانهم هناك فهو ظاهرة تستحق التنويه بها.

فانهم لم يسمحوا لانفسهم ان يذوبوا في عالم غريب جديد عليهم، ولم يروا من مقومات شخصيتهم ان يتغادوا بلغتهم في لغة القوم هنـاك، فظلوا لا يكتفون باستعمالها في شؤون تخاطبهم مع بعضهم بعضاً وفي امور معايشهم هناك، ولكنهم ذهبوا الى ابعد من هذا من الحفاظ. وما كانوا مطالبين به ولا مجبرين عليه ولا مضطرين اليه. فحاولوا أن يقيموا من العربية هناك تراثاً محلياً، ولم تنسهم مشقات الحياة هناك ان يعبروا عن تجاريبهم في العالم الجديد تعبيراً ادبياً جمع بين الشعر والنثر. بل حاول من لم يستكملوا ثقافتهم اللغوية في المشرق ان يحملوا النفس على تجويدها في المغرب، على الرغم من بعـدهم عن منابع اللغة ومصادر تراثها. ولعل خير مثال يحضرنا على هذا هو الياس فرحات.. وانت خير من يعلم انه غادر مقاعـد المدرسة وهو طفل لم يجتز العاشرة. ولكنه جـاهد النفس وصبرها مع القارئين حتى استقامت ثقافته وحتى انقادت له الاساليب السوية المطاوعة لمعانيه الجياد.

الا يحملنا هذا على ان نقول ان نوعاً من الاصرار على الشخصية قد حمل العرب في العالم الجديد على أن ينتجوا ادباً عربياً رائعاً ؟ وانهم قد كان يمكن ان يكون لهم منادح كثيرة عن هذا النتاج الذي لم يحملهم عليه حامل لو انهم لم يريدوه ؟ فهنا ارادة عربية حاولت ان تحقق كيانها في أعلى مظاهره . وقد كان يمكنها ان تذوب في المحيط الذي القت بها الاقدار فيه . .

ومما يؤكد هذه الارادة ان بعض المهاجرين في الشمال كان متفوقاً في الكتابة بالانجليزية والروسية — مثلا — مثل ميخائيل نعيمة ، وانهم كتبوا في غير العربية كتبا رائعة مثل جبران ونعيمة ولكنهم لم يقطعوا صلتهم بلغتهم العربية بل ازدادوا تجويداً في الكتابة بها . ولقد كان لكاتب مثل جبران — وقد وجدت كتبه في الانجليزية اقبالا منقطع النظير — ان يقتصر في تأليفه على غير العربية ، وان يرضى بما تجلبه له الكتابة بالانكليزية من ربح مضمون ، وما كان يلوم على هذا الا لوم الضمير العربي الذي أبى عليه ان يتخلى عن لغة قومه ، حتى على الرغم من تحرره او تساهله في التعبير بها ، فليس المهم ان تصح عبارته العربية ، ولكن المهم ان تتحقق عبارته العربية في مزدحم يعج بالانكليزية . .

فالشخصية العربية هنا غلابة مصرة على تحقيق الذات . ولعل للظروف المحيطة حكمها الآسر في هذا المجال . فهناك عشرات وعشرات من الشعراء والكتاب الامريكيين من اصول اوربية متعددة ، ومن اخلاط من الجنس ، ولكنهم ذابوا في المجتمع الامريكي ورضوا عن طواعية — او كرها — أن يكونوا ذرات في عناصره . . فلم يكتبوا بلغتهم القومية بل تخلوا عنها للغة السائدة الغالبة وهي الانكليزية المتآمركة . . وماظنك بالشاعر وولت ويتمان المتوفى سنة ١٨٩٢ ؟ انه من اصل هولندي ، ولكن هل كان يعرف الهولندية ؟ لقد قطع ما بينه وبين لغة اصوله ليغني بالانكليزية ابدع ألحانه .

ولو انك استعرضت اسماء كبار الادباء في امريكا الشمالية لوجدتها تحمل طوابع غير انكليزية مثل هرمان ملفيل، وغرترود ستاين، ووليم سارويان، وشتاينبك، وولاس سينغر وغيرهم، فقد قطع هؤلاء صلتهم بالمانيا والنمسا وهولندا وارمينيا، وانتجوا ادباً امريكيا يكتب بالانكليزية المتأمركة. ولو ان الجاليات الاوربية في امريكا كانت متعصبة لاصولها لحملت كل اديب يظهر في لغتها القومية على الكتابة بها، ولكنها آثرت العافية وأرادت الذوبان في الكل فانتجت ادباً امريكيا..

على ان «عامل الجنس» هنا له أثر غير قليل في تحديد هذا الموقف فالاوربيون في امريكا يجمعهم جنس واحد في نهاية المطاف، فلم يضرهم ان يفنوا في المجتمع الامريكي الذي هو خليط من قوميات يضمها جنس واحد. اما الشأن مع العرب في المهجر فغير هذا.. فهم جنس متفرد في هذا العالم الجديد، وقد ارادوا ان يظلوا متفردين في التعبير الأدبي عن حياتهم الجديدة. فلم يتزحزحوا عن لغتهم، وقد ساعدتهم الظروف على اتخاذ هذا الموقف، وكأنهم فرضوا ان هجرتهم الى امريكا هي نوع من الفتوحات القديمة لهم. فاستبقوا معهم لغتهم القومية وزادوا في التحفي بالانتاج بها.

على ان أشد ما يخشى ان الظروف القديمة المواتية قد تغيرت، وهي سائرة الى التغيير حتماً بحكم الأجيال الجديدة الضائعة بين آباء عرب وبين إخوة أنصاف عرب... وستظل هذه النسبة في تناقص حتى ينقطع ما بين النشء العربي المتأمرك وبين مقومات أصله... وتلك هي الساعة التي يخشى كل عربي أن تدنو أشراطها... ولن يجعلنا الله من شهودها، فنحن مع الشاعر المهجري الكبير القائل:

لغة يهون على بنيها أن يروا
يوم القيامة قبل يوم مماتها

ولا تنس يا أخي أن اصرار العربي في امريكا على لغته القومية الأم يكلفه

من العناء مالا قبل لامرىء آخر باحتماله... فالامريكي الهولندي الأصل قد قطع ما بينه وبين لغته القومية او رضي من التعبير والتخاطب والتأليف بلغة واحدة... وكذلك الألماني والبولندي والنمسوي هناك ، أما العربي فهو يتخاطب مع الامريكان بلغتهم في أمور معاشه ، ويحتفظ بلغته العربية لينتج بها أدباً وفكراً يطبعه هناك في اكثر الامر ، وينشره على العرب هناك ويرسل بعضه الى ارضه في العالم القديم...

وكذلك كان يفعل جبران ، وابو ماضي ، وحبيب مسعود، ورشيد ايوب ، وغيرهم . هي — في منهجي — روح من الاستعلاء عند العربي ، وروح من حب الكفاح الذي ظهر منه حتى في سفوح صقلية وعلى قمم صخورها حين فتحها وعمرها حيناً من الزمان .

ولاننسى ان العربي حينما ذهب الى العالم الجديد كان لصيقاً بلغته القومية ، وهو وفيّ ألوف، فلم يشأ أن يتخلى عنها ، بل استعصى على ذلك . وهنا تعاودني الخشية من تباعد العهد بين الجيل العربي المتأمرك الجديد وبين أصول عربيته ، ولن يحييني الله الى هذه اللحظة .

بقي في النفس حلقة من الكلام يثيرها سؤالك أيها الأخ الكريم ، فقد لوحظ ان المهاجرين العرب الى امريكا بقسميها الشمالي والجنوبي هم وحدهم اوفر المهاجرين العرب انتاجاً في العالم كله ، وهم احسنهم نتاجاً ، ففي استراليا وغربي افريقية نزل كثير من العرب المهاجرين ، ولكنهم اكتفوا بان يقرؤوا الانتاج في لغتهم الأم ، ولم يعنوا انفسهم بالكتابة بها ، فما كان لهم ادب عربي هناك ولاينتظر ان يكون فما السر في هذه الظاهرة ؟ قد يقول قائل ، كصديقنا الشاعر المهجري الكبير جورج صيدح — انها الموهبة الفطرية — وقد يقول آخر — كصديقنا المرحوم الدكتور محمد مندور — انها الثقافة ، وقد يقول آخرون غير هذا ، ولكن ما من شك في ان العرب المهاجرين

الى امريكا قد تركوا لنا انتاجاً أدبياً عربياً سيظل متميزاً بخصائصه التي جعلته ظاهرة لغوية ثقافية متميزة في العصر الحديث..

اطلت عليك يا اخي ، وما ارجو ان اكون ابلغت بهذه الكلمة العاجزة قدر ما ارجو ان ابلغ من التجاوب الفكري بيني وبينك ، وهو اشد ما احرص عليه .

والله حافظك للمخلص

محمد عبد الغني حسن

جواب الدكتور عمر دقاق :

حلب في ٢٠ / ٩ / ١٩٦٦

لست واثقاً من ان المغتربين في امريكا هم وحدهم دون سائر المهاجرين قد انتجوا ادباً بلغتهم القومية الام ، فقوافل النازحين من البرتغال واسبانيا تكشفت عن نتاج فني غزير غدا فرعاً نضيراً من دوحة الآداب اللاتينية الأم .

على ان انبثاق الأدب العربي في المهاجر على هذه الصورة الرائعة يبقى ظاهرة فذة في تاريخ التراث الانساني . فقد تجلت المعجزة العربية ثانية في تلك الربوع الاندلسية الجديدة عبر حياتنا الأدبية العريقة ، ولم تحقق للضاد راية فوق ارض عجمية خفوقها في بلاد الاندلس قديماً وفي ربوع المهجر حديثاً . غير ان المعجزة الفنية في هذا العصر كانت ابلغ اذ لم يقيض للعرب في مهاجرهم القصية دولة يحتمون بها وسلطان يلوذون به . فقد قدر لاناس قذفت بهم النوى وتترتهم على امواج المحيط ان تجمعهم الاقدار في تلك البلاد النازحة وتجعل منهم رفاقاً تآلفت قلوبهم وتحدت ارواحهم ، فاذا هم زمر طيبة يذودون عن لسان الضاد في دنيا غريبة الالسنة والعادات ، فيكلفون بالفصحى ويحنون على الحرف العربي ولا يرتضون سوى لغة القرآن اداة للاعراب عن عواطفهم ومنازعهم ، وهكذا كان ظهور الأدب العربي في تلك البيئة الغريبة اشبه بانبجاس الماء من الصخر وكأنه الواحة العربية التي ازدهرت في داخل صحاري العجمة .

وسمة التفرد هذه التي اتسم بها الأدب العربي في المهجر تنبىء في ذاتها عن انها تستعصي على التعليل او التحليل شأنها في ذلك شأن سائر سمات النبوغ والعبقرية لانها تتفتح لدى الموهوبين متمردة على نطاق البيئة والعصر .

والشعوب لابد ان تتايز برغم كونها تنضوي تحت لواء الاسـرة الانسانية الكبرى، فهي تختلف فيما بينها كما يختلف المرء عن اخيه في ملامح وجهه ولون عينيه ونبرات صوته وبصمات اصابعه . اما الادب ـ والشعر منه بوجه خاص ـ فهو من اعرق معالم الشخصية العربية واوثقها اتصالاً بوجدانها ولصوقاً بحياتها . انه ديوان العرب وسجل احداثهم ومرآة منازعهم، ومن هنا كانت معجزة الاسلام فيهم ادبية تجلت في آيات التنزيل . فمنذ القدم امتاز اجدادنا من سائر الامم بشغف لا حد له بالشعر ، وقد روي عن النبي محمد انه قال : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » . ومصداق ذلك ما نراه اليوم في ادب المهجر العربي على طول العهد وبعد الارض .

ولسنا نعرف أمة تغلغل الشعر في حياتها تغلغله في امة العرب . ان نظرة واحدة الى تراثنا الادبي الحافل تجعلنا نخال ان جميع العرب شعراء ، من لم يمتلك موهبة نظمه لابد ان يتذوقه او يجريه مجرى المثل او يرصع به خطبه واحاديثه ، وهذا ما اعرب عنه الياس فرحات في اندلسه الجديدة بقوله :

هي امة تهوى الفصاحة والعلا
وتقوم للشعر الجميل وتقعد

وعلى مثل هذه الحال كانت حياة المغتربين العرب في مهاجرهم ، انها صور من حياة السلف . لقد نزح اكثرهم عن وطنه يافعا ولم يكن له رصيد من اللغة الفصحى ومن الثقافة العربية يؤهله لبلوغ ذلك الشأو البعيد والمنزلة الفريدة ، ان كسب القوت ودفع العوز والتحرر من الظلم في رأس ما كان يتشوفه المهاجر من وراء الافق الغربي ، اما حرفة الأدب التي

ادركته ولم يستطع عنها فكاكا فلم تكن لتمر في خلده قط. كل ما في الأمر ان طاقته المبدعة كانت كامنة في نفسه سارية في دمه فلم تلبث حين وخزتها الآلام ولذعتها جذوة الاغتراب وانضجتها تجارب الايام حتى تفجرت نفثات حارة عميقة صادقة وتوهجت ادبا عربيا اصيلا خالدا.

ولكن ما يحز في النفس ان هذا التفرد الذي عرف به المغتربون العرب وكادوا يتميزون به من دون سائر المهاجرين ، لم يكن الا كالشهاب الثاقب اضاء في سماء العالم الجديد حيناً من الدهر ثم لم يلبث حتى خبا نوره وانطفأت جذوته حين تضاءل دوران العربية على الالسن واخذت الضاد تغوص يوماً بعد يوم لجة في العجمة. وهكذا على قدر الصعود كان الهوي. على حين وجدنا في الربوع الاميركية جاليات اجنبية عديدة استطاعت ان تحافظ على لغتها فاحتفظت بمفتاح شخصيتها وصانت كيانها وما ذلك - عندي - الا لأن العربي يتسم بفردية نامية ، كثيرا ما تتكشف عن مواهب فذة ، ولكن هذه المواهب لا تلبث في طغيان الفردية أن تتقصف على اعتاب التلاحم الجماعي .

عمر الدقاق



الذكرى الثامنة عشرة

للاعلان العالمي لحقوق الانسان

اشتركت سورية في الاحتفال بالذكرى الثامنة عشرة للاعلان العالمي لحقوق الانسان ، فاقيمت حفلات ، وكتبت مقالات ، وبثت برامج اذاعية في مناسبة هذه الذكرى العالمية وعولج الموضوع من نواح مختلفة : من ناحية حقوق الانسان (ضد الحرب والعدوان) ، وحقوق الانسان (ضد الظلم والتمييز العنصري) ، وحقوق الانسان (ضد الاستعمار بألوانه) ، والاشتراكية وعدم استغلال الانسان للانسان ، وحرمة حقوق الانسان في تقاليد الحضارة العربية ، وابراز حق العربي الفلسطيني في صراعه ضد الاستعمار والصهيونية .. الخ الخ .

وقد أقامت رابطة الدفاع عن حقوق الانسان في دمشق ، مهرجانا على مدرج جامعة دمشق ألقى فيه

الشاعر سليم الزركلي قصيدة ، كما ألقى فيه كلماتهم كل من ممثل الأمم المتحدة في سورية والدكتور غسان الرفاعي مدرس الفلسفة في دار المعلمين العامة وعميد كلية الآداب في الجامعة اللبنانية خليل الحر والمحامي نزار بقدونس رئيس الرابطة الذي استعرض نضال الانسان ضد ظلم أخيه الانسان منذ بدء الخليقة حتى اقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة وثيقة حقوق الانسان في ١٠ كانون الأول ١٩٤٨ ، وجاء في كلمته :

ها قد تقضت ، ايها السادة ، ثماني عشرة سنة !

حققت الحضارة خلالها تقدما هائلا ، وانتصارات كبرى ..

واستطاعت الانسانية ان تغزو الفضاء ، وان تتحكم فيه ، فتطلق السفن والاقمار وتبلغ القمر والنجوم .

ولكن الامم المتحدة ، لم تستطع مع ذلك ، ان تحقق لكثير من المعذبين والمستضعفين في الارض ، شيئا مما تضمنه الاعلان العالمي لحقوق الانسان .

ففي اللحظة التي ينطلق فيها انسان الى الفضاء ، نجد انسانا آخر ، او اكثر ، في بقعة اخرى من بقاع العالم يلقى معاملة مهينة ، اويعذب ، اويحرم من حقوقه وحرياته ، اويهدد في مصيره ومستقبله .

وفي كثير من الدول النامية ،مايزال الجهل والمرض والجوع والاستغلال والظلم ، ينال من كرامة الانسان ، ومن حقه في الوجود !

وفي كثير من الدول الاخرى ، يعاني الانسان من مظالم عديدة !

وهذه الحريات التي يتحدث عنها الاعلان ، الفردية منها او الاجتماعية ، تظل مجرد كلمات ، تفتقر لمعانيها الحقة ، في كثير من المجتمعات .

فهل فشلت الامم المتحدة في كفالة ما التزمت بـــه ، من توطيد احترام الحقوق والحريات التي تناولها الاعلان ،

وضمان مراعاتها بصورة عالمية فعالة في الدول النامية ..

الواقع ، أيها السادة ، ان الاعلان العالمي وحده ، لم يك في الأصل كافياً لضمانة الحقوق والحريات المبحوثة في مواده الثلاثين .

ومنذ شرعت الامم المتحدة في صياغة الاعلان ، كانت اللجان المختصة ، تلح على ان يقترن الاعلان ، باقرار ميثاق او معاهدة تلتزم الدول بمقتضاها بضمانة الحقوق والحريات مع وضع نصوص او احكام اضافية للاجراءات التي تكفل التنفيذ !

ولم توفق الامم المتحدة ، حتى هذا اليوم ، للتوصل الى مثل هذا الميثاق او المعاهدة التي تلزم اعضاء الاسرة البشرية ، بتطبيق احكام الاعلان ، وبكفالة الحقوق والحريات للناس !

قبل عامين او يزيد ، نشرت أيها السادة ، رسالة (السلام على الارض) ، وفيها دعا البابا يوحنا الثالث عشر ، الى انشاء منظمة لضمان حقوق الانسان .

ثم قال المحامي نزار بقدونس :

ولا جدال ، في أن اختلاف النظم ، وتباين الاوضاع السياسية ، وتناقض المذاهب الاجتماعية ، يشكل حائلاً جدياً دون الامم المتحدة ، ودون ايجاد مثل هذه المؤسسة التي تتحدث عنها رسالة (السلام على الارض) .

الا ان بعض المجموعات الدولية ، التي يجمعها تراث ثقافي مشترك ، وواقع اجتماعي متماثل ، تملك — بلا جدال — أن تقيم فيما بينها تعاوناً مشتركاً لحماية حقوق الانسان !

واختتم المحامي نزار بقدونس كلمته بقوله :

لعل العرب ، أيها السادة ، كانوا أسبق امم الارض ، في اقرار حقوق الانسان وحرياته الاساسية !

فمنذ فجر الاسلام ، ورسالة العرب الى العالم ، دعوة الى الحرية والمساواة

والسلام ، وحض على تكريم الانسان ودفع الظلم عنه .

واذا كان أساس هذه الدعوة السامية ، في رسالة السماء ، فقد كان اكثر تجاوبها في تقاليد العرب واخلاقهم !

وامتنا العربية الواحدة ، في مختلف اجزاء الوطن العربي ، مدعوة لاحياء تراثها الخالد ، ولتحقيق وحدتها القومية ، على أساس من القيم العليا التي نؤمن بها ، وندعو لها جميعا .

وقد علمتنا التجربة ، ان الوحدة لايمكن ان تقوم ، بصورتها المثلى ، الا اذا هي حققت للانسان العربي ، وجوده الكامل ، في مجتمع حر ، يكفل لهذا الانسان العربي حقوقه وحرياته ، التي يفتقدها كلا او بعضا في مجتمع التجزئة الذي يعيش فيه .

ورابطتنا ،

رابطة الدفاع عن حقوق الانسان — في انطلاقة جديدة لارساء حقوق الانسان وحرياته الاساسية ، على مستوى الوطن العربي الكبير — تطرح اليوم على العرب جميعاً ، حكومات وشعوبا ، مشروع معاهدة عربية لحماية حقوق الانسان ، يدرس في جامعة الدول العربية ، وتقره حكوماتها ، ويكون الضمانة المثلى لوجود الانسان العربي في كل الاقطار .

وستكون هذه المعاهدة ، اذا قدر لها ان ترى النور ، خطوة واسعة في طريق الوحدة العربية الشاملة .

والرابطة تدعو المواطنين العرب ، في كل مكان ، ان يعملوا في سبيل اقرار هذه المعاهدة وتصديقها .

فرلينغيتي Ferlinghetti

كآبة الشعر الفوضوي

رسالة (المعرفة) من لندن لخلدون الشمعة

أبانا الذي في السموات
اعطنا خبزنا كفاف يومنا
ثلاث مرات في اليوم الواحد على الأقل
واغفر لنا خطايانا
كما نغفر نحن خطايا جميلاتنا
اللواتي نتمنى أن يمارسن معنا الخطيئة ،
ولا تدخلنا في اغواء التجربة مراراً
خلال أيام الأسبوع
ونجنا من الشر
الذي يبقى وجوده بلا تفسير
في ملكوتك .. ملكوت القوة والمجد
آمين .!

هكذا تجري القصيدة الشهيرة التي أعاد فيها الشاعر ، والروائي ، والمسرحي ، والناشر العصابي ، الأشعث الشعر ، صياغة الصلاة الدينية المعروفة ، في ضوء عصرنا الراهن .

إنه « **لورنس فرلينغيتي** » ، كاهن الشعر الفوضوي الذي بدأ الحركة الأدبية المعروفة باسم الـ BEAT GENERATION [1] في مطلع « ١٩٥٦ » حينما نشر ملحمة الشاعر « **ألن غينسبرغ** » : « عواء » التي تعتبر تجربة هامة جداً في حقل ما يسمى بـ «**الشعر الفوضوي**». وتدعو فلسفة هذه الحركة الى جعل الانسان مباركاً واعتباره الغاية والوسيلة معاً ، منطلقة من حس بدائي بالاشتراكية الفوضوية التي تفتقر الى منهج ينقلها الى حيز التنفيذ .

وعلى الرغم من ان « **فرلنغيتي** » قد أمضى معظم سنوات حياته في امريكا الشمالية ، واوربا ، حيث مارس سلسلة من أعمال الطبقة الكادحة ، الا انه يعود بجذوره الى سان فرانسيسكو حيث انطلق مد حركته الأدبية الى اوربا .

ان هذا الكاتب الذي جعل بيته داراً للنشر ، ومأوى للشعراء المثقوبي الجيوب ، مايزال يبحث عن اشد الحلول ثورية في الحياة . وقد استطاع في كتاباته الشعرية ، والروائية ، والمسرحية ، واشهرها ديوان « **صوت العالم الراحل** » و « **سيرك الضمير** » ، ومجموعة مسرحيات بعنوان « **مناقشات عقيمة مع الوجود** » ..

---

(١) يقول الشاعر والناقد « كينيث روكسروث » : « ان من أهداف الحركة كتابة شعر مختلف كل الاختلاف عن الشعر الذي يدور حول الشعر ، عن شعر الصنعة ، عن الشعر الذي يكتب ليقرأه الشعراء الآخرون والاساتذة في الجامعات فحسب : الشعر الذي نكتبه هو شعر الشارع ، شعر النطق ، لا شعر الحرف المطبوع ، الشعر المحبول به كرسائل شفهية ، الشعر المقروء بصوت عال ، واحياناً على موسيقى الجاز . هذا الشعر بمعنى عام يؤدي الى جعل الشعر ذا علاقة بالمجتمع » وعلى ذلك فالحياة قد انقلبت الى نوع من التأفف العريض أو الصعلكة كرد فعل على القيم المتجذرة . ولعل الروائي « وليام بوروز » هو الذي أمد الحركة بأسباب قوتها ، فقد كان له أثره الواضح على كل من فرلنغيتي ، وغينسبرغ ، وكيرواك ..

بالاضافة الى روايته الرائعة : **«هي»**[١] .. استطاع ان يؤثر على جيل من القراء والكتاب تأثيراً منقطع النظير . كما استطاع ان يثير الجمهور اللندني الى حد الهياج ، حينما قام بالاشتراك مع عدد من زملائه الممثلين لحركته الادبية بالقاء عدد من القصائد في احدى القاعات العامة ، بلهجة مطاطة ، ووجه غائم تميزه ندبة تحتل معظم الذقن ؛ ثم لم يلبثوا ان انتقلوا الى احد مقاهي الدرجة الثالثة ، حيث اجاب « **لورنس فرلنغيتي** » على عدد من الاسئلة الهامة :

● **كيف ساعدت دار النشر (مدينة الأنوار City Lights ، التي تشرف عليها في تأسيس حركة الشعر الفوضوي ، حركة الـ Beat ؟.. أرجو ألا يكون لديك اعتراض على استعمالي لهذه الكلمة .**

ج – لقد استعمل هذه الكلمة لأول مرة صحفي ثرثار من سان فرانسيسكو ، واصفاً بها البوهيمية الجديدة . ثم لم تلبث أن اكتسبت معناها الخاص بها . غير انني لم استعمل هذه الكلمة في أي كتاب نشرته .. فهي من نتاج الصحافة . لقد حاولت جاهداً ألا اشجع مدرسة شعرية واحدة ، او مدرسة شعرية إقليمية إذا شئت . ان منشورات الدار تضم قصائد لكل من « **ألن غينبرغ** » صاحب ملحمة «عواء» ، و «عزرا باوند» مكتشف إليوت ، و « وليام كارلوس وليامس »(٢) ، وقصائد لشعراء اسبان او تشيلانيين او كوبيين او سوفيت . ان رؤيتنا عالمية عضة .

● **هل حققتم شيئاً من النجاح المادي (المالي) ؟.**

ج – هذا السؤال كثيراً ما يطرح في مقابلات التلفزيون . لقد قال لي « **غريغوري كورسو** »[٣] مرة : لاشك إنك تربح الملايين من كتبي .. متى أحصل

---

(١) رواية شبه سريالية ، تؤرخ لساعات قاسية من حياة شاب بلا هوية ، ولا زمن . وقد ترجمت الى الفرنسية ، والايطالية ، والالمانية . ووصفها الناقد الفرنسي « بيير لوباب » بأنها : « رائعة الرواية الاميركية الشابة ، وانها تضع فرلينغيتي في مصاف همنغواي » .. وقال ان اسلوب « الحلم – المتاهة » الذي تستكشفه يجعلها على صلة بتيار (مقابل الجديد Anti - Novel) في فرنسا ، الا انها تظل مهرجانات لتجربة فريدة .

(٢) وليام كارلوس وليامس ، شاعر وناقد ، يعتبر في طليعة الذين مهدوا لحركة « الجيل الغاضب » ، من أشهر دواوينه : « كورا في الجحيم » و « عناقيد مرة » . ولد في عام (١٨٨٣) وتوفي عام (١٩٦٣) .

(٣) من شعراء حركة الشعر الفوضوي « Beat » يتميز عن زملائه بتركيزه على الجانب الساخر من المجتمع .. أشهر قصائده « الزواج » ترجمت الى العربية . دواوينه : « غازولين » .. « ميلاد الموت السعيد » .. « عاش الانسان » .

على نصيبي ؟. قلت على الفور : « لم تسنح الفرصة إطلاقاً لتقدير ما اذا تحقق ربح مالي فهناك نفقات الطباعة والتوزيع أولاً . ثم لا أظن ان ثمة ارباحاً ملموسة بعد ذلك . ان المؤلف يحتفظ بحق الملكية وبنسبة من تلك الارباح . وعلى أية حال فنحن مستمرون في النشر مادمنا لم نفلس بعد .

● دعني اسألك لماذا يكثر عدد الشعراء المبدعين (من الشبان) فيما وراء الاطلنطي بينما تفتقر انكلترا الى ذلك ؟.

ج — انه الصوت الانكليزي .. اللغة الانكليزية التي تبدو رائعة أشد مما ينبغي بحيث يصعب على الشاعر أن ينفجر ليقول شيئاً عظيماً . في انكلترا نسمع اللهجة الانكليزية المثقفة الجميلة بينما تبدو اللهجة الامريكية بالمقارنة ، بربرية خشنة . لقد كنت في مدينة المتعاظمين .. اعني **أوكسفورد** بصحبة كل من « غريغوري كورسو » وشاعرين آخرين . كنا في مطعم هندي وكان ثمة بعض المخمورين على المائدة المقابلة .

قال أحدهم : اللغة الامريكية هجينة (غير اصيلة) فصاح أحدنا : « وهذا شيء مفيد ايضاً ! ».. أجل أنني أغبط اللهجة الانكليزية الجميلة . الا ان اللغة الاميركية — بهذا الاعتبار — أفضل للشاعر بكثير . الواقع ان الانكليزية قد أصبحت مصفاة الى حد كبير . وهذا الامر ينطبق على الفرنسية في فرنسا : لايبدو ان ثمة صوتاً خاصاً بالشاعر .. ان لدي بعض الأمل في عطاء شاعر شاب كـ « **توم بيكارد** » من « نيوكاسل » على سبيل المثال ، انه في العشرين ويكتب بلهجة خشنة « لهجة نيوكاسل » وبامكانه أن يكون « **ديلان توماس** »[1] آخر .. ولكن بطريقة مختلفة . يبدو انه ليس ثمة من صوت عظيم على المسرح يضاهي صوت « ديلان توماس » . لوكان ثمة مثل هذا الشاعر في مهرجان الشعر ، الى جانب « آلان غينسبرغ » بدلاً من الشعراء البريطانيين الصغار ، اذن لكان الفرق عظيما جدا .

الحقيقة إنه كان بالإمكان وجود شعراء بريطانيين أفضل بكثير من الشعراء الثلاثة الذين سمعنا منهم كلاماً منظوماً لا أكثر . لقد كان الجمهور يزيد على سبعة آلاف ، ولم يكن لديهم غير كلامهم المنظوم . وأعني بهؤلاء الشعراء كلاً من « **جورج ماكبث** » ، و « **كريستوفر لوغ** » فقد ضربا المثل

---

(١) شاعر « انكلو — ويلزي » ولد في مقاطعة « ويلز » بانكلترا وتمتزج في قصائده الأسطورة الويلزية ، بالرموز المسيحية ، والفرويدية ، والسحر ، والتنجيم . اكتسب شهرة كبرى عقب موته المفاجيء اثناء زيارة للولايات المتحدة . من أشهر دواوينه « خارطة الحب » و « قصائد مختارة » . له قصص ومسرحيات أشهرها « صورة الفنان كلباً شاباً » .. (١٩١٤ — ١٩٥٣) .

على ذلك الصوت بالغ الصفاء ، المثقل بقرون من التقاليد ، وبالتالي العاجز عن الانفجار بحرية . أعتقد انه من المستحيل وجود شاعر **كوالت ويتمان** في انكلترا الآن . وبالطبع حينالايوجد شعراء،يصبح من السهل العثور على الكثير من الأسباب . وبعبارة أخرى ، حينما يوجد الشاعر فجأة، فانما هو يثبت وجوده .

● ولكن ما رأيك بـ « ديلان توماس » على سبيل المثال ؟ بالطبع لم يكن توماس انكليزيا . لقد كان ويلزياً (نسبة الى مقاطعة ويلز ببريطانيا) كيف نصنفه ؟

ج : شاعر عبقري . أعظم شاعر بريطاني في هذا القرن . لقد كان صوته غير عادي . ان المرء ليتساءل من اين جاء ذلك الصوت. في ذلك الوقت، قبيل ظهور **«ديلان توماس»** كان الناس يقولون ماقلته عن الصوت البريطاني بالغ الصفاء .

● هل تعتقد كما يرى الكثيرون ان امريكا هي التي قتلت « توماس »؟

ج : كلا لقد قتل نفسه . **كينيث ركسروث**[1] كتب قصيدة عنوانها : **لاتقتلن** ، وهي ضد الرجل الذي اتهم « ركسروث » بقتل توماس . لقد قام ديلان توماس بثلاث رحلات الى امريكا وتجرع الكثير من الخمرة .. كما انه كان يشرب كثيرا في انكلترا . الناس يحفرون قبورهم بأنفسهم. اتساءل عما تقوله **« كيتلين توماس »**[2] عن الأمر — أشك في انها تعتقد ان امريكا هي التي قتلت ديلان توماس (٢) .

● ماذا عن دور السياسة في الشعر المعاصر ؟ ففي الأمسية الشعرية التي قدمتموها ، كان ثمة الكثير من القصائد التي تتناول الفيتنام . كما ان آلان غينسبرغ ألقى عدداً من القصائد حول « كوبا ». ان هذا هو شعر الاحتجاج . هل تعتقد انه دور هام من ادوار الشاعر ان يهتم بالسياسة ؟

ج — هذه الاسئلة تصلح بداية لقصيدة سياسية جيدة فعلا ! ان صدى الفيتنام في إشعارنا دليل على ان للشاعر مجالا كبيراً

(١) شاعر وناقد ينتمي الى حركة الشعر الفوضوي. من دواوينه **« مزار اسمه دمشق »** مستوحى من الأساطير الدمشقية القديمة، **« طائر في الخميلة »** ، و **« أرقام طبيعية »**.

(٢) **« كيتلين توماس »** : زوجة ديلان توماس . كتبت كتاباً عنه بعد وفاته بعنوان : « Leftover Life To Kill » .

للتعبير حينما يكون الموضوع واضحاً . الشعر السياسي يصلح ، بشكل خاص ، اذا ماألقي على مسامع جمهور . ان بامكانه أن يؤثر عندئذ. لقد زارني عدة شعراء بريطانيين في « سان فرانسيسكو » في غضون السنوات القليلة الماضية ، وكنت احثهم دائماً على المرور عبر كوبا في طريق عودتهم الى الوطن : الا انه لايبدو انهم يبدون اهتماما كافيا بالسياسة بشكل عام .

ان السياسة في حد ذاتها عائق حقيقي .. والشعر السياسي يمكن ان يكون عائقاً كبيرا ايضاً . فعالم السياسة الخارجي مايبرح يتدخل في حياتنا ، بحيث انه عندما تسوء الاشياء ، يصاب الشاعر بالجنون ، فيكتب احتجاجا سياسيا : غير انه لايستطيع – عادة – الانتظار حتى يركن الى حياته الخاصة .. وهذا هو ماحدث لي . لقد شعرت برغبة في شن بعض الهجمات – هجمات سياسية – كتلك التي تتعلق **بالقنبلة الذرية**[1] واتهام الرئيس ايزنهاور . ثم هناك قصيدة طويلة حول « كاسترو » .. وأخرى حول برلين . كل هذه الاشياء تنبجس من الداخل ويصبح امر لامناص منه أن يعبر الشاعر عنها . ذلك انه ليس ثمة من شخص آخر يقول شيئاً . ان سادة الحرب ، كما تقول قصيدة ديلان توماس الشهيرة ، يمسكون بزمام العالم ، دون ان يقول احد شيئا .. ولذا فعلى الشاعر ان يتكلم : ليس ثمة شخص آخر ينبس ببنت شفة . الا ان ثمة اشياء أهم بالنسبة للشاعر شخصياً هي – قصائد الحب ، اوالكراهية .. .

● ماذا عن البذاءة في شعر الـ BAET .. لقد صدم غينسبرج الكثيرين من الانكليز باغراقه في الفحش والتجديف ! .

ج – في صحيفة « النيوستيتمان » نشرت ملاحظة حول احد الحجاب ، سمعه أحد الصحفيين وهو يخاطب شرطيين احمري الوجه بلهجة اشمئزاز : – الشاعر هناك لايفعل شيئا سوى الوقوف وترداد كلمة (...) . من المؤسف حقاً ان هذا هو كل مايستنتج من هذه القصيدة الطويلة الجادة التي تضمنت هذه الكلمة . لقد كنت أحاول ان اجعل الكلمة مقدسة ، ان اجعلها غير بذيئة ويمكن استعمالها . غير ان الكثيرين أدركوا ماأعنيه على الرغم من غباء الصحفي . لست ارى أي منطق في استعمال كلمة ما من اجل التسبب في صدمة فقط . لقد حاولت جاهداً الا استعمل هذه الكلمة في القصيدة ، وحاولت مجدداً ان اعيد كتابة هذه المقاطع بحيث استعمل كلمة تحل محلها ، غير انني وجدت ان ذلك مستحيل ليس هناك من كلمة تؤدي دور البديل .

● ولكنك استعملت «الكلمة» حوالي خمس عشرة مرة .

ج – لقد استعملتها بمعناها المقدس . كانت تتخلل ترانيم دينية . انه استعمال قدسي للكلمة اقتفيت فيه اثر « غينسبرغ » في قصيدته

(١) القصيدة بعنوان « ناغازاكي » . . اقرأ ترجمة لها في نهاية المقابلة .

«عواء» او بالاحرى ملحق قصيدة عواء الذي يشكل ترنيمة تمجد قدسية الجسد الانساني . إنها تمضي هكذا :

– مقدس ، مقدس ، مقدس(١) . كل جزء من الجسد مقدس . وهذا اصطفي استعمال لهذه الكلمات . ليس ثمة بذاءة في ذلك .

● **ماذا عن اعترافات غينسبرغ العلنية بشذوذه الجنسي ؟. هل هـذا شكل من اشكال العصيان الفردي ؟.**

ج – أريدك ان تسأله بنفسك . لا تسألني.. فهذا الأمر يتعلق به . انها حياته الخاصة به . كل ما أعرفه انه في احد الاجتماعات ، نهضت سيدة وسألت :

– مستر غينسبرغ لماذا تملأ قصائدك بالشذوذ ؟.. فقال : لأنني شاذ ياسيدتي. لقد كان أميناً فعلا في جوابه الذي ألجم السيدة الا انه اجاب على سؤالها .

● **قال أحد النواب البريطانيين قبل مدة غير قصيرة من الزمن ، انه يقترح أن تحرقوا جميعاً ويلقى بكم في قعر القبر. هل لديك تعليق على هذا ؟**

ج – حسناً ، ترى ماهي القصائد التي قرأها فجعلته يتفوه بهذا الكلام ..؟ إنه يبدو وكأنه متأهب لرايخ ثالث . إعتقد أنه يصلح لاسبانيا فرانكو اليوم . اذا كان يريد الذهاب الى مكان ما حيث يعاملون الناس على هذا الشكل ، فربما أمكن اجراء الترتيبات المناسبة .

● **هل من الممكن اليوم ان يكون الشاعر مؤمناً ، ام ان من الضروري ان يقترن عصيانه بالتجديف ؟..**

ج – هذا يتوقف على تعريفك لله .

● **كيف تعرّفه ؟.**

ج – أنا لست مسيحياً . إن تعريفي لله هو انه الوعي .

● **هل انت ضد الدين كتنظيم؟.. هل تحرق المعابد لتحقق فكرتك ؟..**

ج – طبعاً لا .. هذا مايمكن أن يفعله ذلك النائب . لا أعتقد انه يجوز أن نحرق المعابد او الناس الذين لانتفق معهم في الرأي. إن هذا من شأن مجتمع بدائي . أنا أريد أن أحرق جميع الحدود بين الدول . هـذا هو الشيء الوحيد الذي أظنني أريد حرقه . إذا ما أردتني أن أعرف الله بأنه الوعي، فسأقول ان مصرعه يعني موت الوعي نفسه ، موت كل شيء . ليس ثمة أبعد من الأبنية والمزارات

(١) تعرضت قصيدة «عواء» – التي تعتبر بمثابة «الارض الخراب» الامريكية – للمصادرة في عام ١٩٥٦ . الا ان الديوان لم يلبث ان افرج عنه بعد سلسلة من المحاكمات في سان فرانسيسكو . وقد ولد «غينسبرغ» في عام (١٩٢٦) وعاش حياة مهنيّة مضطربة. واصدر في عام (١٩٥٩) مرثاة «قاديش» التي نالت شهرة تماثل تلك التي نالها ديوانه الاول «عواء».

عن الدين . ليس هناك من علاقة بيننا وبين الله على الاطلاق . إنما مجرد منظمات اجتماعية تعيش عالة على الناس .

● **في امريكا معابد يفوق عددها اية دولة أخرى في العالم .**

ج – أهذا صحيح ؟.

● **أجل .**

ج – أنا لست في امريكا ..

● **هل تعتبر نفسك معادياً لأمريكا ؟.**

ج – أنا معاد لامريكا بقدر ما أعادي أية جنسية . إذا أخذت جميع اعلام الدول ونصبتها حول عجلة دائرة في مدينة للملاهي لتدخل السرور على قلوب الاطفال ، فهذا مناسب . أما أن تستعمل الاعلام للحرب وبسط النفوذ وسفك الدماء ، فأمر يعني الجنون المطلق . لابد ان نصل الى هذه النتيجة إن عاجلاً أو آجلاً .

● **هل أنت من الذين يرفضون حمل السلاح ؟.**

ج – ثمة انواع كثيرة يشملها هذا النموذج . وهناك الكثيرون من الذين يرفضون حمل السلاح ولا أتفق معهم في الرأي . إلا انني ضد فكرة الحرب بكل تأكيد .

● **فلنعد إلى الشعر . هل تعتقد بوجود علاقة بين حجم جمهور مستمع وبين نوعية القصائد التي تلقى عليه ؟.**

ج – بقدر مايعظم حجم ذلك الجمهور ، بقدر مايزداد شيوع الشعر وانتشاره . إن عليك أن تقرأ شعراً من النوع ذي «السطح الشعبي» . لايمكن إلقاء قصائد حب خاصة فقط . إن عدداً كبيراً من قصائدي الجيدة ، من النوع الذي يفكر بمثل هذا الجمهور . إنني أدعو هذه القصائد بـ « الشعر التمثيلي » إنني أتمرن على الالقاء أمام آلة تسجيل .

● **ألا يجعل هذا « إلقاء الشعر » أقرب الى مملكة المسرح ؟**

ج – ليس بالضرورة . إلا انها يجب أن تكون على أكثر من مستوى واحد . يجب أن يكون لها « سطح شعبي » .. ثم يتعين أن تنطوي على مستوى آخر ، وإلا أصبحت مجرد ثرثرة .. أخذ ورد .

● **من هم الشعراء الخمسة الأوائل في عالم الشعر اليوم ؟**

ج – كما سبق وأن صرحت من قبل فان **« ألان غينسبرغ »** بلا ريب ، هو اعظم شاعر أمريكي منذ « والت ويتمان » . لقد كررت ذلك مؤخراً في كثير من الاماكن . ثم انه يتعين علي القول بأن « بابلو نيرودا » أعظم شاعر في عالم اللغة الاسبانية في عصرنا . أما بالنسبة لروسيا فانا أرى أن **« فوزنيسنكي »** هو العلم الحقيقي وليس **« ايفتوشنكو »** .

لقد كنا نمشط الشعراء الانكليز بمشطنا هم قبل فترة ، ولكننا لم نستطع العثور على أي صوت كبير يصل الى مستوى هؤلاء في الوقت الحاضر . « ديلان توماس » وصل الى هذا المستوى بالطبع . الأكاديميون كثيرون يكتظ بهم المكان . معظم هؤلاء الشعراء أساتذة ... وفي هذا يكمن مصرع الشعر . ان هؤلاء الاساتذة الاكاديميين يديرون ورشات لكتابة الشعر والتأليف للمسرح . مجرد وجود هذه الورشات يدل على نضوب المخيلة ، المخيلة المبدعة . إن بعضهم يظن ان بامكانهم الذهاب الى الورشات وتعلم كيفية كتابة قصيدة او مسرحية . هذا غباء لعين . الشعراء الأكاديميون في كل بلد ، يبعثون الضيق حينما يشرعون في الكلام عن الصنعة وعن كونهم صناعاً عظاماً لايبارون . وكما هو الأمر بالنسبة للرسم ، فالناس يتحدثون عن نوعية الفنان ، ونسيج اللوحة ، بدلاً من الكلام عن الموضوع الذي يجب تناوله ، عن الشيء الذي يستحق ان يكتب عنه . ان هذا الأمر نادراً مايتعرض له . ان مايحدث عادة هو ان شعراء « **كوبرت لو** » أو « **ريتشارد ويلبور** »[1] لا يعنون شيئاً بالنسبة لأحد . ومع ذلك فهؤلاء يملأون الاماكن الاكاديمية في الولايات المتحدة ، وليس ثمة من يحتدم على ذلك . ان اكاديمية الفنون او الآداب مليئة بالشعراء الاساتذة ، بينما الشعراء الذين أثروا على الأجيال الطالعة هم شعراء الـ Bea . انهم يمثلون الجسر بين الأجيال من زمرة ثلاثين او أربعين عاماً ، وبين جيل زمرة عشرين عاماً اليوم . وثمة شبه عظيم بين مايحدث في انكلترا بالنسبة لعالم الاغنية ، وبين شعر الـ « B at » .

ولذ يمكن القول ان شعر الـ « Beat » ، الشعر الفوضوي ، هو الحدث الوحيد في الأفق الامريكي اليوم .. على الرغم من ان النقد هناك قد تنبأ ووصف مصرع هذا الشعر . جميع النقاد قالوا ان مادته ومسرحه ميتان .. وانه شيء من الماضي ، ومع ذلك فهو الحدث الوحيد في « لندن » ايضاً .

● **هل تتناول شيئاً من المنبهات عندما تمارس الكتابة ؟**

ج — اكتفي بتناول جرعات بسيطة جداً في بعض الأحيان . أنا لا احتاج الى شيء من هذا القبيل .. أنا احب الحياة .

● **هل هذه الحالة مُعدية ؟**

ج — آمل ذلك . ان اتصالاً عميقاً يحدث بين الناس في خلال الأمسيات الشعرية العامة . هذا يحدث عندما تنظم عملية ايصال بينهم وبين الشاعر فتكون العدوى سريعة كالكهرباء يصعب كبح جماحها ، انهم لايذهبون الى البيت عندئذ ، وانما يتسكعون محاولين التقرب من الغرباء ، وبخاصة الشعراء ، إنه لشعور مجنون .. مشهد عظيم يستحق الاستقصاء .

(١) شاعر تقليدي شغل مناصب أكاديمية عديدة — من مواليد عام (١٩٢١) .. أشهر دواوينه : « التبدلات الجميلة » و « نصيحة الى بني » الصادر عام (١٩٦١) .

• « غريغوري كورسو » كان ضد إلقاء الشعر .. أليس كذلك؟

ج – أجل .. وهذا هو السبب الذي جعله يقرأ قصائد حب صغيرة ذات جمهور محدود . لقد كانت هذه هي طريقته في التعبير عن عصيانه ضد القاء الشعر .

• ما الذي كان يقلقه ؟

ج – لعله كان يشعر ان بعض الشعراء كان يجب الا يشترك في البرنامج وبخاصة الشعراء الانكليز كـ **هورويتز** . لقد شعرت أنا وغينسبرغ بنفس الشعور . كان من الممكن ان نقرأ ببطء عدداً اكبر من القصائد .. ان نلتحم بالجو الشعري .

• هل أنت ملتزم بالحياة .. أعني هل يستغرقك مناخ عصرنا ؟

ج – على الشاعر ان يلتزم بالحياة بجميع وجوهها . اذا كان ليبرالياً او انسانياً تعين عليه ان يكون حساساً جداً بمشكلات العالم ، بصرف النظر عن المكان الذي يذهب اليه . ألم يقل بليك : « لمن تقرع الأجراس .. انها تقرع من أجلك ؟ » . **فيديريكو غارسيا لوركا** .. الشاعر الاسباني العظيم . مات دفاعاً عن الحياة . ومع ذلك فقد يحدث تشويش إذا ما استغرقتك السياسة . آلان غينسبرغ – مثلاً – أبعد عن كوبا .

• ألم يكن ذلك بسبب اعترافه بشذوذه ؟

ج – أظن أن السبب يعود الى أخذه بعض الصور . ومهما يكن من أمر فان « آلان » يقف الى يسار الليبرالية . يبدو ان الشاعر قد يصبح موضع الشك حينما يقترب من السياسة . ومع ذلك يتعين علينا ان نكون أحياء وأن نعي مناخ عصرنا . العالم مريض .. وهو يزداد مرضاً باستمرار . لست اكترث بمن يحكمه ، فهذه ليست مهمتي . انني أريد كشاعر ، أن أشير باصبع مدببة ، أن اتكلم بصوت عال ، إن اصرخ الى حد يجعل من المحال الا يسمع أحد . أريد ان اهز الناس ، أصفع أقفيتهم ، أجعلهم يشعرون بالحب .

• الى اين ستذهب ؟

ج – لست مضطراً للذهاب بعيداً .. الا انه يتعين علي ان اغادر الى حيث وعدني أحد المخرجين وعداً غامضاً ، بتقديم احدى مسرحياتي ، ومهما يكن من أمر ، فان « غريغوري » و « آلان » سيكونان بصحبتي . لا أستطيع الذهاب الى أي مكان اذا لم نقم بتنظيم بعض الأمسيات الشعرية التي تغطي نفقات الرحيل .

• العالم مكان فسيح وربما نلتقي .

ج – بل صغير ويزداد صغراً باستمرار .. صغير الى حد اللعنة ..

• سأرسل لك نسخة من المقابلة بأسرع وقت ممكن ..

ج – مجنون .!!

قصائد للشاعر «لورنس فرلنغيتي» (١)

— ناغازاكي —

في عالم سيريالي
من الرجال الصغار ، والمستحمين
بأشعة الشمس
وأزهار عباد الشمس الميتة ، وأجهزة
الهاتف الحيّة ،
والسياسيون ، وزعماء الأحزاب ،
مصطفون كعادتهم
في ساحات سيركاتهم المفروشة بنشارة
الخشب ،
حيث البهاليل والقنابل البشرية
ملأت الجو كالصرخات
حين ضغط مهرج بارد الأعصاب
زراً مصنوعاً من فطور لاتؤكل ،
فسقطت قنبلة غير مسموعة ، يوم أحد ،
قطعت على الرئيس صلواته
صلوات الربيع التاسع عشر
لقد كان الوقت ربيعاً
بأوراق من فراء ، وازهـــار من
الكوبالت ،
عندما سقطت سيارات « الكاديلاك »
كالمطر عبر الاشجار
تفرق السهول بالوحول ،
وهبط من كل سحابة صناعية ،
عشرات آلاف المجانين من بقـــايا
« ناغازاكي »
بلا أجنحة !

— كوميديا —

ليس كدانتي
مكتشف « كوميديا »
فوق منحدرات السماء
سأرسم فردوساً آخر
حيث الناس عراة
كما هم دائماً
لأن المشهد يفترض أن الرسم يمثل أرواحهم
الا انه لن يكون ثمة ملائكة تقول لهم
ان الفردوس هو الصورة المثلى
لمملكة ..
ولن تكون ثمة نيران تتأجج
في وهاد الجحيم السفلية
التي قد أتعثر بها
ولن تكون ثمة من مذابح للمعابد في السماء
سوى ينابيع المخيلة ..

(١) مختارات من ديوانه الأخير : « سيرك الضمير » .

— الجواد والكمنجة —

لاتدع ذلك الجواد
يلتهم تلك الكمنجة
هكذا صاحت أم الرسام
غير انه استمر في الرسم ،
وأصبح شهيراً ،
واستمر في رسم الجواد
وفي فمه الكمنجة
وعندما انتهى من اللوحة أخيراً ،
امتطى الجواد
وانطلق بعيداً
ملوحاً بالكمنجة
وبانحناءة خفيفة قدمها
لأول عارية مر بها ،
ولم تكن ثمة أوتار
مشدودة الى الكمنجة .

— في الليل —

طواويس تتبختر
تحت أشجار الليل
في ضوء القمر الضائع
عندما خرجت باحثاً عن الحب
في تلك الليلة
هدلت حمامة مطوقة في ملجأ بحوي،
قرع جرس مرتين :
مرة للميلاد
ومرة لمصرع الحب
في تلك الليلة .

كلب

الكلب يخب حراً في الشارع ،كالحصان
ويرى الحقيقة
والأشياء التي يراها
اكبر منه ،
والأشياء التي يراها هي حقيقته
سكارى على الأبواب
اقماراً فوق الأشجار
الكلب يخب حراً في الشارع ،
والأشياء التي يراها
أصغر منه
سمكاً مرسوماً على صفحة جريدة
نحلاً في ثقوب خلية
دجاجات في واجهة مخزن بـ«تشايناتاون»
الكلب يخب حراً في الشارع

والاشياء التي يشتمها
ذات رائحة كرائحته
الكلب يحب حراً في الشارع
ماراً بجراء ، وأطفال
قطط وسيغارات (١)
حمامات ورجال شرطة
وهو لايكره رجال الشرطة
ليست له حاجة بهم
وهو يمر بهم
وبالأبقار الميتة المعلقة في واجهة المسلخ ،
في « سان فرانسيسكو »
يفضل لحم بقرة طري
على لحم شرطي خشن
وبمر بمصنع « روميو وافيولي »
وببرج « كويت »
ولكنه لايخشى عضو الكونغرس
« دويل »
رغم ان مايسمعه مثبط للعزيمة ،
مزعج جدا
غامض جدا

بالنسبة لكلب شاب ، حزين ، مثله
غير ان لديه عالمه الحر يعيش فيه
وبراغيثه التي يلتهمها
يرفض أن يضع الكمامة ،
و « دويل » عضو الكونغرس
صنبور نار آخر بالنسبة له ،
الكلب يحب حراً في الشارع
ولديه حياة الكلب يحياها
ويفكر بها ،
ويتأمل فيها ،
يتلمس ، يتذوق ، ويجرب كل شيء ،
محقق في كل شيء ،
بلا فائدة من شهادة الزور ،
انه واقعي حقيقي
وله حكايته الحقيقية يقصها ،
وذيله الحقيقي يرافق الحكاية ،
كلب حقيقي ، يعيش ، ينبح
كلب ديمقراطي
منهمك في فعالية اقتصادية حرة ،
ولديه مايقول عن الميتافيزيقا

---

(١) جمع سيغار .

مايقوله عن الحقيقة ..
كيف يراها ، كيف يسمعها
برأسه المتربص في زوايا الشارع
كأنه يوشك ان تؤخذ صورته ،
يستمع الى صوت سيده ،
يحدق كاشارة استفهام حية
في « غراموفون » الوجود المدهش
ببوقه المجوف
يبدو دائماً وكأنه يوشك ان يقذف
بجواب ظافر على كل شيء ..

— لوحة —

في أعظم مشاهد « غويا »
يبدو بشر العالم
مازالون عند اللحظة الأولى
لحظة فازوا بلقب « الانسانية المعذبة »
يتصورون على اللوحة
أكداساً تتأوه ، والاطفال ، والخراب ،
تحت سماوات اسمنتية
في مشهد متهاوي الاشجار
تماثيل منحنية ، اجنحة وطاويط ، ومناقير
مشانق لزجة ،
جثثاً وديكة ضارية
ووحوش « مخيلة النكبة » العادية
كأنها ماتزال ماثلة فعلاً ،
وهي ماثلة فعلا
المشهد تغير فقط ،
البشر مازالوا منتشرين على الطريق
موبوئين بجيوش جوارة ،
وطواحين هواء وهمية ،
وديكة داجنة ، مساوبة ،
الناس مازالون أنفسهم
الا انهم أبعد قليلا عن الوطن
على دروب ذات خسين منحنى ..
على سطح قارة متراميه ..
بتضاريس خيالات السعادة المعتوهة .
المشهد يبدي نقالات الجرحى أقل عدداً
الا ان عدد المشوهين اكبر ..
في سيارات مطلية ،
ولديهم اطباق مرخصة ، ومحركات
تلتهم امريكا ..

الغابة المنسية

الشاعر احمد مخيمر

٣٢٠ صفحة ، مطبعة كوستاتسوماس بمصر – الناشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة

عرض وتقديم : أبو طالب زيان
– القاهرة

صدرت مؤخراً دواوين كثيرة لشعراء مصريين كان اهمها فيما أرى ديوان « الغابة المنسية » للشاعر المصري أحمد مخيمر .

والواقع أنه لاترجع أهمية هذا الديوان الى أنه أكبرها حجماً ، وأغزرها شعراً ، ولكنها ترجع الى ما اشتمل عليه من شعر في الطبيعة لم تسمع به اللغة العربية من قبل .. وهو شعر يميز الديوان ويفرده بين نظرائه من الدواوين الاخرى ، ويحتم على كل نقاد الأدب ودارسيه في البلاد العربية ان يتوافروا على دراسته ويعملوا على ترجمته الى اللغات الحية حيث تقف نماذجه بجانب النماذج العالمية لشعراء الطبيعة المعروفين فيها ... وبهذا يؤدون أعظم خدمة للغتنا في تاريخها الطويل .

إن شعر الطبيعة في هذا الديوان يكاد يكون مبتكراً كله في معانيه واخيلته وصوره ، وهو مكتوب بلغة موسيقية ذات وهج غريب يشع من الفاظها ، ويبرق في حروفها .. ويكشف عن مقدار امتزاج روح الشاعر بروح الطبيعة ، وعن مدى تغلغله في أغوارها البعيدة .. ففي قصيدة «الروح القدس» — وهي فاتحة الديوان — يقول الشاعر في وصف صفاء الجو ورقة النسيم صفحة ٣٥ مقطوعة رقم ١٠٠ :

وتهادى الصفاء في كل شيء
فكأن الاشياء تقطر طلا
وكأن النسيم رائحة الصفـ
و .. شققت في جوانح النفس غلا
وكأن المياه صفحة حلم
عكست من رغائب الروح ظلا
وتدانى الصفصاف يشرب منها
أتراه بلمسها يتسلى
كل حسن تراه عيني .. تراءى
كل سر تراه روحي تجلّى ...

وفي المقطوعة التي بعدها رقم ١٠١ يكمل الشاعر الصورة فيقول :

وكأن النسيم ظل مشاع
وكأن الظلال نسيم مقيد
سر هذا ، وسر تلك من الخلـ
ـد متاع للسالكين مجدّدْ
وسرور يكاد ان يتراءى
وشعور يكاد أن يتجسد
ولأمر يطوف النسم السا
ري يهذي الظلال .. أو يتردد
وكأن الظلال رهبان دير
قنعت في سكونها تتعبّد ...

وواضح من هذا الشعر أن معانيه مبتكرة ، وان الشاعر لم يسبق بها من شاعر قبله .. ولا يكتفي الشاعر بهذا بل هو ، لشدة امتزاجه بالطبيعة وحبه لها ولصوقه بها ، يعرضها من خلال حالاته النفسية المختلفة ، فاذا صور الطبيعة متعددة واذا هي ضاحكة مرة وباكية مرة اخرى في تساق عجيب .. فالشاعر بعد الصورة الفرحة الجميلة التي عرضها

علينا لصفاء الجو والنسيم والظلال يحس بحيرته وغربته ووحدته فيظهر لنا الطبيعة في هذه الصورة :

الصفاء الممتد يشعر روحي
بالظلام الممتد حول نضائي
والضياء الجميل .. عمّق حزني
وأراني تفاهة الأشياء
والنسيم الرقيق ينساب كالأفـ
ـعى .. مثيراً أفاعي الحوباء

ولا تقف نظرة الشاعر الى الطبيعة عند حدود الظواهر على ما رأينا في الابيات التي تمثلنا بها او غيرها من الابيات التي يحفل بها الديوان .. وانما تتجاوزها الى ماوراءها فاذا الشاعر يرتفع باحساسه الى بداهة الفلاسفة ، وشعور المتصوفة ، ليلمس به الحقائق المطلقة التي تختفي وراء الظواهر .. واذا هو مدرك لهذا الترابط الأبدي بين الاشياء ، الذي يجعلها أشبه ماتكون باللحن الموسيقي تختلف أنغامه بين الجهر والهمس والطول والقصر والسرعة والبطء ، ولكنها بترابطها وانسيابها في دائرة واحدة تؤلف بأجزائها وحدة الكل .. مثل قوله في المقطوعة رقم ١١٠ :

ناظراً للوجود .. ينسجُ اثوا
ب الليالي منواله الأبديُّ
ناسجٌ كلَّ لحظة .. كلَّ مزق ..
كلَّ بشرٍ .. فؤادُه العبقريُّ
واصلٌ في خلوده كلَّ شيءٍ
فكره الواسع العميق القصيُّ
فالذي راح في الامس .. باق
والذي في سريرة الغد حيُّ
والوجود الرحب .. لحن كبير
يلتقي فيه همسُهُ والدويُّ ..

أو مثل قوله في المقطوعة رقم ١٢٧ من قصيدة الروح القدس :

سر بنا .. فالهدوء والنيل والليـ
ل .. تلاقوا في لحظة أبديّه
لحظة تكشف الحقيقة للرؤ
ح .. وتبدي أسرارها السرمديه
وتريني مسالك الأبـد العلـ
ـيا .. دروبا خلف الوجود خفيه

حفلت بالضياء طلقاً ،مصفى ،

هامس النور بالأغاني الشجيه

اتراني رأيتها قبل هذا ..

فهي في النفس صورة أزليه

وأعمق ما انتهى اليه الشاعر من شعره في الطبيعة هو وصفها في النفس ، ولست اظن ان شاعراً عربياً بلغ هذه الغاية .. ان الشاعر يتأنق في اختيار الفاظه ، ويركز فيها اضعاف اضعافها من المعاني والصور ، والاهتزازات النفسية ؛ ولسنا نقول كما اعتاد النقاد ان يقولوا انها الفاظ موحية بل نقول انها مشحونة بطاقة روحية بالغة القوة .. لأنها لا توحي فحسب بل تحدث من التأثير والانفعال ما يجعل القارىء يشعر شعوراً قويا انه ينطلق بأجنحة سحرية في عالم روحي غريب .. وقد ورد وصف الطبيعة هذا في مقطوعات متعددة في قصيدة «الروح والقدس» نختار منها قوله في المقطوعة رقم ١٧٦ :

بعد الزورق الصغير .. وجبريـ

ـل عليه لغير شيء مطل

غاب في نفسه .. ليجذبه فيـ

ـها نسيم طلق ، وروض ، وظل

وكهوف سحرية .. وطيور

شاديات .. غناؤها لا يمل

وعيون تجري .. وراعي قطيع

قد غدا تحت دوحها يستظل

في يدي ناي .. وللناي صوت

فيه تَوْرٌ حاو ، وزهر ، وطل

وفي المقطوعة رقم ١٧٧ التي بعدها قوله :

ورأى في الكهوف أسراب حور

سابحات فوق اللهيب المقدس

راقصات ، مغنيات غناء

حالم الهمس ، ناعم الصوت أملس

كل لحن يبعثه كائناً حياً ..

نديا .. كالصبح اذ يتنفس ..

والظاهر ان الطبيعة قد أخذت بلب الشاعر ، ولمسته بعصاها السحرية ، فهو من شدة شغفه بها ، وحبه لها ، لا ينساها حتى وهو يفصح عن اهدافه العليا التي يسعى اليها ، والتي من اجلها كتب

قصيدته « الروح القدس » اطول قصيدة كتبها شاعر عربي من وزن واحد .. فهو يقول على لسان الملاح الصغير يخاطب جبريل :

سيدي.. سيدي.. سلام لمسراك
الينـا عشيّـة وصباحـا
هذه غيبة عن النيل طـالت
وفراق بكل أنس اطـاحا
أنسيت النخيل والنيل والربـ
ـوة ، والشاطئين والادواحـا

وعندما احس جبريل بقدرته على ان يحمل رسالة السلام للبشر في قوله :

انـي شـاعر بقوة روح
في كياني لاتعرف المستحيلا
انني صاعد الى قمة النـار
يخ ادعو الأجيال جيلا فجيلا
ان مجد السلام يغمر قلبي
بنشيد ينسـاب عذباً جميلا
أنا معطيه للحياة .. ولن أز
مع عنها قبل انتصاري الرحيلا

أخذ يوجه خطابه الى كهوف نفسه التي خلقتها الطبيعة فيها فيقول :

يا كهوف الاسرار . كالقدر العا
تي .. انا .. كالجبال .. او انا أعلى
ان عزمي اذا اراد طغى .. او
لم يرد لم يجد سوى العفو نبلاً
انا مـاض لكي احقق للار
ض سلامـاً يبقى أمناً وعدلا

وتأخذ الطبيعة في شعر الشاعر احمد مخيمر طابع الهدوء وهو ماتتميز به الطبيعة المصرية اذ ليس فيها العنف الذي في ألوان الطبيعة في شتى بقاع الأرض .. ويبدو غرام الشاعر بالليالي القمراء فيها حد الفتنة وتكاد تكون كل معانيه فيها جديدة وعلى غير مثال سابق قوله :

وكأن الضيـاء اذ يتراءى
من خلال الاغصان والاوراق
فيض نافورة .. تصب حنينا
لامياه من جدول رقراق
وكأن الذي على الارض من
قطرات الحنـين والاشواق

او قوله في المقطوعة رقم ١٢٦

حسنا .. سر بنا فقد طال شوقي
للهـــــدوء في القمـــراء
وكأن الضياء تعكسه الأمـ
ـواج .. لحن مشعشع الاصداء
تبصر العين مثلما تسمع الأذ
ن .. فلح العيون كالاصغاء ..

فالهدوء المضيء هنا هو روح الطبيعة المصرية .. يلمسا الشاعر بأنامله ..

وتبدو في هذا الشعر ظاهرة أخرى هي اشتراك الحواس في نفس الشاعر وهو يتوغل خلف الظواهر في الطبيعة ، ورغم أن الشاعر مسبوق بهذه الصورة للاحساس بالاشياء وذلك في قول المتنبي : فكأنما يبصرن بالآذان .. إلا ان الصورة هنا تبدو اكثر استقرار واعظم وضوحاً ...

والظاهرة التي لفتت نظري في شعر الطبيعة الذي كتبه الشاعر احمد مخيمر هو تصوره للطبيعة في بدايتها ، وفي هذا الشعر يبدو ان الاغوار التي يلمسها الشاعر بغير قرار ، ولهذا فقد خرجت معانيه فيما أشبه ماتكون بالغابة التي غرقت في الضباب .. وتتجلى هذه الظاهرة في بعض ما كتب الشاعر في لزوميات مخيمر ففي احداها يقول ص ٢١١ :

أرى ذلك الصبح مـــن حسنه
كأول صبح بدا في الأزل
كأن اغانيّ بــدء الزمان
تطـــوف بأنواره لم تزل

وقصيدته « عويل الريح » ص ٣٠٣ يقول والخطاب للريح :

تسوقين اشباح السنين كأنهـــا
خيالات حلم في سرائر نوّم
يلبن على قلبي زحاما وضجة
كطير على نبع من الماء حوّم

• • •

وتبعثـــين الذكريات كأنها
وراء ظلام الحزن أنجم غيهب
أراقبها من فرجة النفس صامتا
وتذهب بي عيناي في كل مذهب

الى ان يقول :

فيا أرغن الآزال .. تنطق بالذي
تواريه مـن سر خفي مجمجم

تصوّر في هذا العويل ابتداءها
وأيامه موصولة لم تجمّم

• • •

دلفتَ من الازمان .. لامن مكانها
ودرتَ على الدهر الفضاء .. كمارد
وما ذقتَ من احيالها غير مارأت
عيونك فيها من خبيث الموارد
ألا حدثيني .. كيف اول ضحوة
أطلّت على تلك السماء الجميلة
أشاعت سناهـا صافيا وظلالها
وغنت لها الاطيار فوق الخميلة

والحق ان باب «لزوميات مخمر ..» في ديوان «الغابة المنسية» حافل بنماذج تستحق أن يخصص لها مقال .. فان الشاعر فيها قد لجأ الى ضرب من التعبير لم يلجأ اليه الا ابو العلاء المعري .. كما انه احدث تبديلا في الاغراض التي تناولها ابو العلاء في لزومياته الأمر الذي يجعل دراستها على روية وفي أناة شيئاً لابد منه ..

ورغم هذا فمايزال — في رأيي — شعر الطبيعة في ديوان «الغابة المنسية» هو الشعر الذي تفوق فيه الشاعر على نظرائه في لغته .. ونحن لانقول هذا مجاملة .. ولكننا نقرر حقيقة يجب ان يعلمها كل من يهمهم مستقبل الشعر العربي في وطننا المترامي الاطراف .. ان هذا الشعر مبتكر في معانيه واخيلته، ومنسق في كلمات بلغت في موسيقاها شأوا بعيدا ..

هذا .. ولايمنعني اعجابي الشديد بشعر الطبيعة في ديوان الغابة المنسية من ان اذكر بعض ملاحظاتي عليه وهي ملاحظات لاتغضب الشاعر، لأنه على ماأعلم شديد الثقة بنفسه الى الحد الذي يلومه فيه الناس، ويعتقدون ان غروره من النوع الوقح الذي يشعرون كأنه إساءة منه اليهم .. وهي بعد ذلك لاتغض من قدره ولاتنقص من مكانته التي وضع نفسه فيها بين شعرائنا ..

لقد فهمت من المقدمة التي صدر بها الشاعر ديوانه لبيـــان مراحل تطوره الفكري منذ ١٩٢٢ انه شاعر قد انتهى الى الواقعية واتخذها مذهبا له وكون بها

ايديولوجيته .. ولكن الشاعر صدر ديوانه بهذه الأبيات :

قلبي بقلب الوجود متصل
يأخذ عنه الحقيقة الاولى
يالزماني .. فكيف يفهمني
قلت سؤالا .. أو كنت مسئولا
برغم ماتقرءون من كلمتي
فانـــي ما أزال مجهولا

وهي ابيات تبعد الشاعر عن الواقعية وتجذبه جذباً الى عالم الرومانسية الذي عاش فيه متذبذباً حياته الفنية .. وفي كثير من قصائد الديوان تبدو ظلال الرومانسية واضحة .. فهو في الواقع لم يتخلص منها بعد .. وتبدو هذه الظلال متعانقة بأشجار الواقع في غايته ..

ورغم ان عنوان الديوان - كما فسره الشاعر - هو رمز لنفسه بما فيها من ذكريات متشابكة واحاسيس مركبة، وتصورات متداخلة الا انه عنوان يحمل من الرومانسية الشيء الكثير ..

هذه واحدة ..

وملاحظة أخرى جديرة بأن يفكر فيها الشاعر طويلا هي ان شعره الوطني تقريري كله برغم مايبدو في بعض ابياته من رقة وجمال وقد نلتمس - لغير الشاعر احمد بخيمر - العذر في هذا ، ولكن شاعرا متمكناً مثله - كما يقول عنه الدكتور عبد القادر القط - لاينتظر منه ذلك ، وخذ لذلك مثلا قصيدته عن « السد العالي » و « محنة سوريا » وغيرها والقصيدة الوحيدة في هذا الديوان التي سلمت من التقريرية هي قصيدة « خروشوف » ص١٣٨ ونقتطف منها هذه الابيات التي يخاطب فيهـــا خروشوف .. وجمال ..

ياخروشوف .. ياجمال . استعدا
لصباح يضـــيء للأجيـــال
أنتما واقفان في مفرق الأ
يام .. تستقبلان خطو الليالي ..
ليس ماتسمعان صوت اندفاع الـ
ـسماء .. لكنه هدير النضال
وانعكاس لضجة المجـــد في أع
ماق شعب مناضـــل لايبالي

والذي تبصران من ذلك النهـ
ـر .. ضجيج التاريخ فوق الرمال
إن في كل قطـــرة قوية تُبْـ
ـنى .. وظلا" لجـــدول سلسال
وحقولا خضرا .. وصيحة فلا"
حين .. فوق الصخور .. تحت الظلال

وهناك ملاحظة هامة ، هي أن مأساة فلسطين لم تحتل لها مكانا في صفحات الديوان . والصراع العنيف بين الاستعمار والشعب العربي لا أثر له في الديوان .. وهذا شيء يؤسف له بالضرورة .. ولعل فيما لم ينشره الشاعر من شعره شيئاً من ذلك نرجو ان نراه فيما يصدر له من دواوين مقبلة ..

وبقيت ملاحظة اخيرة لاتقل اهمية عن سابقتها .. لماذا لم ينشر الشاعر قصيدة الروح القدس كاملة .. ولماذا اكتفى الشاعر باللحن الثالث منها وهي عشرة الحان كما يقول في مقدمة القصيدة ..؟! هل ضاعت القصيدة كما ضاع غيرها من شعر الشاعر .. وهو كثير كما ذكر ذلك في الديوان ..؟! تحياتنا الى صاحب « الغابة المنسية » ونرجو ان نعود اليه في فرصة اخرى فنحن لم نستوعب كل ما اشتمل عليه هذا الديوان من أبواب مختلفة وأغراض متنوعة .. ونرجو كذلك ان يكون العود قريباً ..



العلاقات الثقافية بين روسيا واوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر

للكاتب السوفيتي فاسيلي كوليشوف

نشر : جامعة موسكو

عرض الناقدة السوفيتية آدة إيفانوفسكايا

ترجمت العرض عن الفرنسية الآنسة دلال حاتم

صدر أخيراً في موسكو كتاب باللغة الروسية يتناول العلاقات الثقافية بين روسيا من جهة واوروبا الغربية من جهة أخرى وذلك في القرن التاسع عشر ، ومؤلف الكتاب هو الاستاذ فاسيلي كوليشوف ، الاستاذ في جامعة موسكو ، والذي قام بتأليف عدد كبير من الكتب تتناول كلها بالبحث الأدب الروسي في القرن التاسع عشر وكان آخرها هذا الكتاب الذي نشرته جامعة موسكو عام ١٩٦٥ .

يقول كوليشوف في مقدمة كتابه : ان هذا الكتاب ماهو الا توضيح لمعالم الحياة الأدبية في القرن التاسع عشر في روسيا واوروبا الغربية ، ودراسة دقيقة لتطور الأدب في كل من العالمين وتأثير احدهما على الآخر ، هذا التأثير الذي

يبدو كجزء متمم لتطور الادب العالمي والآداب المحلية .

ولا يكتفي كوليشوف في دراسته هذه بالتوقف عند أثر الآداب الغربية ومدى تغلغلها في روسيا وأثرها على انتاج الكتاب الروس ، بل يتعداه ايضاً الى دراسة التطور الادبي التي حدث في روسيا والذي كان له أثره ايضاً على الحركة الادبية في اوربا الغربية .

يعود بدء اتصال الحياة الادبية بين روسيا واوربا الغربية كما يقول كوليشوف الى عام ١٨٠٢ ؛ وذلك عندما أسس كارامیزین Karamzine مجلة أطلق عليها أسم « رسالة اوربا » وخصصها لنشر الاحداث السياسية والادبية في اوربا بغيـــة اطلاع القارىء الروسي على مايحدث من اتجاهات ادبية في خارج روسيا .

وقد ظلت مجلتا میر کور دوفرانس Mercure de France و منيرفا الفرنسية La Minerve Francaise من اكثر المجلات رواجاً وانتشاراً في المجتمع الروسي وذلك في السنوات العشرين الأولى من القرن التاسع عشر ، والى جانب هاتين المجلتين : المجلة الانسيكلوبيدية التي يصدرها مارك انطوان جوليان في باريس والذي كان يساعده في تحريرها عدد من الكتاب الفرنسيين والروس . كما ان الكتاب الفرنسيين نشروا مقالات وموضوعات ادبية في المجلات الروسية حيث قام بترجمتها في مجلة « موسكو تلغراف » الشاعر والناقد الروسي بيتر فيازيمسكي وجعل عنوان هذه الترجمات « مقتطفات من الصحافة الفرنسية » .

وفي الفصل المخصص لبحث العلاقات بين كتاب روسيا والغرب ، يعود كوليشوف الى عام ١٨٠٤ اي العام الذي ذهب فيه فاسيلي بوشكين (عم الشاعر) لزيارة المانيا وفرنسا وانكلترا كما تناول بالتفصيل زيارة الشاعر ويلهم كوشلبا كر Wilheein Kuchelbaeker عام ١٨٢٠ — ١٨٢١ لمدينة باريس

والنشاط الادبي الذي قام به فيها . لقد كان لهذه الزيارة اثرها الكبير في فرنسا كما كان لها رد فعل عام في روسيا واثارت غضب الحكومة القيصرية التي طلبت عودة الشاعر مباشرة الى بلاده . لقد ظلت اخبار هذه الندوات الادبية التي عقدها الشاعر في باريس في طي الكتمان مدة مائة وثلاثين عاماً الى ان نشر شيئاً من اخبارها بعض كتاب المذكرات التاريخية اما النسخ الاصلية لهذه الندوات فقد وجدت منذ مدة بسيطة بين مخطوطات الكسندر تورجنيف ونشرها القت بعض الاضواء على نشاط الشاعر كوشيليا كر الثوري .

ثم ينتقل كوليشوف للكلام عن نشاط نقولا والكسندر تورجنيف ، وسيرجي سوبوليفسكي ، وفلاديمير ستروييف وغيرهم من الأدباء الروس الذين ذهبوا كلهم الى فرنسا ونظموا ندوات التقوا فيها مع عدد من الكتاب الفرنسيين ، ثم عادوا ليكتبوا للشعب الروسي عن الحياة الادبية في فرنسا .

وقد نشر في مجلة « الحوليات الوطنية » ومجلة « المعاصر » التي أسسها نيكراسوف عدد من الكتاب الدائين مثل ايفان تورجنيف وبافل انينكوف Pavel Annenkov . وقد نشر تورجنيف في مجلة الحوليات الوطنية مجموعة من المقالات بعنوان « رسائل من باريس » شرح فيها بالتفصيل مظاهر الحياة الأدبية والاجتماعية في العاصمة الفرنسية ، كما انه كتب ايضاً دراسات عن بيلينسكي — هرزن — غوغول وغيرهم من الكتاب الروس ونشرها في مجلات أخرى .

كما ارسل بافيل انينكوف عدة رسائل الى صديقه بيلينسكي يخبره فيها عن النظريات الاشتراكية التي تلاقي قبولاً ورواجاً في فرنسا . ثم نشر مجموعة من المقالات في مجلة « الحوليات الوطنية » ورسائل من باريس في مجلة « المعاصر » وذلك في عامي ١٨٤٧—١٨٤٨ . ويلاحظ أن العلاقات الثقافية قد ازدادت متانتها

في هذه الفترة بدليل ظهور عدد كبير من المقالات والمواضيع الأدبيـة لفاسيلي بوشكين ، ابفـان باتايف ، اندريا كرونبرغ ، وكلها تبحث في العلاقات الثقافية والادبيـة بين روسـيا واوربا الغربيـة وخاصة فرنسا . وفي نهاية الاربعينات وخلال الخمسينات نتعرف على وجود هذه اللقاءات الادبية واستمرارها من خلال سلسلة من المقالات كتبها الناقد الروسي الكسندر دروجين وجعل عنوانها « حول النقد المعاصر في فرنسا » .

ومن خلال الترجمات التي قام بها جوكوفسكي يعود كوليشوف الى تحليل العلاقات الأدبية والفكرية بين رجـال الأدب في روسيا والغرب وهو يدرس هنا المقطوعات الاولى التي ألفها الشاعر ليرمونتوف ويجد فيها كثيراً من انفاس شيللر وبايرون وهوغو . ثم درس اعمال الكتاب الذين اقتفوا اثر والتر سكوت مثل « ميخائيل زاكوسكين » وهوفمان مثل « فلاديمير اودويفسكي » وجورج صاند مثل « ايلينا جان والكسندر دروجنين » .

ثم يخصص كوليشوف فصلاً كاملاً من كتابه بعنوان « الجديد والقديم » يتكلم فيه عن ازدياد الروابط الادبية وتلاحمها بين روسـيا والغرب . وينتهي الى ان الآداب في اوربا الغربية مشابهة في هذه الفترة لما ينتجه الادباء الروس ولكن هذه الاخيرة تتميز عنها بانهـا مطبوعة بطابع شروط الحياة وظروفها في روسيا .

ان موقف الرومانسيين الروس من مدام دوستايل يمثل حسب رأي كوليشوف احدى نقاط اللقاء بين الادبين في النصف الاول من القرن التاسع عشر ويؤكد كوليشوف انه لولا وجود هذه التأثيرات بين الاثنين لما كان هنالك مجال للابداع الفكري والادبي . وكدليل على هذا الرأي يقارن المؤلف بين كتاب « عشر سنوات في المنفى » لمدام دوستايل ورسائل الضابط الروسي فيدور غلينكا ، ويشرح في هذه المقارنة نقاط التشابه واللقاء بين ما كتبته مدام دوستايل وبين ما كتبه الضابط الثائر

غليكا بالرغم من بعد الشقة بينها وحياة كل منها في عالم يختلف عن عالم الآخر. كذلك بين كوليشوف التقاء أفكار كل من الثائر الروسي ريلييف وبنيامين كونستانس وذلك بمقارنة اشعار ريلييف التي كرسها كلها لوطنه روسيا مع ما كتبه كونستان في مجلة منيرفا الفرنسية والتي اعيد نشرها عام ١٨١٨ في مجلة رسالة اوروبا.

ثم يخصص المؤلف عدة فصول من كتابه للكلام عن بوشكين وغوغول، فيتكلم عن رائعة بوشكين الأدبية اوجين اوغين (١٨٢٣ - ١٨٣٠) وهي أول رواية واقعية نقدية استطاع بوشكين ان يتخلص فيها من التأثيرات الغربية. اما في رواية ابنة القائد فقد ظل اثر روايات والتر سكوت واضحاً فيها. وعندما يتكلم كوليشوف عن اعمال غوغول الادبية والتي أحدثت انقلاباً في كتابة النثر الروسي فانه يقول «ان غوغول يبدو في نقده شخصية مستقلة ولكن الواقع انه ما يزال واقعاً تحت تأثير عدد من النقاد الذين سبقوه في العالم الغربي وخاصة هوفمان».

ويتكلم المؤلف في الفصل الاخير من الجزء الاول من كتابه عن التشابه الكبير في البناء الادبي بين الادبين، اي تشابه الظواهر والظروف بينهما ولو ان كل واحد نشأ مستقلا عن الآخر. ويؤكد كمثال على رأيه هذا: هيرزن، نيكراسوف غونتشاروف ودستويفسكي من جهة، وجورج صاند، ديكنز، وتاكيري من جهة أخرى:

وان الاعمال الادبية لهؤلاء الكتاب الغربيين لم تلعب دوراً نهائياً وحاسما في نشوء المدرسة الطبيعية الروسية، ولكنها وجدت صدى لها في نفوس الواقعيين الروس. ان روايات هؤلاء الكتاب الفرنسيين والانكليز كانت تترجم غالباً الى اللغة الروسية، وتقرأ وتنتشر بصورة واسعة مما يؤدي بالطبع الى ان يتأثر بهم الكتاب الروس ويقتفوا اثرهم في ادبهم الشخصي».

ويتناول القسم الثاني من كتاب العلاقات الثقافية بين روسيا واوربا الغربية في القرن التاسع عشر الاثر المعاكس لتفاعل الآداب في العالمين .

« بالرغم من ان الادب الروسي لم يعرف جيداً الا في عصر تولستوي ودستويفسكي وتشيخوف فانه من الخطأ الفادح ان نهمل المعلومات والآراء التي كتبت عن الادب الروسي في المجلات الاجنبية خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر . فقد صور الادب الروسي في الغرب كظاهرة وطنية منذ حرب عام ١٨١٢ ، واصبحت روسيا وأدبها جزءاً مكملا هاماً من التاريخ والادب العالمي ، وبدأت صور روسيا تتغلغل بعد هذا التاريخ في عالم فكر كتاب أوربا الغربية » .

وقد بدأت الدعاية للأدب الروسي في في أوربا الغربية منذ قام جون بورينغ بترجمة بعض الآثار الروسية الى اللغة الانكليزية ، وفون دير بورغ الى الالمانية ودويزي دوسان مور عام ١٨٢٣ الى الفرنسية . ولكن هذه المختارات التي ترجمت الى اللغات الثلاث تشترك كلها في عيب واحد ، اذ ان كل ماترجم في تلك الفترة كان يعكس ويمثل عصر جوكوفسكي لاعصر كتاب الثوريين وبوشكين الشاب .

ثم يخصص كوليشوف فصلا كاملا للحديث عن الدور الذي لعبته المجلة الانسيكلوبيدية في انتشار الادب الروسي في الغرب، ويتكلم عن المميزات العالية للأدب الروسي وملامحه في ثلاثينات واربعينات القرن التاسع عشر .

وينهي كوليشوف كتابه بالكلام عن تأثير الادب الروسي على أدب اوربا الغربية ويعقد مقارنات هامة بين كتابات مارييه وبوشكين لتأكيد آرائه .

واخيراً لقد كانت التيارات الادبية في روسيا واوربا الغربية تلتقي وتشتبك وتتمازج باستمرار ولابد عند دراسة الادب الروسي من دراسة التأثيرات والتفاعلات الادبية بينه وبين الآداب الأخرى لتزيد معرفتنا بواقع هذا الادب .



اتحاد وندوة
ومعرضان
وفنان راحل

تقديم غازي الخالدي

مرحلة تجريدية ←
من اعمال اسماء فيومي

معرض وندوة اسماء فيومي

صالة الفن الحديث العالمي – دمشق

في تقديم معرض اسماء فيومي قال لارجينا استاذ التصوير في كلية الفنون الجميلة بدمشق :

« اذا كانت الافكار التقدمية قد عمت ارجاء هذا البلد تبعاً لايديولوجيته الجديدة ، واذا كان البحث العلمي فيه يساير احداث التطورات المعاصرة فلا يعقل ان يظل التعبير الفني رجعياً ، لأن ذلك سيشكل عقبة في سبيل التطور الفكري ، باعتبار ان الفن عنصر هام من ذلك الحرك العجيب : (الفكر الانساني) .

فان لم يماش هذا العنصر باقي العناصر في تطورها فلا يدور الحرك بايقاع متجانس في مجموعه » .

تنتسب اذن هذه الاعمال لاسماء فيومي للغة فنية معاصرة : وهي تعبير تصويري عن حساسية انفعالية مقترنة بمكتسبات ثقافية مناسبة » .

على ضوء هذا التمهيد الذي قدمه استاذ اسماء فيومي يمكننا ان نعتبر تجربة اسماء هذه تجربة جديدة اهم ما فيها الجرأة في مواجهة نفسها ومواجهة الجماهير من نقاد وفنانين ومتذوقي الفن .

انطلقت الآنسة فيومي منذ كانت طالبة في كلية الفنون من الواقع ، درست الاشكال دراسة اكاديمية وهضمتها ثم تجاوزتها بسرعة وبكثير من الوعي الفكري الذي اتسمت به اعمالها في جميع مراحل دراستها ، وجاء مشروع البكالوريوس فرصة طيبة للتعرف على هذه الامكانات الجديدة التي انضمت الى حركتنا الفنية المعاصرة في سورية ، حيث نالت درجة الشرف على المشروع ، والمشروع بحد ذاته كان تحويراً وتبسيطاً وتجريداً لاشكال آدمية ومرئيات واقعية باسلوب اعتمد على البقعة اللونية المجزأة الى درجات متفاوتة .

لا يمكن مناقشة اعمال اسماء فيومي من خلال الرؤية الاولى او من خلال العلاقات التشكيلية فحسب بل المهم

ايضاً هو الفكر الانساني الذي يشكل ارضية للنتائج التي قدمتها في معرضها الاخير .

حاولت اسماء فيومي ان تجمع ثلاثة عناصر في اعمالها الاخيرة : الطبيعة ، الانسان ، والفكر المجرد .

فمن الطبيعة اخذت الوانها الصريحة المتفجرة ، ومن الانسان حولت تناقضاته وتوتره النفسي وانفعالاته الذاتية الى الوان متكاملة تارة ومتباينة تارة اخرى ترتفع من مستوى انفعالي حاد الى مستوى الهمس الشاعري الهادىء ، وترجمت ذلك الى الوان حارة والوان باردة ، كالاحمر الفيرمليون والاخضر الشفاف .

اما من الفكر المجرد ، فقد حولت عدة مفاهيم نظرية تجريدية كالخير والحب والحنان والخوف والحزن الى درجات لونية تمتاز بحساسية خاصة بين درجة واخرى وتختلف باختلاف المفهوم الذي ترمز اليه .

من الناحية التقنية فان اسماء حولت اللون من طاقة انفعالية الى قيمة تشكيلية فكما نرى الخط والظل الذي يحدد شكلا ويؤكد كتلة معينة في التعاليم الكلاسيكية فقد استعاضت اسماء عن الخط والكتلة باللون نفسه ، فهو الخط وهو الكتلة وهو الشكل ، لذلك نلحظ كيف انها تحرك اللون في مساحات صغيرة تحريكا انفعالياً وتشكيلياً باحساس عفوي صادق ، وهي بهذا الاسلوب لم تعد الطبيعة تستعبدها ، انما اخذت من الطبيعة ما تريد ، واعطت من نفسها ما تريد ، فاتت لغة جديدة تتلاءم مع طبيعة العصر الحديث فلم تعد مهمتها شرح ووصف الطبيعة انما الاستفادة من رموز الطبيعة وتحويلها الى قيم جمالية عن طريق وسائل التعبير المتوفرة في الفن التشكيلي، ولكي تنوع في المدلول الحسي لاعمالها استخدمت عدة اساليب تقنية كتعدد الخامات ، واختلاف الملمس واستعمال الحرق والطبع بالزجاج .

وميزة هامة عند اسماء ايضاً هي

قدرتها على تفجير اللون الواحد وتحريكه من خلال بقعة غير محددة بعنف ، بحيث يحتضن اللون اللون الذي يليه ويتكامل معه .

اما ماذا ستقول اسماء فيومي في تجربتها المقبلة فهذا الامر متروك لدى الجدية التي ستمارسها في المرة القادمة كما مارستها في هذا المعرض .

اما الندوة التي اقيمت بعد المعرض مباشرة فقد القت اضواء جديدة على فن اسماء ، خاصة وان الفنانين السوفييت الذين حضروا الندوة واشتركوا في الحوار .. اكدوا رغم تعصبهم للمذهب الواقعي الاشتراكي في الفن ، اصالة الفنانة ، وجديتها وقال احدهم بالحرف : « اننا امام اعمال فنانة محترفة ، تستحق التهنئة ، خاصة وانها استطاعت ان تتصرف بالالوان الحارة والباردة بمهارة وذكاء وخبرة » . ورغم اختلاف بعض وجهات النظر التي عرضت في الندوة فهي بمجموعها كانت توضيحاً لجوانب كثيرة لتجربة اسماء .

معرض محي الدين صالح

مقهى ابليت بالاسكندرية

الامر الطريف والجديد بالاهتمام في هذا المعرض الذي يقام بمقهى عام في الاسكندرية ، انه تقليد جديد بالنسبة لبلادنا العربية ان يتجرأ فنان ويقيم معرضه الاول بين رواد الشطرنج وورق اللعب والضامة .

اتصور بان هذا التقليد لابد ان ينتقل سريعاً الى دمشق حيث يمكن عن طريق هذا النوع من المعارض تحقيق عدة مكاسب هامة :

اولاً : احتكاك الفنان بالجمهور مباشرة والحوار معه حول كثير من القضايا والتعاريف التي هو بحاجة الى التعرف اليها .

ثانياً : سيغير الفنان ولاول مرة في تاريخ المقاهي احاديث روادها الروتينية المعتادة عن البيت والديون والسياسة والتلفزيون والطقس الى التعليق والتحدث عن اللوحات المعروضة .

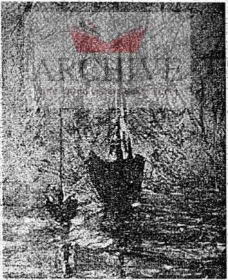
ثالثاً : سيكون مجال الاقتناء وراداً

من الجمهور للوحات التي تنال اعجابه ، خاصة وان فكرة الاقتناء والتشجيع المادي من المعارض المحلية بدأت تخف شيئاً فشيئاً حتى من المعارض الرسمية الموسمية ، بعد أن الغيت نهائيـــاً من المعارض الفردية .

رابعاً : والمعرض من ناحية اخرى يجعل الفنان قريباً من الشعب ، ويحتك به مباشرة . ويصبح الفن شعبياً من هذا المنطلق .

خامساً : سيزيد هذا النوع من المعارض الوعي الفني لدى الجماهير ويفتح اذهانهم الى قيم جمالية لايمكنهم ان يعيشوها في حياتهم اليومية .

قدم هذا المعرض نبيل فرج بقوله : ان الفنان لايسجل المرئيات وانما



ثورة سماء — محيي الدين صالح

يتغنى بها غناء شجياً لانه يتيح اعماله في نوبات التشاؤم التي تقهر الانسان لاوقات البهجة الحقيقية ، الا اصعب منالاً .

ويكتفي محي الدين صالح عادة باثنين : قاربان أوسمكتان ، أو زهرتان أو وجهان احدهما اصغر من الاخر ، ومن مقربة منها بلونين مختلفين اوبلون مشترك ، الدرجة والظلال ، تعني في ضميره التلازم من اصغررموزه في المكان الى صوره الكبرى في الوجود ، والى العزلة القلقة في نفس الوقت دون تحقق الذوبان » .

وعن نفس المعرض كتب الدكتور حسن ظاظا من قسم الدولة العالي في متحف اللوفر قال :

« اما فن محي الدين فسوف تفهمه كله لان هذا الرسام — وقد عرفته من سنين طويلة — قد تعود ان يعبر عن نفسه بالريشة والالوان قبل ان يفكر في التعبير عنها بالكتابة ،فالتصوير بالنسبة له لغة تحمل الارادة والمعرفة . »

اول اتحاد للفنانين السوريين

من النتائج الهامة التي اسفر عنها معرض الخريف هذا العام هو التفكير الجدي في موضوع تأسيس اتحاد عام للفنانين السوريين من جميع المحافظات ، يكون هذا الاتحاد هو الموجه الحقيقي والاول للحركة الفنية في سورية ، وهو الذي سيقود العمل الفني ويقدمه للناس على احسن صوره . وسيمثل الاتحاد جميع العاملين في الحركة الفنية من الفنانين والنقاد . على ان يجمعهم المستوى الجيد والعمل المثمر .

هذا وستشكل لجنة تحضيرية تدرس المشروع وتطرحه في اول مؤتمر سيعقد قريباً لجميع الفنانين في سورية العربية ، وفي هذا المؤتمر سيعلن رسمياً قيام هذا الاتحاد الاول من نوعه .

هذا الاتحاد الذي يجب ان يظهر للوجود لينظم فعاليات الفنانين ويعطيهم القوة ليواجهوا كل الصعوبات التي تعترضهم وليمارسوا حق الفنان في خدمة

وطنه وتمثيل بلاده على الوجه الاكمل في النطاق الدولي وفي المعارض الرسمية التي تشرف عليها الدولة ، خاصة من ناحيتي الانتقاء والاقتناء .. بحيث ينظم هذا الاتحاد مقتنيات متحف الفن الحديث ومديرية الفنون ليمثل هذا الاقتناء خير تمثيل جميع الفنانين المنتجين الاصلاء .

لقد بدأت الخطوة العملية الاولى لتأسيس هذا الاتحاد في الحفلة التي اقامتها الوزارة تكريماً لفناني معرض الخريف..

حيث اجتمع حوالي سبعين فناناً من جميع انحاء القطر .. والتقوا جميعاً عند فكرة تأسيس اول اتحاد عام للفنانين يجمع شملهم ويوحد كلمتهم .

والت ديزني

١٩٠١ — ١٩٦٦

« كنت وحيداً .. لم اكن املك .. حتى فأراً .. باستثناء بعض الافكار ..

وبعد اربعين عاماً من السقوط والارتفاع في هذا العمل المجنون ..

اقول : ان الجماهير مازالت تستحق عملا افضل ! »



هذا ماقاله والت ديزني ..

وشهرة والت ديزني لاتقل عن شهرة بيكاسو .. وشارلي شابلن .. وخشادوريان . وكبار عمالقة الفكر والفن في العالم ..

من هو والت ديزني ..

عاش الطفل والت في كنف والده النجار البسيط في ولاية ميزوري .. وفتح عينيه على حياة الحيوانات في المزارع المجاورة .. واغرم بها .. واتجه نحو تجربة شارلي شابلن .. وبدأ في محاولة صنع افلام الكرتون .. ورهن كل امواله .. وبدأ مشروعه باربعين دولاراً !

وظهرت شخصية (ميكي ماوس) في اول فيلم ناطق عام ١٩٢٨ . ودرس صناعة افلام الكرتون في اكاديمية الفنون الجميلة .. انشأ مدينة والت ديزني في كاليفورنيا وفلوريدا ضمت حدائق و ٢٢ مسرحاً ومطاعم ومعارض وحوانيت مختلفة !

وادخل الصوت واللون الى السينما ، واتجه نحو الاخراج السينمائي للافلام الغريبة التي لا يمكن للانسان ان يراها في حياته اليومية الا من خلال احساس خاص بالجمال والفن ! واخرج حوالي مئة فيلم طويل منذ عام ١٩٣٧ منها : سندريلا ، جزيرة الكنز ، الصحراء الحية ، السيدة والمتسول ، والثلج الابيض ، والاقزام السبعة .

وصار والت ديزني حبيب الاطفال في جميع انحاء العالم .. ورمز الخير والمحبة والسلام .. حيث كانت جميع افلامه هادفة وذات مدلول انساني عميق .

عاش والت ديزني كرمز للانسان الفنان المناضل الذي اثبت وجوده من خلال عمله المستمر وايمانه الاكبر برسالته الفنية الخالدة .. وأثر والت ديزني على السينما ، وعلى الفن ، وعلى مسرح العرائس وعلى الموسيقى التصويرية في الافلام .. وعلى مفهوم الرسم الكاريكاتوري وعلى التصوير الضوئي .. واثر علينا ايضاً من خلال روائعه الخالدة التي قدمها للسينما خلال ٤٠ عاما في ١٥ كانون الاول ١٩٦٦ وبعد أن اقطعت قطعة من رئته توقف قلبه المرهق بالعمل ومات بصمت ! ليبكيه الفن .. وليعيش حياته في قلوب جميع اطفال العالم ..

أسبوع الفيلم السوفياتي

للدكتور رفيق الصبان

لايعتبر الاسبوع السوفياتي للافلام التي نظمته المؤسسة العامة للسينما في دمشق برعاية وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ظاهرة سينمائية فحسب، بقدر مايعتبر خطوة اساسية وجوهرية في تدعيم الصلات الثقافية بيننا وبين الاتحاد السوفياتي .

والجمهور السوري الذي تابع بشغف الاسابيع السوفياتية التي نظمت في سورية بشكل دوري منذ اكثر من ثلاث سنوات اصبح بوسعه ان يتحدث عن السينما السوفياتية حديث العارف لان هذه الاسابيع قد اتاحت له رؤية اجود ماقدمته السينما السوفياتية خلال فترة تطورها الاخير .

اصبح بوسعه ان يتكلم عن فترة البعث التي بدأت بافلام (الطلقة الحادية والاربعون) و (البيت الذي اسكن فيه) و (عندماتمر اللقالق) .. وان يتكلم عن فترة نقل الآثار الادبية باسلوب سينمائي غني ومشوق ليس فيه التعقيد الشكلي الذي برع فيه السينمائيون الاوروبيون ولكن فيه العمق والحرارة والصدق الذي تتمتع به الروح السلافية في طريقة معالجتها للمشاكل الانسانية .. وهكذا رأينا (عطيل) و(الابله) و(دون كيشوت) و(الليلة الثانية عشرة) و(الدون الهادىء).

كما أصبح بوسع المتفرج السوري أن يتكلم عن الانطلاقة الفنية الحقة التي وصل اليها المخرجون السوفيات في السنوات الاخيرة في حقل التعبير السينمائي المبتكر .. واعطاء

اشياء جدية وجديدة لهذا الفن الخطير الذي اصبح دون شك ام الفنون جميعاً في قرننا هـــذا .. وهكذا رأينا (طفولة ايفان) و (سبعة ايام من العام) و (ايام السعادة) و (السيدة ذات الكلب الصغير) .

وهانحن اليوم نقف امام اسبوع جديـــد للافلام . . يحتوي كما قال السيد نيفنتوف رئيس الوفد السينمائي السوفياتي الذي حضر الى دمشق ليشهد افتتاح حفل الافلام السوفياتية بصورة رسمية على مختلف الاتجاهات التي تمر بها السينما السوفياتية .. فهناك الاتجاه التجاري للافلام والاتجاه الفني والاتجاه المحلي والاتجاه الملحمي . ولكن هذه الاتجاهات كلها تسير في منطلق واحد ونحو غاية واحدة .. هي تقديم الوجه المشرق للحياة .. الوجه الايجابي من خلال فن واقعي يخدم الانسان ويجد في كرامته الهدف الحقيقي له » .

انا لا اعترض على كلمات السيد نيفنتوف فهو انسان مثقف يعرف اتجاهات السينما السوفياتية خيراً من اي رجل سواه .. ويعرف كيف يجب ان تمثل السينما السوفياتية في مهرجان شرقي .

ولكن اعتراضي ينصب خصوصا على ان كثيرا من الافلام السوفياتية الهامة — التي قرأنا عنها الكثير والتي تحدث عنها سائر المهتمين بشؤون السينما في العالم — قد اختفت دون سبب من هذه التظاهرة الفنية الهامة .. اين (الحرب والسلام) !! اين « البيزنا المسحورة !!) اين (نحن الشعب الروسي) !! واين فيلم تشكوراي الاخير الذي نال وساما رفيعا في مهرجان كان (كان هناك امرأة ورجل عجوزان) .. لقد اختفت هذه الافلام وحلت محلها افلام ليست رديئة .. ولكنها لا تمثل في نظري الاتجاهات الفنية الحق للسينما السوفياتية الواعية .

ولكن لنكن موضوعيين ولنبدأ بالحديث عن هذه الافلام بصورة متتابعة وبالتنظيم الذي عرضت علينـــا به في صالة الحمراء :

(الصواريخ لن تطلق) فلم جاسوسي لا يتمتع بالحد الادنى من المعقولية والمنطق .. تتتالى الاحداث فيه بشكل يعتمد على الحدث غير الطبيعي وعلى المفاجآت التي تقع في كل ربع ساعة .

الفلم لا يختلف بشكله وبطريقة اخراجه عن الافلام الكثيرة الـــتي نراها من هذا النوع .. وان كان يرمز من حيث المضمون الى تضافر القوى مهما كانت جنسيتها للدفاع ضد عدو مشترك .. ولكن مثـــل هذا الموضوع الهام كان يمكن ان يكون اشد تأثيراً لو توفرت له المنطقية والحد الادنى من الاعتبار السينمائي الفني وهذا مالم نجده مطلقاً في الفيلم الاول .

ولكن اذا كان هناك مضمون انساني عام في الفيلم الاول .. فحتى هذا المضمون افتقدناه في الفيلم الثاني (بائع الاقمشة) الذي انتجته جمهورية اذربيجان الشعبية .. والذي لا اكاد اميزه عن المئـــات من الافلام الهنـــدية

التي غزت شاشاتنا الفضية في السنة الاخيرة فلم إختلط فيه الغناء بالرقص بموضوع يقوم على الفودفيل الرخيص ، كل ذلك باطار فني شعبي يغلب عليه التصنع والافتعال .. ومن خلال إداء بدائي يجعلنا نتساءل ان كان مخرج هذا الفلم قد رأى فيلما سينمئيا واحدا جديرا بهذا الاسم منذ سنوات ..!

اذن كان علينا ان ننتظر اليوم الثالث حتى تحدث المفاجأة وحتى نرى فيلما سينمائياً مشرقا بل اكاد اقول صفحة مشرقة من التعبير السينمائي الصحيح وحق تعاودنا الثقة بالانتاج السوفياتي الاخير . الفلم هو (لينين في بولونيا) الذي اخرجه سيرجي يوتكفتش والذي نال من احله جائزة الاخراج الاولى في مهرجان كان السينائي لعام ١٩٦٦

يروي فيلم (لينين في بولونيا) حقبة مهمة من تاريخ لينين السياسي قضاها في احد سجون بولونيا في الفترة التي سبقت قيام ثورة إكتوبر وانتصار الشيوعية في روسيا.السيناريو مأخوذ برمته من يوميات كتبها لينين في السجن وملأها بتأملات عامة عن اوضاع العالم واوضاع بلده وتأملات تتعلق بعلاقتــه مع بعض الاشخاص الذين كانوا يحيون معه او الى قربه في مدينة كراكوفي البولونية .

الفلم يريد ان يظهر النواحي الانسانية من حياة زعيم سياسي كبير وان يظهره لنا من



لينين في بولونيا – فلم ممتاز –

خلال دائرة لم نعتد على رؤيته فيما . والحق ان يوتكفتش قد نجح الى حد بعيد جداً في مرماه .. اذ رأينا امامنا انساناً في خريف العمر يتأمل بشيء كثير من الكآبة والتأمل حياة قلقة .. لايعرف اين مصيرها .. بل ان فشله (النسبي) في جذب الاشخاص المقربين اليه الى فلكه قد اعطاه إنسانية اشد وجعلنا نرى فيه انساناً له حدود الانسان ومعايبه وفيه كل عظمة الانسان وتأمله .

وقد نحا الاخراج في هــذا الفيلم نحواً جديداً.. اذ اراد يوتكفتش أن يعود باسلوب فيلمه الى اسلوب الفيلم الكلاسيكي الروسي الذي سنه من قبله بودفكين وايزنستين وان يحيي بشكل غير مباشر السينما الصامتة في عصرها الذهبي .. فجرد فيلمه من الحوار واكتفى بالصورة تعبر عما يريد التعبير عنه وبصوت خارج عن الممثلين يروي الاحداث كما نراها . كما لجأ الى التعبير الرمزي يضمنه الكثير من مفاهيمه وافكاره السينمائية كمشاهد الكنيسة والاغنام والجدار الذي لاينتهي والذي يؤدي الى السماء وكمشاهد عيدان الكبريت واحلام الفتاة في عرس ابيض يرتدي الكل فيه الثياب المزركشة ويرقصون امام السماء الممتدة الخالية من الغيوم .

الفيلم مدهش بمضمونه وبطريقة اخراجه وباداء الممثلين فيه . انه فيلم رجال موجه الى الرجال، فيه احترام للانسان وكرامته وفيه احترام لعالم يكون الانسان فيه سيداً لاعبداً..



لقاء غير متوقع — جيد .. ولكن خارج المهرجان

وفيه تأمل حزين عن حيـــاة اوروبا في العشرينيات من خلال تأملات رجل سياسي كبير له الشأن في تاريخنا المعاصر .

اعقب هذا الفيلم فيلم اسطوري للاطفال (الاب صقيع) يروي بشكل بدائي خرافة معروفة لدى اطفال الاتحاد السوفياتي . ولا أجد ما اعلق به على هذا الفيلم الا إنه فيلم يجب ان يحصر بالاطفال . إنه من الصعب ان يرى فيه متفرج راشد مايرضي ظمأه الفكري او الفني .

وكان علينا ان ننتظر قبل ان نرى مفاجأة المهرجان الكبرى (جياد النـــار) رؤية فيلمين عاديين الاول (لقاء غير متوقع) وهو فيلم نظيف وجيد كان يمكن ان يجد لدينا صدى كبيراً لو عرض بشكل معتاد ولم يعرض ضمن اطار مهرجانات فني لافلام منتقاة .

يروي الفلم اربعة وعشرين ساعة من حياة سائق عمومي .. والفلم وسيلة حلوة لاطلاعنا على جو الحياة اليومي في مدينـــة كبرى كموسكو ومن خلال نماذج مختلفة ومنتقاة من الناس .

الفلم يجعلنا نشعر ان البشر واحد في كل اقطار العالم ينفعل لاشياء متشابهـــة ويحب بالطريقة نفسها وينفعل بالطريقة نفسها .الفلم قد اخرج على طريقة السينما الواقعية دون جهد ودون شاعرية . وان كان ممتعاً طلقاً يرى دون ملل .. انه دون شك إقل بكثير من افلام اخرجها السوفيات على هذه الطريقة كفيلم (اني اتجول في موسكو) و(اشتريت ابا) و (الطفل الذي يتبع الشمس) .. ولكنـــه مع ذلك يظل فيلما مقبولاً وممتعاً الى حد ما نظراً لنضارة ممثليه وحسن تصويره لاجواء موسكو الجديدة .

اما فيلم (الدبابة ٣٤) فهو فيـــلم حربي لاميزة له الا جمال تصويره . يعتمد على سيناريو مضحك لشدة المبالغة فيـــه .. وليست فيه اية محاولة حتى ولابدائية لرسم الشخصيات او التعمق في تصرفاتها .. وانه واحد من هذه الافلام التي تخرج بسهولة وترى بسهولة ثم تنسى بسهولة وانا لااعرف كيف وجد هذا الفيلم طريقا له في مهرجان فني .

كان علينا ان نحتمل هذين الفيلمين حتى نرى (جياد النار) .. وعند رؤية هذا الفلم يشعر المتفرج ان كل تحفظ له حول هـــذا المهرجان قد زال.. فهذا الفيلم لايبرر اسبوعاً للافلام السوفياتية فحسب بل يبرر مهرجاناً فنياً بكامله . إنه قصيدة نشوانة عن الحب والموت والتقاليد والجنس والطبيعة والزواج والألم والكرامة والقدر .

انه مسرحية لوركا من خلال غناء بدائي وثني تختلط فيه العبادة بحصى الجداول .

انه فيلم مغنى .. نفهمه بشرايينا واحشائنا قبل ان نفهمه بعقولنا وافكارنا .. انه السينما بمعناها الكامل والدقيق .. انه تجربة فذة



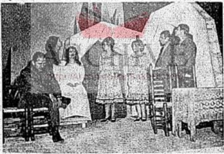
الدبابة ٣٤ — صور جيدة وحسب —

لاارى مثيلا لها في السينما السوفياتية الا في افلام ايزنستين الاولى ، انه قصيدة وحشية لاحد لجمالها ولا حد لتأثيرها ولا حد لانطلاقها .

كل شيء جديد في هذا الفيلم .. طريقة تكوينه .. استعمال الالوان .. طريقة تحريك ممثليه .. خلط الغناء فيه بالحوار والتعليق على الاحداث . انه ايقونة روسية عتيقة ما تزال تلتقي بطلاها على المساحات الثلجية التي لاتنتهي .. انه نداء يردده الصدى باستمرار .. ونهر من المرايا الصغيرة تعكس كل منها صورة خاصة فيها عالم وفيها عطر وفيها نشوة . لقد استطاع (بارادجانوف) مخرج الفيلم ان يجعل من فيلمه هذا يحق واحدا من اجمل عشرة افلام اخرجتها الستوديوهات العالمية خلال الخمس السنوات الاخيرة ، ربما رأى بعضهم في هـــذا الفيلم تأثرا بالسينما اليابانية الشعرية .. ربما رأى فيه بعضهم الآخر اختلاطاً للادب بالسينما . ولكن مها اختلفت الآراء فقد كان عرض هذا الفيلم في ختام المهرجان السنوي للافلام السوفياتية ضربة الخلاص التي حولت اتجـاه الميزان وجعلتنا نرى في هذا المهرجان ايضاً مهرجانا لاينسى .

عرس الدم

الشاعر الاسباني : فيديريكو غرسيه لوركا
إخراج : أسعد فضة
نقد وتحليل : ابن ذريل



لقد دلّل (المسرح القومي) ، بعرضه المسرحي الاخير الذي قدم فيه لجمهور الفن والادب في دمشق مسرحية عرس الدم للمؤلف الاسباني فيديريكو غرسيه لوركا ، على جدوى (الخطة) الرشيدة التي يتبعها، بتقديم المسرحيات العالمية الغربية، على اختلاف أنواعها ، وبالتالي إتاحة الفرصة للجمهور الفني والأدبي بذلك للاطلاع على ألوان من المسرح الغربي الحديث او القديم على السواء..

وقد كان طريفاً وشيقاً ، وقيماً حقاً ، ان يتيح (المسرح القومي) لجمهور للفن ، والادب عندنا ، فرصة مشاهدة المسرحية الشعرية ، الانسانية ، والانتقادية : — عرس

الدم — » للشاعر (لوركا) .. انها مسرحية من النوع الذي درج النقاد على تمييزه بأنه (انساني) ذو أســاس واقعي ، أي الذي يرتكز فيه (الموضوع) الى معطى من الواقع، مثل ذلك هنا حادثة القتل في ليلة عرس ، والتي يجعلها المؤلف محور سرده ، وأوصافه ، وتحليلاته ، وتأمله ، وانتقاده ..

وبالفعل ، ان (موضوع) المسرحية هو هذه الحادثة المروعة ، والمؤسفة من القتل ، والتي يشتبك فيها عريس مع حبيب عروسه في قتال ، بعد أن يخطفها حبيبها منـــه ليلة العرس ، فيقعان كلاهما مضرجين بدمائها ، وميتين ؛ بينما تنجو العروس العذراء، وتعود الى دار عريسها تبرر لحميا فعلتها ، وتكفر عنهـــا بالحزن والأسى والنحيب ..

ومن حيث أن (الحادثة) تحتمل التفنيد، والانتقاد، كما تحتمل الى جانب ذلك التحليل، والوصف ، فقد حاك المؤلف ، الشـــاعر (لوركا) ، حولها المشاهد المختلفة ؛ وجعلها تتسلسل في فصلين ، يضمان ستة مشاهد رئيسية؛ ومن أهمها ، من حيث (العمل) المسرحي :

مشهد (العريس) في داره ، مع أمه ، والذي يكشف عن جوانب من حياتهما العائلية التي يدميها القتل ، والأخذ بالثأر .

ثم مشهد (الغريم) في داره أيضاً ، وهو متزوج وله طفل .

ثم مشهد (العروس) في خطوبتها ، في دارها ايضاً ، وموافقة الأهل على زواجها ؛ ولكن الفتاة ما تزال تحب الغريم .

ثم مشهد (العرس) ، والاحتفال بـه ، والرقص ، واجتماع الحبيبين ، وهربهما ليـلة العرس .

ثم مشهد (ملاطفة) الغريم ، وهو مشهد موسع ، ويشمل الى ذلك مشهد الحطابين ، والساحرة في الغابة ، او ايضاً مشهد الحبيبين الهاربين فيها ..

الى أن يعثر العريس على غريمه قرب السفح، فيقتتلان، ويقتل كل منهما الآخر ؛ بينما تنجو العروس ، وترجع الى دار عروسها ..

والذي يلفت النظر ، من حيث (البناء) الأدبي، والأفكار، والتحليلات في المسرحية، أن المشـــهد الأول يحوي (حملة) انسانية على القتل ، ووسائله ، جرائره ؛ وأن المشهد الثاني فيه تمجيد الطفولة، والزواج ، والحياة ؛ في حين جمع المؤلف مشاهد في (الغابة) بين الحبيبين ، في مواقف بوحية ، جريئـــة ، ومؤلمة ؛ كما اصطنع فيها (الخيال) فاستنطق (القمر) ، وأجرى على لسانه تأملات في الوجود ، والمجتمع ، والموت ؛ كما جعـــل للحطابين ، والساحرة حديثاً في ذلك ..

ومن هنا تجيء (قيمة) هذا العرض المسرحي الذي قدمه (المسرح القومي) لجمهوره عندنا ؛ فأطلعه فيه على (لون) من ألوان (المعالجة) الفنية، والادبية ، المسرحية

الشعرية ، الحديثة في الغرب .. وهو هذا الشكل الانساني، الانتقادي ، ذو (المرتكز) الواقعي ، والمليء بالاوصاف ، والتحليلات ، والتفنيدات ..

أخرج المسرحية المخرج الفنان (أسعد فضة) ، فبرهن على تفهم للنص ، وأبعاده ، وعلى حسن اختيار الممثلين لتأدية مضمونه.. إذ جاء توزيعه للادوار موفقاً لا تتوه فيه ، ولا تكلف ..

(العروسان سليم صبري ومها صالح)، أم العريس (ثناء دبسي) مربية العروس ، (هالة شوكة) الغريم (اسعد فضة) ، زوجة الغريم (هيلدا زخم) أمها (لينا باتع) ... توزيع للادوار دقيق ، وصائب ؛ وقد اندمج الممثلون والممثلات بأدوارهم، وعاشوها بصدق ، وأدوها بحرارة ...

ومع ذلك ، فقد لوحظ ان (الموسيقى) و (الغناء)و (الاداء الشعري)والترنيمي في هذه المسرحية الاسبانية، كانت ترافق العمل المسرحي .. وكان (الجمهور) في الصالة يتابعها كلها بواسطة التسجيلات ؛ الامر الذي كان يشعر بفروق في الحركة والاداء بين فترات (التسجيل) او تحرك الممثلين والممثلات وأدائهم ، وبينها ...

وفي نظرنا ، كان يمكن ان يُقَدِّم الممثلون والممثلات بأنفسهم هذا (الغناء) ، وتلك (المقاطع) الشعرية ، كما أدوا (الرقص) مثلا .. خاصة وان الفنانات اللواتي يقمن بالأدوار التي انيطت بها مقاطع الغناء والاداء الشعري قادرات على ذلك ؛ ومن : هيلدا زخم ذات الحنجرة الصافية ، وهالة شوكة ، وهي مدربة على الغناء المسرحي ، ولينا باتع البارعة في الاداء المسرحي ، على اختلاف انواعه ...

(الاضاءة) متقنة ، ومعبرة ؛ في حين كان (الديكور) مختصراً ؛ اذ انه كان لايزيد على (منظر) تركيبي ، في هذه المشاهد المختلفة والمتنوعة من جدران وابواب وستائر ، صارت تصف تارة الى اليمين، وتارة الى الشمال ، الامر الذي كان يمكن توسيعه ، وعلى الخصوص تفصيله ...

(الملابس) ايضاً مختصرة ، وكان الاولى (التوسع) فيها ، اذ لا يجوز ان تكون ملابس البيت هي ملابس الخروج ، وملابس الفرح هي ملابس الحزن .

•



كتب مشرقية ومغربية

الانسحاب الاسرائيلي من سيناء

الكتاب الأول الذي أصدرته (مؤسسة الدراسات الفلسطينية) في بيروت كان باللغة الانكليزية وهو (الانسحاب الاسرائيلي من سيناء Israeli Withdrawal From Sinai للأخصائي في العلوم السياسية وليد أبي مرشد .

يقع الكتاب في ١٣٠ صفحة ويتألف من خمسة فصول . يفضح الفصل الأول التمهيد الصهيوني من ١٩٤٩ – ١٩٥٤ للعدوان على مصر ، بينما يلقي الفصل الثاني نظرة على أغراض العدوان ، ويتحدث الفصل الثالث عن وقف اطلاق النار ، ويصف الفصل الرابع انسحاب الصهيونيين من سيناء بين ٨ تشرين الثاني ١٩٥٦ و ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٧ ، ويسجل الفصل الخامس مراحل انسحاب الآليات . ويختتم الكتاب بخلاصة عن العدوان . يستند الكتاب الى عدد من الكتب والنشرات والصحف باللغات العربية والانكليزية والفرنسية ، والى عدد من وثائق الأمم المتحدة .

مهرجان اسبوع العلم السادس

جمع المجلس الاعلى للعلوم المحاضرات والدراسات التي ألقيت في أسبوع العلم السادس في خمسة كتب ، يقع الكتاب الأول في ١٠٨ صفحة ويضم المحاضرات العامة والمحاضرات التي ألقيت بمناسبة مرور ألف عام على ولادة العالم العربي الحسن بن الهيثم .

ومن المحاضرات العامة محاضرة باللغة الفرنسية للعالم الفرنسي (غاستون سوفاج دوسان مارك G. Sauvage De Saint Marc) . ويقع الكتاب الثاني في ٨٨ صفحة ويضم دراسات وبحوث العلوم الأساسية ، منها بحث باللغة الانكليزية للعالم الألماني (جواشيم لوفلر Joachim Loftler) . ويقع الكتاب الثالث في ٥٠٠ صفحة ويضم دراسات وبحوث العلوم الطبية ، ومنها ثلاثة بحوث باللغة الفرنسية للعالم الفرنسي (بول مليه Paul Molliez) . ويقع الكتاب الرابع في ٢٦٥ صفحة ويضم دراسات وبحوث العلوم الهندسية ، ومنها بحث باللغة الانكليزية للعالم العربي محمد عارف المايني وأربعة أبحاث باللغة الفرنسية للعالمين الفرنسيين (ريمون كمله Raymond Comlet) وغاستون سوفاج دوسان مارك . أما الكتاب الخامس فيضم دراسات وبحوث العلوم الزراعية والبيولوجية ويقع في ١٦٠ صفحة ، وفيه أربعة بحوث باللغة الانكليزية للعلماء العرب عبد الرحمن الصغير ونصري قعوار ومرتضى المالكي ونزار حمد .

المنتخب من شعر ابن زاكور

أصدرت دار المعارف بمصر في الحلقة ٣٩ من سلسلة (ذخائر العرب) – التي يشترك فيها الكتاب العرب مع الكتاب الأجانب في إحياء التراث العربي ونشره – كتاب (المنتخب من شعر ابن زاكور) في ١٤٠ صفحة .

كان الشاعر العربي ابو عبد الله محمد بن قاسم ابن محمد بن عبد الواحد بن أحمد ابن زاكور الفاسي (المتوفى سنة ١١٢٠) جمع شعره كله في ديوان سماه (الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتهى القريض)، ورتبه أولاً على حروف المعجم ، ثم صار يلحق به ماجد له من النظم على غير ترتيب ، واكثر أغراضه الشعرية في المديح ثم الربيعيات والزهريات والغزل وقليل من الرثاء والنصائح والإخوانيات، لكن المديح اكثره في الاولياء من رجال المغرب خاصة وله كذلك مدائح في النبي (ص) ومشايخه الكثار وفي السلطان ايضاً . ونظمه -كما ينبىء عنه اسم ديوانه على نوعين : موشح وخلافه من بحور الشعر المعروفة .

وقد عمد المحقق العربي عبد الله كنون الحسني الى الديوان فاستبعد منه الشعر الضعيف ورتبه حسب المواضيع ومهد له بمقدمة عن الادب المغربي مع ترجمة ابن زاكور ونثره وشعره وخطبة الديوان لابن زاكور، وألحق بكتاب (المنتخب من شعر ابن زاكور) فهرس بالقصائد حسب حروف المعجم .

العربية لغة خامسة لليونسكو

تكريم فرحات في البرازيل

• تلقى السيد وزير الثقافة رسالة من الشاعر المهجري الياس فرحات، أعرب فيها عن شكره لعواطف السيد الوزير التي تضمنتها برقيته الى الشاعر. وكان قد بعث بالبرقية التالية بمناسبة حفلة التكريم التي أقيمت للشاعر في المهجر: « ببالغ السرور تلقينا نبأ عزم الجالية العربية في المغترب على إقامة حفل تكريمكم. ان العروبة التي عرفتكم شاعراً مبدعاً، تجاوب مع قضايا أمته وغنى آلامها وآمالها وأفراحها، لتشارك جاليتنا تقديرها للشاعر العربي الكبير. باسمي وباسم وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، وباسم حكومة الثورة في القطر العربي السوري نحيي وفاءكم للعروبة ووفاء العروبة لكم، والسلام ».

تحية المعرفة

والمعرفة في (الحفل الخمسيني) الذي أقامته جاليات العرب في البرازيل تكريماً للشاعر الكبير الياس فرحات لتشارك مشاركة قلبية في تقدير مواطن عربي كان، في شعره وفي حياته، نموذجاً للانسان المهذب، والشاعر المبدع، والمواطن المتحسس بآلام قومه، فجاءت دواوينه تعبيراً عن كل ذلك في شعر اجمع الباحثون على أنه شعر الطبقة الاولى في اختيار صوره، وأسلوب صياغته، وسمو اغراضه، ولطيف معانيه.

ويسر (المعرفة) أن تسجل في صفحاتها القادمة، بعض المقالات والخطب التي كتبت وألقيت، لمناسبة مرور خمسين

سنة على اول نطق شعري أُلهم به شاعرنا.

وتحية صادقة ترسلها (المعرفة) الى الجالية العربية في البرازيل ، وهي الجالية التي يعتز تاريخنا الحديث ، بمفاخرها ومآثرها ، في خدمة الأهل والوطن ، والأمـــة ، والاخلاق ، والوفاء ، والمثل العليا .

• أقام الأستاذ محمد الزعبي وزير الثقافة حفلة شاي في احد نوادي دمشق تكريماً للفنانين المشتركين في معرض الخريف الثامن للفنون التشكيلية . قال السيد الوزير: « لابد وان يكون الفن هادفاً ، وهذا لايعني أننا ندعو لتقييده لأن الفن المقيـــد – بلا أدنى شك – سوف يخرج عن كونه فن أصلاً » .

• افتتح الأستاذ سليمان الخش وزير التربية – في نقابة المعلمين بدمشق – الحلقة الدراسية الخاصة بتوحيد اسس مناهج دور المعلمين في البلاد العربيـــة باشراف الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية .

• افتتح الدكتور يوسف شقرا الأمين العام لوزارة الثقافة معرض انتاج مراكز الفنون التشكيلية بمناسبة افتتـــاح الدورة الجديدة في ٢ كانون الثاني الحالي ، وذلك في المركز الثقافي العربي في اللاذقية . كما افتتح السيد الأمين العام، في مركز الفنون التشكيلية بدمشق ، معرض الحفر والرسوم لطلاب المركز .

• قرر المؤتمر الرابع عشر لليونسكو الذي عقد في باريس اعتبار العربية لغة رسمية لليونسكو ، شأنهـــا في ذلك شأن الانكليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية .

• دعت وزارة الثقافة بعض المفكرين لمقابلة الكاتبة الارلندية اثيل مانين في المركز الثقافي العربي بدمشق ، وقد دار بينها وبينهم حوار حول قضية فلسطين . وكانت الكاتبة المذكورة قـــد نشرت في العدد ٤٩ من (المعرفة) الخاص بالقضية العربية في صراعها مع الصهيونية العالمية مقالاً عن (التشتت الفلسطيني) ، كما عرض الاستاذ حسام الخطيب روايتها (الطريق الى بئر السبع) في العدد نفسه ، وحلل تفهم الكاتبة للمأساة العربية في فلسطين .

• بمنـــاسبة ذكرى اغتصاب لواء اسكندرون وتقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني ، نظمت وزارة الثقافة ندوات قومية . اشترك في ندوة المركز الثقافي العربي بدمشق الأساتذة زكي الأرسوزي وصبحي زخور وابراهيم الخوري . وافتتحت الوزارة في نفس المركز معرض (الصداقة السوفيتية – السورية) ومعرض الكتاب الفرنسي . والقى الدكتور خالد الصوفي محاضرة عن التأثيرات العربية في اسبانية ، عرض بعدها فلمان عن الآثار العربية في اسبانية ، وألقى الزميـــل الصحفي يونس حيدر محاضرة عن (الطريق العربي الى الاشتراكية) والناقد احسان هندي محاضرة عن (عوامل الابداع في الأدب

والفن) . عرضت ٦ أفلام بلغارية ناطقة بالعربية هي : (أحبك أيا الطريق) و(شمس لاتغيب) و (فن النهضة) و(مياه صوفيا) و (من اجل الجمال) و (عالم الفنان ستويان فنيف) .

● اختتم في ٣ كانون الاول الماضي في « وست هول » — الجامعة الاميركية — بيروت المعرض الثاني عشر للكتاب العربي الذي أقامه النادي الثقافي العربي وأشارت اليه (المعرفة) في العدد ٥٦ . وكان رئيس الحكومة اللبنانية قد افتتح هذا المعرض الذي ضم أجنحة ٧ دول عربية و ٩ دول أجنبية و ٢٠ دار نشر عربية . عرضت سورية ٣٤١ كتاباً من مطبوعات وزارات الثقافة والتربية والتخطيط ومجلسي العلوم والآداب ومجمع اللغة العربية وجامعتي دمشق وحلب وادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي . كان مدير المكتبات في وزارة الثقافة هشام حداد مندوب سورية في المعرض .

● افتتحت وزارة الثقافة موسم المسرح القومي بمسرحيــة (الخاطبة) للكاتب الأمريكي ثورنتون وايلدر اخراج سليم صبري . دام عرضها على مسرح أبي خليل القباني بدمشق ٤ سابيع . وتلتها مسرحية (عرس الدم) للشاعر الاسباني فيديريكو غارسيا لوركا اخراج أسعد فضـــة ، وقد دخلت أسبوعها الثالث اثناء كتابة هذا الخبر . ثم يقدم المسرح القومي مسرحية (العنب الحامض) للكاتب البرازيلي هيرم فيجويردو اخراج علي عقلة عرسان ، ومسرحيــة (ترويض الشرسة) للكاتب الانكليزي وليم شكسبير إخراج يوسف حرب . وسيعيد المسرح القومي تقديم مسرحيتي (شيخ المنافقين) و (دون جوان) . ويشترك مع فرقة أمية القومية للفنون الشعبية في مهرجان فني على مسرح بصرى الأثري .

● قدمت وزارة الثقافة فرقة بامبرجيه الألمانيــة في حفلة موسيقية في أحد فنادق دمشق .

● نظم المنتدى الاجتماعي بدمشق برنامج محاضرات عن الاقتصاد العربي ، ألقى الدكتور شفيق الاخرس محـاضرة عن (التكامل الاقتصادي العربي) والدكتور هشام متولي محاضرة عن (دور البترول في التنمية الاقتصادية) والاستاذ يحيى العرودكي محاضرة عن (السوق العربية المشتركة) . اشترك المحاضرون مع مجموعة من الاختصاصيين في ندوة نوقشت فيها هذه المحاضرات .

● في دار المعلمين العامة بدمشق ، ألقى مدرس اللغة العربية سليم بركات محاضرة عن ظواهر الالتزام في الأدب العربي .

● بمناسبـــة الذكرى ٥٢٥ للشاعر الأوزبيكي عليشير نوايي ، ألقى الدكتور عبد الصادق اريسوف مدير المركز الثقافي السوفييتي بدمشق محاضرة عن أدب الشاعر وحياته ، في قاعة المركز . والتقى في نفس القاعة مساء السبت ٢٤ كانون الاول الماضي وفد السواح السوفييت الذي يضم اطباء ومحامين واساتذة وعلماء ومستشرقين بنخبة من الاطباء والمحامين والادباء السوريين .

• احيا الشاعر محمد الحريري امسية في نادي رواد الفكر .

• القى الدكتور رفيق الصبان محاضرة عن (مسرحيات أحبها) ، في الحلقة الاجتماعية لخريجي المعاهد العالية بدمشق . كما اقيم في الحلقة معرض (رسم ، تموع ، تزيينات) للفنانة الامريكية السيدة شيس والفنانتين العربيتين السيدتين مورملي وتاجر .

• تلقت مكتبة مجلة (المعرفة) من مؤسسة الدراسات الفلسطينية في لبنان ، ه كتب اصدرتها المؤسسة هي :

١ — Israeli Withdrawal From Sinai لوليد ابي مرشد .

٢ — United Nations Resolutions On Palestine 1947 -1965 لسامي هداوي

٣ — Palestine Before The United Nations لسامي هداوي .

٤ — الوثائق الفلسطينية لعام ١٩٦٥ للدكتور منذر فائق عنبتاوي .

٥ — الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٤ لبرهان دجاني .

ولايسع (المعرفة) الا ان تنوه بفضل هذه المؤسسة في نشر الدراسات العلمية الناجحة عن القضية الفلسطينية .

• تلقت (المعرفة) العدد الرابع من مجلة (اللسان العربي) التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الرباط ، التابع لجامعة الدول العربية . والمجلة الصادرة عن المكتب ، غـدت سجلاً حافلاً بالجهود العلمي في حقل التعريب ، وهو مجهود يشكر عليه القائمون على المكتب ، والمجلة .

• تنشر المعرفة في العدد القادم لمحة عن معرض الكتاب الدولي الثامن عشر ، ولمحة عن (كليمنت اوخريدسكي) الذي احتفلت بلغاريا في كانون الاول الماضي بعيد الجامعة التي تحمل اسمه .

• أقام المركز الثقافي الاسباني بدمشق حفلة استقبال بمناسبة عيد الميلاد .

جولة الشهر

كلمات وتحيات

للدكتور يوسف شقرا

وقفة على الرصيف ..!!

لفؤاد الشايب

- ١ -

ليس عجباً ان نعطي لعلاقات الانسان بالانسان شيئاً من الرعاية والتقدير، وليس بدعاً ان نحترم الصلات الانسانية، أية كانت التسمية التي تطلق على هذا النوع من العلاقات والصلات وتحت اي لون من الوان الأدب اندرجت.

ففي حياة كل منا أوقات نحس فيها انه بحاجة الى الركون الى نفسه، والى استرجاع ماضيه اوبعض من هذا الماضي، والى الحديث عن صلة ما، ربطته زمناً ما بصديق او رفيق.

وعندما نكوّن ثروة من الصداقات ونحتفظ بطائفة من الذكريات تضم الى تاريخنا القومي، تاريخاً فردياً، تاريخاً نفسياً فيه الحب وفيه المروءة وفيه الوفاء نكون أغنياء حقاً.

وفي حياتي انا أيضاً صداقات هي ثروتي، كل ثروتي أباهي بها وأعتز ولو أضحى الوفاء، لدى بعض الناس، من شيم الماضي المندثر وتقاليده!!! ومن صور الوفاء الحق ان أتحدث عن اوفى الأوفياء للعروبة، عن الشاعر القروي، ومن صور الوفاء ايضاً ان انحدث عن فؤاد

الشاب مرتقباً يوم يكتب فيه عنه رئيس تحرير جديد ! « المعرفة » مثلما كتب هو عن القروي !!!

* * *

عندما شرعت في قراءة عدد « المعرفة » الأخير ، مبتدئاً ، كعادتي ، من النهاية .. طالعتني صورة شاعرنا القروي ، عملاقاً ، جسداً ومعنى ، كلمة وسلوكاً .

والى جانب القامة المشوقة تداعت ذكريات أضحت ، على قربها منا والتصاقها بنا ، في غياهب ماض ولى ..

كنا جميعاً في نشوة لا أروع ولا أحلى ، كنا في عرسنا القومي الكبير ، عرس الوحدة عندما اطل علينا من وراء البحار شاعرنا القومي الاول ، وكان لقاؤنا به ، ولقائي به انا بخاصة لا يقل عن لقائي بأغلى أمل ، اولا يمثل الاشخاص احياناً املاً ، اغلى امل ؟!!

كم حلم جيلنا بلقاء معلم مجهول ، نسجت حوله حكايا الكفاح اساطير من الجرأة والبطولة خلدتها ابيات كانت اقوى من القنابل تأثيراً .

كانت صورته في ذهن كل منا نشكلها على الوجه الذي ترسمه مخيلاتنا وتوحي به قصائده التي كانت على كل شفة .

اما انا فلم تتغير صورته في ذهني ، بقيت ثابتة ، ماتصورته الا فارساً ، ولقد رأيت الفروسية فيه ، رأيتها في تصرفاته منذ ان تلاقت يداي بيديه وواجهت عيناي عينيه .

ومع الايام زادت هذه الصورة وضوحاً ورسوخاً فكل مناسبة تؤكدها وكل حدث يبرزها .

وفي احد لقاءاتنا عاتبت شاعرنا على فكرته التي تقول انه عاد من مغتربه « ليموت في وطنه » . قلت له انك انتقيت المناسبة الافضل للعودة .. لا لتموت بل لتحيا ، راتعاً بالحرية ، مزهواً بالوحدة ، ومتى تحب الحياة ان لم تحب الان ؟!

بنت العروبة هيئي كفني
انا عائد لأعيش في وطني

هكذا كان ردي العفوي المباشر على القروي ونحن معاً في عين الخضراء ذات يوم من عام ١٩٥٨ .

واجتمعنا بشاعري وبصديقي مرات، وتناقشنا مرات في اوقـــات حالكة واوقات مشرقة و كنت على الدوام، كما انت الآن ، كما انت منذ ان وجـدت مكافحاً عنيداً ،مؤمناً صلباً، ماخطاخطوة في الحياة تعارض عقيدته، ما كتب كلمة تناقض مبادئه .

وفي دمشق وبيروت والبرباره كم حدثتنا عن مثلك التي لم تهادن بها ولم تساوم عليها ، كم شكوت سوء فهم من احببت وكم شكوت حرب من كرهت . . قاومتهم في المنطق فقاوموك في نور لم يوصلوه اليك وفي ماء قطعوه عنك،وانت، شاؤوا ام أبوا ، لنا ولهم ، نور وماء .

وفي لقاء اخير جمعنـا ، شعرت ان حنينك لدمشق العرب،ملك عليك نفسك بعد ان غادرتها كافراً وانك اخـــذت تستعيد ثقتك بها وتهيء العزم على لقائها بعد هجران دام سنين ، واخذنا ، نحن اصدقاءك ، نستعجل يوم اللقاء ، يوم يكرم فيه الوفاء ، وفاؤك .

كان حسابنا شيئاً وحسابك شيئاً آخر ؛ وتأتي المفاجأة ، مفاجأة ارتحالك من جديد الى المغترب ، صاعقة ، مؤلمة، مضنية .

ترى اية فكرة حملتك بعيـداً عنا ، وانت امتن من عرفت صبراً وصموداً ؟!

اي وسواس زين لك رحيلاً بعـــد إياب ، وقلقاً بعد استقرار ؟

صحيح انك شاعر ولكنك مناضل قبل كل شيء، ومناضل عنيد . . وتطالعني اليـوم كلمات فؤاد الشايب عنك ، عن دعوته لك للعودة فأنت تختلف عن من عرفنا من رجال . . انت ، كما يقول عنك حقـاً ، مستقبل قضيتنا ، برغم الثمانين ، لا ماضيها ؛ انت البطل والقضية ، انت المعلم والمدرسة . .

فعد الينا ، عد الى دمشق ، عد الى العروبة .

* * *

- ٢ -

ولفؤاد الشاب من حديثي معك نصيب ومشاركة، فلطالما ضمتنا معاً امسيات وجمعتنا ندوات... وقبل هذا وبعد هذا كان هنالك بينكما ود قديم — قبل ان تتعارفا — كان بينكما نذر مشترك، ان تحيا العروبة، ان تخلصا لها، ان تخدماها، قلماً ولساناً، فكرة وتصرفاً.. ولقد والله وفيتما النذر حق الوفاء.

ويسوقني الحديث وأنا اكتب هذه الكلمات فاستعرض أنا ايضاً العمل المشترك الذي جمعني الى فؤاد والسنين العذاب التي امضيناها حول مهام حاولنا ان نؤديها بشوق ورغبة، بحب واخلاص... كان يحدونا ايمان وثقة، وكنت أشعر على الدوام انه لايكفي ان نعمل ويعمل من حولنا بل لابد من محبة تضفي على العمل جلالاً، ولابد من ثقة تغلف هذا العمل بالرضى والطمأنينة.

ولقد كانت حياتنا محبة كلها وثقة كلها... ولهذا فانا أشفق على فؤاد مثلما اشفق هو على القروي... أشفق عليه من هذه الهجرة الجديدة ولو اختلفت سبباً وغاية وأشفق على نفسي وعلى الاسرة التي عملنا فيها اعواماً طوالاً.. هي جزء من عمرنا.. ماذا أقول.. بل هي العمر كله..

أخي فؤاد:

هذه الصفحات التي استعيرها وأنت تعد نفسك للرحيل كم وجلت وانا أتصدى للكتابة فيها، انها صفحاتك انت.. اقترنت باسمك، بموضوعاتك الجدية، ببحوثك الممتعة. كانت وقفاً عليك، وكنا نصر ان تكون كذلك لأنها كانت تعلّم، كانت تزرع الخصب، تزرع النماء، ولكن هذه الصفحات حرية ايضاً ان تقدم لك عرفاناً بعض الكلمات الصادقة المخلصة تذكرنا بك وتذكرك بنا، تذكرك باسرة أحبتك وأحببتها، وفت لك ووفيت لها.. تذكرك بالأيام الأولى التي خططنا فيها معاً لاصدار مجلة تستهدف اغناء الفكر العربي بموضوعات

الحياة وموضوعات الفكر .. ولقد والله حققت مجلتنا شيئاً غير يسير من هذا الهدف .

انت تعد نفسك للرحيل ونحن نذكر لك الجهد الذي بذلت والعناء الذي تحملت ، على سرعة انفعالك احياناً ، في سبيل استمرار صدور المجلة على مستواها الذي خطط لها رغم الحملات التي تعرضت لها ، والمتاعب التي جابهتها .

لا بد ان يثير العمل ، اي عمل ، متاعب وان يثير تقولات ولا سيما في مجتمع مثل مجتمعنا يحتاج الى زمن طويل حتى يتخلص بعض افراده من مرض رهيب هو التهديم الدائم والتشكيك الدائم ، هو خبزهم اليومي ولا خبز لهم غيره ولكن كثيرين من افراده يعملون بصمت ويعتبرون انفسهم امواتاً ان لم يعملوا ، ولقد كنت عاملاً حقاً ، منتجاً حقاً .

في السنين التي جمعتنا ساعات طويلة انفقناها بحثاً عن تجديد افضل ، وتنويع احسن في جو نثور فيه وتثور ، وباطالما تثور ، ولكن الغاية المثلى التي ننشد سرعان ما تجمعنا على رأي !

وفي جلساتنا المقبلة سيظل مكانك فارغاً ، نفتقد فيه مزاياك ، ونفتقد فيه نزواتك المحببة احياناً .

لقد قضينا شطراً كبيراً من عمرنا معاً ، اجمل العمر ، شباب العمر ، وهو شطر خصب مليء نحس الآن وانت تنسحب منه بأن شيئاً من كياننا بدأ ينقص ، شيئاً ما كنا نشعر به وهو يملأ وجودنا ... أما الآن فقد فتحت اعيننا عليه بشدة ، والتفت كل منا الى ماضيه يسأله عما قدم ومافاته ان يقدم ، وتطلع الى مستقبله يبحث عما يمكن ان يصنع وما يمكن ان يترك من اثر .

غداً عندما تذهب بعيداً عنا وتطويك مسافات ومسافات سنبحث عنك في صفحات « المعرفة » مثلما بحثت انت فيها عن « الشاعر القروي » وسنحثك على العودة ، مثلما حثثته عليها ..

وفي المغترب ارجو ان تحقق امنية

راودتك وراودتنا زمناً ، ان تضم القروي ،شاعراً ومناضلاً في دفتي كتاب يكون مدرسة تعلّم وتلهم... (*)

ومن يدري ! فقد تعودان معاً ، تعود ومعك الشاعر القروي ، كتاباً وانساناً ، تاريخاً وحياة !

اخي فؤاد !!

لن اقول لك وداعاً .. فالى لقاء قريب .

(*) كان الشايب قبل ان يعودالقروي الى البرازيل ، يخطط لمشروع كتاب عن الشاعر في ديوانه وحياته ، وكان يحاول اغتنام فرصة للاقامة شهراً مع الشاعر في البربارة ، للوصول الى مجموعة من الوثائق والاوراق الخاصة وسوى ذلك مما يستعين به في التأليف .

وقفة على الرصيف ..!!

لفؤاد الشايب

لاأدري ، كيف استهل الوداع،
وانا أعلم ان اجمل الوداع سهومه ووجومه.
لاأدري ماذا يمكن ان اقول في كلمة
اوجهها الى الأصدقاء والقراء ، في جولة
الشهر ، هذه ، والمجلة في شهرها التاسع
والخمسين، وفي الستين ختام عامها الخامس.

مطالع عدة قدمت نفسها لاستهل بها
مودعاً . وخشيت على نفسي من ضعف
الانسان في مواقف الوداع ، فقلت ألف
عباءتي على شبحي واتسلل بين الخيام
هكذا .. بلا صوت ولا نأمة، الا مايكاد
يشبه وقع الخفاف على الرمال ، او
— بتعبير اكثر واقعية ومعاصرة — مايشبه
حفيف ورقة تنقلب في دفتر الدوام صباح
كل يوم .. بين الثامنة والثامنة والربع ..
ثم صفحة جديدة ويوم جديد !

وعندئذ ليس الا ان يكتب محرر في
المعرفة مايلي ، بكل ايجاز : اثر اتصالات
جرت بين وزارة الخارجية والامانة العامة
لجامعة الدول العربية ، تقرر ان يقوم
على ادارة مكتب الجامعة في الأرجنتين
عربي من سورية . وقبلت الأمانة العامة

المبدأ ، ثم ترشيح وزارة الخارجية ، فلاناً مديراً للمكتب . وصدر في مجلس الوزراء مرسوم يقضي باعارة المرشح للأمانة العامة ، للقيام بالمهمة المذكورة . وأسرة تحرير المعرفة اذ تأسف لكذا .. ترجو للاستاذ كذا .. وكذا ..

قلت بينا كنت اتجنب مواقف الوداع ، وقد عزمت على الرحيل ، بعد تردد دام شهوراً ، تلقيت من الأخ الكريم الدكتور يوسف شقرا امين الوزارة العام ، ورقات قليلة ضمنها كما رأيتم وسمعتم ، بالطيب الطيب من وده ، وعاطفته ، وكرم خلقه . وأردف بهاتف يقول لي : ارسلت لك كلمة للنشر في مجلة (المعرفة) ، تصرف بها كرئيس تحرير . ان شئت فانشرها ، او شئت فاطوها ...

ولمجرد العلم اقول ان الدكتور شقرا المعروف بحسن ادارته ، وذكي لباقته ، هو رئيس لجنة الادارة والتحرير في الوزارة وهو احد اثنين وضعا فكرة المجلة وخططا لها ، وتربصا ليوم تحقيقها . وكان ذلك قبل عام من صدورها.

وما كدت أقرأ كلمات الأخ الأمين حتى رأيتني ، في الموقف الذي لا أطيق ان أرى نفسي فيه ، ولا أن يراني أحد : مطلاً من نافذة (القطار) كأنني اغرق ... مناديل المودعين وكآباتهم ، الصفير المفجع ، ينبعث مع عمود بخاري قاتم لايلبث ان ينتشر فوق الرصيف ظلاً وطواطياً ... جرس المحطة يقرع للمرة الثالثة والاخيرة ... عيون تفتش عن عيون ... بينا يبدأ القطار بالانسلاخ عن الرصيف انسلاخاً حاداً ... ثم المناديل ... والمناديل ... والغرق !!

تلكم هي الصورة المنقولة إلي من طفولتي عن الوداع ، وهنا تماماً وضعتني رسالة الصديق ، على الرصيف. تحت جناح الرحيل فعاودني شيء من جهتي الرومانطيقية ومرت على جبيني كآبة (الام فرتر) ... وأنا اقرا : (وغداعندما تذهب بعيداً) وضعتني رسالة الصديق في مناخ الغربة

حقاً .بعيداً عن دمشق، بعيداً عن (المعرفة) والمطبعة، وانفاس الورق والحبر .بعيدا ايضا عن قريتي الناسكة بين الجبال، حيث لي حديقة ازرع فيها القرنفل، وتسرقه الصبايا، وابتهج بزهر المشمش فتحرقه موجة الصقيع، فلا البث ان ازداد ولعاً بزراعة الورود، ولا ايأس من رحمة الربيع بالزهور.

ثم ألا يكفيني بعداً، انني بعيد عن دمشق ؟!

* * *

اذن نحن على الرصيف معاً، قبيل الاطلالة الاخيرة من نافذة الزمن الذي يمر . ولابد للراحل من ان يقف وجهاً لوجه مع الرحيل .. مع شبحه الهارب، فلا يدري، وهو يعاقر نشوة الانطلاق، واوجاع التمزق معاً، اهو حزين لما يفقد أم سعيد بما يسعى اليه، ويرجو فيـــه، ويهب الى لقائه !

.. ولولا ان الانسان قادر عبر رحلته الطويلة فوق هذا الكوكب على صنع الصداقة وعقد المحبة، واشاعة الألفة، واحياء الوفاء، لما عرف العيش إلا هروباً وهلعاً يضربه جدار بجدار، ويقذفه صوت الى صدى .. فلا يقف على باب يفتح له، ولا يطمئن الى كلمة انس تلقى اليه. ويكون غريباً حقاً .

لولا هذه الصداقات والذكريات التي يحدثنا عنها «يوسف شقرا» تضم الى تاريخنا القومي، تاريخاً فردياً نفسياً، فيه الحب وفيه المروءة وفيه الوفاء ؟!.

لولا هـــذه العواطف والأشواق والاحزان، التي تربط التاريخ الحافل الى معناه العاقل، في ضمير الانسان، فيأبى الا ان يكون لحياته معنى، ولتاريخه هدف، ولفكرته قيمة.

لولا هذه القيم التي طالما انشأ فيهـــا الأدب وابدع لها الفن، ومنحتها الكلمة لقاح الخصب، والقت عليها برود الجمال الواناً وافوافاً .. لكان اولى بوجه القمر المنقور المجدور ان يكون اجمل من وجه هذه الكرة الفقاعة، التي ندب فوقها، وبترابه الميت، أخصب من ترابها.

بل ما أعظم هـذه القيم ، التي قد تساورنا حولها الشكوك في ساعات ضلال ومحنة – عندما تتجلى لنا في حقيقة بشرية ملموسة ، كالشاعر القروي ، لتثبت ايماننا بوجودها ، تعيش معنا ، وتتحرك بيننا ، تأخذ وتعطي ، وتفرض واقعها على من جحدوا ، سواء اصعّروا لها ام نكسوا هاماتهم صاغرين .

والقروي الذي تبحث ذكرياتك معه في دمشق تلك الأيام – يا ابا مناف – ليس من الذين يكبرون او يصغرون بحبنا او ببغضنا . الشاعر الفارس قد تجاوز منذ زمن بعيد ساحات خصوماتنا في شعره ونضاله ، وعلا فوق حكمنا له او عليه . وهو في حياته وشعره ، كالسيف في حديه، يستطيع مولع بالمثالب والمغالط ان يجد في شعره ثلمة او ثلمات ، واية شاعرية خلت من قليلها او كثيرها – ولكنه غير واجد في سلوكه القومي وحياته كمناضل عربي ثلمة واحدة ، تعيب فرنده ، او تعطب مضاءه . انما نبيع احترامنا له واعجابنا به ، من انه السيف الذي لا تصنع مثله الأيام كل عشرة اعوام او عشرين او خمسين . فاذا صنعت واحدا من معدنه وروحه كل مئة عام ، كان ذلك بعض ما يرشد الى عبقرية الأمة التي تعرف متى تصنع سيوفها ، وكيف . . واين !

مع المعرفة

خمسة اعوام مع المعرفة ، من خمسة وعشرين عاماً مع الوظيفة . يا للسماء ما اقبح العمر عندما لا يميزه شيء الا طوله . عشرون عاماً من الحراثة في حقل الدولة ، مرة بأجر ، ومرة بـلا أجر . وطوراً بشكر ومئة طور بلا شكر . حراثة بخلاة ، وحراثة بلجام . طعم الغبار ، وطعم الدم . . . وفي اسخى ايام الغيث والغوث ، طعم الماء المالح . يحسن البنا ويغمرنا بعطفه من يقول لنا : الله يعطيكم العافية . ومرات يطأ الحاكم العابر ثم الحراثة ، ثم ينكر فعل جزمته في الارض ويلعن الحارث والمحراث . ويمضي كحصان هولاكو .

عشرون عاماً ، خطر لي ذات يوم ان اكتب يومياتها او شهرياتها وما كدت اضع الرسوم الاولى منها حتى أشفقت على نفسي من ظهورها ، أشفاقي على القراء من ان يحسبوها على تاريخ معاصر لهم .

واذا كان في الوظيفة ايام جميلة ، فقد كانت أيام (المعرفة) أجمل الايام حقا . وحسب (المعرفة) احياناً الى من كانوا في خدمتها ، أنها في حرم الفكر حولت العلاقة بين الموظفين الى علاقة بين اخوة واصدقاء . واحياناً ، كان وزراء يجالسوننا في الحرم كزملاء ، وقد وضعوا ايديهم على ركبهم وانصتوا . ويتركون بين ايدينا اوراقهم كأنهم لدينا محررون . فتطيب نفوسنا لمظاهر احترام الفكر — ولطالما كانت مظاهر مفتقدة — وان تكن قد غدت في كثير من الظروف اعمق من مظاهر ، واجمل من مجاملات .

وبهذا كنا نشعر مع (المعرفة) ، اننا قد جعلنا من الوظيفة رسالة ، ومن الثقافة منصباً أعلى . وان لم تمض خمسة اعوام المعرفة بدون مفارقات ومشاكسات ومتاعب شتى ، فقد كانت اعواماً ملؤها الدأب ، والحماس ، والمحاولة الجادة لبلوغ الأفضل . وكانت فيما بيننا كما قال الدكتور شقرا محبة كلها .. وثقة كلها . وكان رئيس التحرير يحمل من التبعات ، ما يوازي الثقة به ، والتعويل عليه .

لست انوي ان اقدم تقريراً للدولة او للقراء عن مسيرة المعرفة خلال خمسة اعوام . ولست ازعم ان (المعرفة) في شكلها ومحتواها ومستواها هي الزي النهائي لمجلة ثقافية عربية . انني لا اؤمن بالنهائي ، في كل ما قد اتى وما سيأتي ، لأنني اؤمن بواقع التطور ، والتقدم ، والحرية . فاذا قال قائل ان جمع ابواب اربعة بين دفتي مجلة واحدة ، لن يبلغ بأحد الابواب مستواه المنشود ، ان كماً او كيفاً ، فالقائل ليس مخطئاً . اذن وجب على وزارة الثقافة ان تصدر بديلاً عن (المعرفة) ثلاث مجلات يشعر الوسط الثقافي حقاً ، بفارغ الحاجة اليها : مجلة للآداب

والفنون . وثانية للعلوم الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ، وهي علوم المجتمع الراقي ، او الذي بيت العزم على ان يكون راقياً ، نظرياً وعملياً ، في النصف الثاني من القرن العشرين . وثالثة للبحوث القومية والتاريخية . وهي نوع من العمل النشري تمارسه الدول التي تحرص على توجيه اجيالها توجيهاً قومياً انسانياً ، معززاً بالمعرفة ، والعقل ، والحكم السليم .

فاذا لم يكن في سعة وزارة الثقافة ان تنهض لهذه الاعمال النشرية بالذات . فلا اقل من ان تحاول المحاولة مع الافراد القادرين ، او الهيئات الاهلية المؤهلة لممارسة النشر ، بحيث تمنح الدولة هذه الهيئات معونات سنوية ، تسد بعض العجز ، او تتدارك حدوثه ، فتتولى وفق توجيه الدولة اصدار مجلات ثقافية اختصاصية — والهيئات كالجمعيات الثقافية والنقابات المهنية ، والاتحادات . الخ الخ —

ان لي في الموضوع تقريراً ضافياً ، يقوم على مبدأ ان نشر الثقافة ، وعلى الأخص معاصرتها ، في احدث مستحدثاتها العامية والعملية ، ليس انحصاراً للدولة ، — اية دولة — . لاسيما اذا كانت استجابة المجتمع للدعوة ، استجابة اقبال ، وحماس . وشروط هذه الاستجابة متوافرة في مجتمعنا ، كما ارجح ، او انهـا تغدو متوافرة يوماً بعد يوم .

وبارتقاب ان تفعل الدولة ، مايحلو لها ، تصدى موظفون في وزارة الثقافة ، منذ ستة اعوام لدراسة مشروع مجلة ثقافية ذات مستوى رفيع تصدر في دمشق . وقبل ان يصل الدارسون الى نموذج شبه نهائي لمجلة شكلها كذا ، ومحتواها كذا .. استعرضوا نماذج شتى لمجلات اوروبية ثقافية ، جامعة او ذات اختصاص ثقافي . واستشاروا امراجع وخبرات . ونظروا ملياً في تاريخ الحركة النشرية الصحافية في سورية والأقطار العربية ، خلال نصف قرن ، ووضعوا ايديهم على شواهد فشل المجهودات الفردية ، واحدة تلو الأخرى ، في حقول

الآداب والفنون ، والثقافة العامة ، برغم انه قد تصدى للمحاولات اقدر الأفراد ، واوفرهم عدة ، واكثرهم شعبية لدى جمهور القراء . ولم يكن سراً ان جمهور الثقافة الصغير في مجتمع هذه اوصافه الاجتماعية ، ليس يستطيع ان يقوم بأود عمل نشري جدي . وكان لزاماً على الدولة — اي القطاع العام بتعبير العصر — ان يتولى هذا الفراغ ، وينهض للعبء ، منفرداً ، او متعاوناً مع جهات معينة من (القطاع الخاص) ، كما سبق ان اقترحت .

ثم آل الأمر لدى دارسي المشروع ، الى اقرار الرأي الناصح باصدار مجلة ثقافية جامعة — علوم وآداب وفنون — باسم (المعرفة) تنشط حركة البحث الجدي — بصفة خاصة — ترجمة ووضعاً ، وتصل الفكر العربي ، بتيارات الفكر العالمي . وان كان مشقة حقا ، تنفيذ مبدأ المجلة الجامعة ، كان لابد من خوض التجربة ، في ظروف يقدر جميع المثقفين معنا ، كيف كانت اجواؤها الثقافية ـ السياسية ، تضاعف المتاعب ، وتعترض بلوغ التجربة اهدافها الكاملة . — ولي في الاجواء الثقافية — السياسية ، دراسة سأقترح على تحرير (المعرفة) نشرها ، ذات يوم —

وبعد ... فقد كان من حظ الممسكين بقلوبهم وراء التجربة ، ان وصلت من الاقارب والاباعد ، اصداء نجاحها ، او قبولها على الاقل قبولا متفائلا ، في المحيط العربي ، قبل المحيط المحلي . ونقل سفراء الدولة في بعض المناسبات ، بعض هذه الأصداء الطيبة . واذا جاز لي ان اسجل هنا بعض معلومات دعائية .. قلت ان قد صدرت خلال الاعوام الخمسة هذه ، خمس مجلات ثقافية عربية جامعة ، على طراز (المعرفة) ، شكلاً ومضموناً ، اعترف القائمون عليها ، تلميحاً او تصريحاً ، ان (المعرفة) السورية كانت نموذجهم ، عندما اقدموا على تنفيذ مشروعاتهم . ولقد صدرت هذه المجلات في الجزائر والمغرب ، وتونس ، ثم في العراق ،

واخيرا في الاردن ، وكانت كلها ترديدا لشعور عام بالحاجة الى مثل هذا النموذج المفتقد من المجلات الثقافية العربية . اقول المفتقد ازاء الموجات المتعاقبة من ازياء المجلات — وفي الذهن انه نموذج ، لايقدم عليه النشر التجاري ، لأنه غير مجزحقاً وبتهيبه الافراد ، بله الهيئات غير المؤهلة لهذا النوع من الانتاج ، فيبقى على الدولة وحدها ان تتصدى لتبعاتها .

وان تكن بعض الزميلات المعاصرات ، التي صدرت في خط (المعرفة) قد تفوقت علينا بالانفاق ، والاخراج السخي ، تبقى (المعرفة) بين زميلاتها الجديدة — كما اقدر — متفردة بطابعها العربي ، سواء في توزيعها — ولو كان محدوداً — او في اشتراك اقلام عربية في تحريرها . وليس اشراك القلم العربي في تحرير (المعرفة) عيباً منا وقصوراً ، واقلامنا ناشطة في محيطها الصغير ، وفي الخروج الى المحيط العربي الاكبر ، بل تحقيقاً لأمنية قومية ، هي في هذا القطر ، ام الامنيات بلا منازع : ان ينهض للهدف المشترك بجهود مشترك ، وان تصب الروافد في نهرها ، لا ان تتوزع منه ، ليصب كل في مجراه ، ومرساه . فاذا كان تلاقي القوى العربية ، سياسياً وعسكريا ، واقتصاديا ، ضرورة قومية ، فمن اولى الضرورات ان يكون اللقاء الثقافي وراء كل اللقاءات هذه ، ضمانة وحيدة لبقائها واستمرارها وغدوها حركة عضوية ذات ناموس سرمدي .

فاذا اعترض معترض ايضاً ، بأن مجتمعنا ليس بحاجة الى (الثقافة الرفيعة) واولى به (ثقافة الشعب) قلت بلى . ولكن كيف . إأنا افهم ان ثقافة الشعب تبدأ بمحو الأمية بدءاً من البداية فاذا كان المعترض يقصد الى هذا ، فقد قصدحقا . ان مجلة (المعرفة) ليست وحدها مايمكن اقتصاده في سبيل ثقافة الشعب ، بل ادارات قبلها — من ذوات الأرقام — ووزارات ، وكليات . . . ومؤسسات

وانظمة برمتها . اذ ليس قبل اولوية محو الأمية في المجتمع العربي ، اولوية . وليس يصلح قبل التخطيط لمحو الأمية، اي تخطيط اجتماعي واقتصادي وثقافي ، لايعتبر نفقة التعليم العـــام نفقة انتاجية ... لانفقة استهلاكية .

من آخر خواطر الرصيف

وبعد ... فلم يكن امراً سهلاً ان اقتلع نفسي من دمشق ، ومن (المعرفة) . ولقد طال ترددي في قبول ما رشحت له من عمل اعلامي قومي، حتى جاءني صوت مسؤول كبير يقول لي ان ما رشحت له ليس مغنماً ، بل تضحية . ان كلمة صغيرة حلوة ، ليس من شأنها ان تقتلع انساناً ، بل جبلاً . وكان علي ان اشعر بانني ذاهب لأداء واجب قومي ، لالممارسة عمل وظيفي ، وكان علي ان اتحقق من ان الاجهزة التي ساتعامل معها ، تتجاوب مع الحماس ، وتصدق مـع الصادقين . وبذلك كله ، اجد مبرراً لنفسي في انتقالها من (ثقافة الموقد) الى (ثقافة الميدان) .

وكم مرة منذ نصف قرن ، وابنـاء الاجيـــال المتعاقبة ، من ادباء، يحلمون بثقافة الموقد ، بعزلة وارفة يتعبدون فيها للأدب ويقصرون عليه البابهم واوقاتهم فكانت العواصف تبدد احلامهم، وتقتلع السقوف من فوق رؤوسهم ! وترميهم الى ميدان المعركة ... اما ان يضربوا باقلامهم او ان ينتحروا بها .

كم مرة نحرنا قياثيرنا ، لنغني ، فبعنا قياثيرنا لنعيش، واحرقنا قياثيرنا لنصطلي! قتلت الوظيفة ، والسياسة ، خلال اربعين عاماً مضت ، خلقاً كبيراً من الأدباء، واصحاب المواهب . الوظيفة سحقت عظامهم، واعتصرت ورود شبابهم وقد تكون قد اعطتهم.. ولكنها حشرتهم في صفوف المتسولين، وبذهنيات اصحاب الاكف الممدودة ، والاجفان المسبلة . اما السياسة فقد صلبتهم في الشوارع، واحرقتهم واخشاب منابرهم على مرأى ومسمع. وخرج منهم من خرج الى السلامة ، مرة وزيراً او مديراً ، ومرة نائباً ، او صانعاً ، او

تاجراً واجيرى ، استاذاً ، او صحافياً ، او ماشئتم من مهن حرة او غير حرة ، دائمة او متقلبة ، لاجل مسمى او لآجال غير مسماة !

ولكن من الادب نفسه ، لم تبق سوى أخشاب تطفو على نهر . وهيا كل عظمية قد تصلح ان يدرس فيها احفادنا كيف تنقرض حيوانات ثديية ، ذات تركيب عضوي شبيه بالتركيب البشري. وهنا وهناك بين حطام الهياكل قد نعثر على سوار ذهبي مطمور ، على عقد لؤلؤي منفرط ، على خاتم لايخفي صدؤه نفيس نقشه ، على معدن لايزال يضحك للشمس من بين التراب... وعلى كثير من الخرز.. والخزف وقطع الزجاج ، والسلاسل ، والتعاويذ..!

قلت في الجولة الماضية ، وقد كانت يدي على الحقائب — اننا اجيال ولدت على صهوات الاحداث — جيل من كان في سن الخامسة والعشرين عام ١٩٣٥ — الى جيل من هو في سن الخامسة والعشرين عام ١٩٦٥ ايضاً — احداث تفر بفرسانها ، ولا تسلم ظهورها . ولا خيار لمن ولد هكذا إلا ان يعيش على قلقة الصهوات ، او يقع تحت الحوافر ، او ان يسقط بعيداً ، فيعيش بلقطة قدر ...

فلا يشمتن جيل بجيل ، ولا يقولن ابن خمسة وعشرين لابن خمسين : انهزمتم . قلناها لمن قبلنا ، وقالها لنا من بعدنا ، وقالها من بعد، هؤلاء .. لأولئك .وما شمت احد بآخر ، الا كان بعد قليل ، موضع شماتة الآخرين .

نخرج من اكواخنا الدافئة ، على ان نعود ولا نعود. وقد تتاح لنا عودة ، لابد ان يعقبها خروج . وهكذا نحرق اقواسنا وسهامها مرة ، ومرة نحرق القياثير . تخدعنا امانينا ، وتضللنا اوهامنا .. وتستمر لعبة العبث ، ويمتد رأس الجسر بعيداً في افق لا شبح لحدوده الضائعة . ونمشي ونمشي كأننا على سلم متحرك، يمشي معنا ، ويدور بنا على انفسنا .

تلكم هي اقدارنا . ولا مفر . وكثيراً ماتمجد الرجال اقدارهم العاتية . ان (سيزيف) لن يستطيع ان يبلغ بصخرته لقمة . ولكنه لن يدع الصخرة ترتد عليه لتسحقه . ان بروميثيوس الذي يواجه قدره مصلوباً على صخور القوقاز انما يواجهه بجرأة من سرق النار من الآلهة ، ليصنع الانسان .

ولو ان كاهن غيب ، حوّل (اوليس) عن طريق رحلاته وعذاباته ، الى طريق سليمة يبلغ بها شاطىء وطنه بسلام لفقد اوليس كل امجاد بطولته . وفي تاريخنا العظيم ، احرق طارقنا مراكبه ، ليواجه قدره ، لا ليهرب منه .

واعود هنا فاذكر القروي ، الشاعر الفارس . لانه الشاعر الذي استطاع ان ينظم حياته في سلك ، ويجريها على صراط فلم يحرق قوسه ، ولم يحرق قيثاره كما فعلت اجيالنا واجيال من قبلنا وبعدنا ، وظل في رحلة (عولسيّة) طولها نصف قرن ، يرسل نباله ، والحانه معاً . يحارب ، وينشد ليرص عزيمة المحاربين . فكان ذلك بحده في قدر امته .

أخي ابا مناف

ذكرتني بخير ، وانت تذكر القروي وتبعث ذكرياتك معه ، فشكراً للكلمة العذبة ، وللتحية الاخوية ، ولو ان كل عامل يكافأ بمثل ما كافأتني به ، لارتفعت كثيراً قيمة العمل ، ولاشتد اشتداداً ساعد العاملين .

اما مازيتني للناس بقولك ان لي في المعرفة صفحات تعلّم ، وتزرع الخصب والنماء . فليس اكثر من ان اتمنى ان اكون بعض ماتراه عين الصداقة وبعض ماتريده كف السخاء والسماحة .

من ذا الذي لا يطمح منا ان يكون نَفَس خصب ، وكف زرع ، وساعد عمل ، وطاقة انتاج وابداع . وهل اذا لم يعط احدنا بقدر ماينوي ، حق عليه ان يرجمه الناس وعابروا السبيل ؟! ومن لم يكن بيدراً ، افلا يستطيع ان يكون زيزفونة في سياج الحقل — مثلا — تحمي

زرعه ، وتصون بيدره ، وتكون في نهاية كل شتاء ، اول من يذيع اخبار الربيع ؟ !

قد تتمنى الزيزفونة أن تعطيهم عنباً ولكنها العذراء التي قد تأبى أن يخصبها اي قدر .. أي قدر ! وانهـا لتهدر زهورها مع اشواقها في مهرجان عابر ، وليال قصار ، وتعود الى سياج البستان عاطلة من حلاجلها المعطرة ، ليس من يذكرها الا ويذكر المرأة العاقر ، او الود الذي لايقيم .

ولكن الزيزفونة لاتشكو ولاتيأس . وفي هذا قدرها ، ومجدها . وانها لتهزأ من عابري السبيل وتظل في سياج الحقل ، تدفعهم عنه ، وتدمي دونه اكفهم وافواههم ، وفي نهاية كل شتاء ، ستبقى اول من يذيع اخبار الربيع ! ...

من استطاع ان يعطي عنباً ، فليعط . او عَرفاً وشذى ، فليفعل . ومن لم تكن بين شفتيه سوى اللعنة ، فليكن كما يريد : عُرفُطاً (*) .هذا قدره .

الم يطل وقوفنـا على الرصيف ياصديقي ؟!

(*) مرة واحدة ، أحيل القارىء الى القاموس ، فعذرة .